الدكتور: محمّد ياسر زكّـور

شَـــــرَفُ الطِّـــــبِّ
في التراث العربي

منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق

سلسلة التراث (1)
2013

البريد الالكتروني: E-mail: aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu.sy

الإخـــراج الفـــني: وفـــاء الـــساطي
تـصميم الغـلاف: وســـام المـــصفي

الدكتور: محمّد ياسر زكّــور

شَــــــرَفُ الطِّـــــبِّ
في التراث العربي

منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق

سلسلة التراث (1)
2013

ب

الإهداء

إلى الذي من أجله كان الطبيب
وإلى الآسي
أهدي هذا الكتاب

ياسر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي علّمنا وأدّبنا فأحسن تأديبنا، والصلاة والسلام على نبيه القائل: " إنّما بُعثت لأتمّم مكارمَ الأخلاق"[1] وعلى آله وصحبه الأخيار، وعلى أوليائه الصالحين، والعلماء العاملين، السالكين على نهجه في الآداب النبوية المحمدية، ورحم الله القائل: " قيراطٌ من الأدب خيرٌ من أربعة وعشرين قيراطاً من العلم"[2]، وبعد.

إنّني إذ أضع هذا الكتاب بين يدي القارئ والطبيب (**الآسي**)، والباحث والمهتمّ، وقد جمعت فيه أقوالاً في شرف الطبّ عبر العصور السالفة، والأنظمة والقوانين والعهود والمواثيق التي قيدت هذه المهنة الشريفة، ليكون منهاجاً وسبيلاً يحتذى به، والرجوع إلى ما حوته دفّتيه من عِبَر ونوادر ذكرت في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، التي شعّت نوراً على مرّ عصور تشهد بعظمة هذه الأمّة.

(1) كشف الخفاء، ج1 ص211، الحديث رقم 638.

(2) هو العلامة علي بن علي الشبراملسي. ينظر ترجمته في فوائد الارتحال ونتائج السفر في أخبار أهل القرن الحادي عشر للشيخ مصطفى بن فتح الله الحموي. الجزء الثالث. (حرف العين).

إنّ شرف الطبّ وآدابه وقوانينه وشروطه التي وضعت عبر هذه العصور كانت للحفاظ على صحّة الإنسان الذي شرفه الله على كافة المخلوقات، فأنّى ننكث هذا العهد؟ وأنّى نضيع المواثيق؟

مازالت القوانين تتعثر في إيجاد الحلول لكثير من المعضلات في مزاولة مهنة الطبّ، والرقيّ بشأنها وشرفها، ونحن إذ نقرأ ما وضعه أجدادنا، وحرصوا على نقله إلينا، نجد ما نحتذي به، وننهج نهجه لَما فيه صلاح المهنة ورفعة شأنها.

هذا، وقد صنّف الأطبّاءُ العرب والمسلمون الكثيرَ من المؤلفات التي تتحدّث عن شرف الطبّ وآدابه، وسلوكه وعهوده وأنظمته وقوانينه وما يمتحن به، ومن هذه الكتب المؤلفة في تاريخ الطبّ وآدابه وشرفه نذكرُ بعض مصادر هذا الكتاب، مثل كتاب "أدب الطبيب" لإسحاق بن علي الرهاوي[1]، و"شرف الطبّ" و"النافع في تعليم الطبّ" لعلي بن رضوان[2]، و"التشويق الطبّي" لصاعد بن الحسن[3]، و"أخلاق الطبيب" و"محنة الطبيب" و"المرشد"، لأبي بكر الرازي[4]، و"بستان الأطباء وروضة الألباء" لابن المطران[5]، و"أدب المريض" لأبي شجاع عمر بن محمد

---

(1) إسحاق بن علي الرهاوي (نسبة إلى الرها من مدن الجزيرة الفراتية) طبيب عراقي، عاش في القرن الثالث الهجري. (أعلام الحضارة ج1 ص167).

(2) علي بن رضوان بن علي بن علي بن جعفر: طبيب مصري عاش بين (388- 460هـ/ 998- 1067م). (أعلام الحضارة ج2 ص97).

(3) صاعد بن الحسن بن صاعد من أهل الرحبة على الفرات الأوسط، سكن دمشق مدة، كان حياً سنة (464هـ/ 1072م).

(4) أبو بكر محمد بن زكريا الرازي، ولد ونشأ في الري، وعاش في بغداد وتوفي سنة 313هـ/ 925م. (الطب الملوكي ص17).

(5) أسعد بن إلياس بن جرجي المطران، من مواليد دمشق وشيخ أطبّائها (توفي سنة 587هـ/ 1191م). (أعلام الحضارة ج3 ص127).

البسطامي البلخي[1]، وغير ذلك من الكتب التي حوت ما يفيد في معرفة شرف الطبّ وشروط متعاطيه وآدابه وسلوكياته.

وضمّنت هذا الكتاب ـ بعد المقدمة ـ عشرين فصلاً وخاتمة:

الفصل الأول: كيفِيّة وجود صناعة الطبّ.

الفصل الثاني: تشريعات الطب قبل الإسلام.

الفصل الثالث: هدي النبي محمد صلى الله عليه وسلم في التطّب.

الفصل الرابع: بداية تنظيم المهن الطبية ونظام الحسبة في البلاد العربية والإسلامية.

الفصل الخامس: شرف الطبّ وفضل الأطباء.

الفصل السادس: سلوك الطبيب وأدبه، وكتمان السرّ.

الفصل السابع: هيئة الطبيب.

الفصل الثامن: التقرّب من المريض وذويه.

الفصل التاسع: في تدبير أدوية المرضى وما يحصل من خطأ.

الفصل العاشر: في تعليم الطبّ.

الفصل الحادي عشر: علاقة الطبيب بذوي المريض وعوّاده، والتعامل مع الأطفال.

الفصل الثاني عشر: اختيار الطبيب، والواجب تجاهه.

الفصل الثالث عشر: علاقة الطبيب والصيدلي.

الفصل الرابع عشر: أدعياء الطبّ.

الفصل الخامس عشر: علاقة الأطبّاء بالحكّام والملوك ومسؤوليتهم في ذلك.

---

(1) عمر بن محمد البسطامي البلخي: محدث، صوفي، أديب، مفكر، وفقيه، (475- 562هـ). شذرات الذهب ج6 ص341. كشف الظنون، ج1 ص101. الأعلام، ج5 ص61. معجم المؤلفين ج2 ص575.

الفصل السادس عشر : محنة (امتحان) الطبيب.

الفصل السابع عشر : في معاش الطبيب وما ينبغي أن يدّخره.

الفصل الثامن عشر : علاقة الطبيب بالطبيب.

الفصل التاسع عشر : اتّخاذ الطبيبة المحسنة.

الفصل العشرون : الأسباب الموجبة لسقوط صناعة الطبّ، ونتائجها.

وأخيراً أتقدّم بالشكر الوافر، للأخ والصديق العزيز، الدكتور فاروق اسليم، الذي كانت أياديه البيضاء ناصعة ساطعة، وذلك في التدقيق الجادّ للكتاب، الناطقِ بالضمير الصادق، ليكون العملُ مرضياً ـ بإذن الله ـ فضلاً عن التقديم للكتابَ بكلماته النابعة من سويداء الفؤاد.

أسأل الله أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، ويكون من العلم الذي ينتفع به حين انقضاء الأجل.

تقديم

بقلم الدكتور فاروق اسليم

نحن في زمنٍ يتطلّع أهلُه إلى الإفادة من شيء عزيز وجوده وعياً وسلوكاً، شيء عزيز تجمعُ شؤونه، وتلمُّ أشتاته كلمةٌ واحدة، هي الشرف، كلمة لها ثقلٌ في كلّ مجال، ثقل لا تعبأ به الرؤوس الفارغة، ولا العزائم الواهية، كما لا تنوء به الهممِ العالية، ولا النفوس الشفيفة، ولا الأرواح اللطيفة، بل تُقبلُ عليه، وتطلبُ الفيءَ في ظلاله.

والشرف هو الشرط الأوّل للنجاح الحقيقي في أيّ مسعىً، وفي كلّ توجّه، وهو المُقَدَّمُ دائماً لدفع الأذى عن الناس، إذ كان المعنيّ بامتلاك الشرف هو الطبيب، لكون مهنة الطبّ رسالة وأمانة، وطريق علم لا تُسبرُ أغوارُه، ولا يُدرك النجاحُ فيه إلا بالشرف المؤسّسِ على وعي العلوم الطبّيّة العامّة، وما يلزم للاختصاص، والمؤسّس أيضاً على السلوك العامّ والخاصّ المناسب لمهنة الطبّ.

وقد عرفت واحداً من الأطبّاء المختصّين في طبّ (الأنف والأذن والحَنجرة) منذ زمن، يرجع إلى مراحل التعليم الجامعي والعالي، وهو من لداتي وأصدقائي، ثم باعدت بيننا الأيام، إلى أن بدأت أتابع أخباره في مجال قريب من اهتمامي العام بالتراث العربي، لكنّه متصلٌ جدّاً باختصاص صديقي الدكتور ياسر زكّور، وهو تحقيق التراث الطبّي العربي، فكان لي في نتاج الدكتور ياسر من البحوث التي أنجزها والكتب التي حقّقها كثيرٌ من الإمتاع والفائدة، إضافة إلى ما يبعثه ذلك النتاج في النفوس من مشاعر الاعتزاز بالمنجز التراثي العربي والإسلامي في المجال الطبّي، ولاسيّما أنّه منجز منفتح على التراث الإنساني أخذاً وعطاءً.

للدكتور ياسر فضل تحقيق ثمانية كتب من التراث الطّبي العربي، منها الطبّ الملوكي لأبي بكر الرازيّ، ونزهة الأذهان في إصلاح الأبدان لداود الأنطاكي، إضافة إلى تأليفه كتابين مهمّين في هذا المجال، هما: تاريخ الطبّ والأطّباء في إدلب الخضراء، والأسرة في التراث الطّبي العربي والإسلامي، كما أن له بحوثاً علميّة منشورة، ومساهمات بارزة في بضعة عشر مؤتمراً علميّاً وندوةً عربيّة ودوليّة.

إنَّ غزارة الإنتاج العلميّ للدكتور ياسر تتّسمُ بالتنوّع تحقيقاً وتأليفاً وبحثاً ونشراً، وهو في حالاته كلّها مخلصٌ للمهمّة النبيلة التي نذر نفسه لها، وللقواعد العلميّة الصارمة التي يحتاج إليها الباحث، في المجال الطّبي خاصّة، لكونه مجالاً كريماً ودقيقاً وقريباً من شرف الرسالة؛ إذ بالطبِّ تُحفظ صحّة الإنسان، وبها يستقيم وجوده، وتُعزّز قدرته على أداء واجباته، واكتساب معاشه، ونيل حقوقه.

إنّ الخبرة الواسعة للصديق الدكتور ياسر في مجال قراءة التراث الطّبي العربي، إضافة إلى خبرته الطّبّية المعاصرة علماً وتطبيقاً وسلوكاً، تكسبه ميزةً مهمّة في توجّهه للتأليف في أمر طّبي لازم لكلّ طبيب، وهو شرف مهنة الطبّ، لذا سيحظى المطالع لهذا الكتاب بفوائد كثيرة، يعرفها الأطّباء عادة، لكنّها تمنحهم فرصةَ الاستمتاع بالتجوال في رياض علميّة عربيّة وإسلامية أسهمت في بناء الحضارة الإنسانيّة، وكانت في زمن امتدّ قروناً نبراساً للبشريّة جمعاء، وعنواناً للتقدّم العلميّ، والرقيّ الإنساني، وبناءً على ذلك سيجد القارئ غير المختصّ في هذا الكتاب معرفة تجمع بين العمق والبساطة في إيصال خلاصة تراثيّة فائقة الأهمّيّة للمهتمّين بالتراث العلمي العربي عامّة، والطّبّ خاصّة.

في هذا الكتاب مباحث شائقة، يجمعها هذا العنوان المغري بالقراءة **(شرف الطبّ في التراث العربي)**، ومن تلك المباحث ما اتّصل بتاريخ الطبّ، وتشريعاته قبل الإسلام، ومنها ما اتّصل بالطبّ النبوي، والتوجّهات الإسلاميّة التي تُبرز تعظيمَ الرسول ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ لمهنة الطبّ، كما سنجد في الكتاب عناوين تتصل بشرف الطبّ من جهة الإقبال على التعلّم والمواظبة عليه، إضافة إلى الحرص على نقل العلم إلى من يستحقّه ويرغب به، وكذلك عناوين تتصل بشرف

الطبّ من جهة هيئة الطبيب ومعاشه ومأكله ومشربه ومجالسه، ومن جهة علاقته بالمرضى وبزملائه من الأطبّاء والصيادلة، وغير ذلك من المباحث الشائقة.

هذا، وآمل أنْ يحظى هذا الجهد الطيّب بما هو جدير به، من الاهتمام طباعة ونشراً وتأثيراً، كما أدعو الله أن يكلأ أخي الدكتور ياسر زكّور بالرعاية، وأن يسدّد توجّهاته العلميّة، لتكون دائمة النفع والإمتاع، وموجبة للرضا والدعاء.

إدلب في 30/8/ 2012م.

صور بعض مخطوطات المصادر

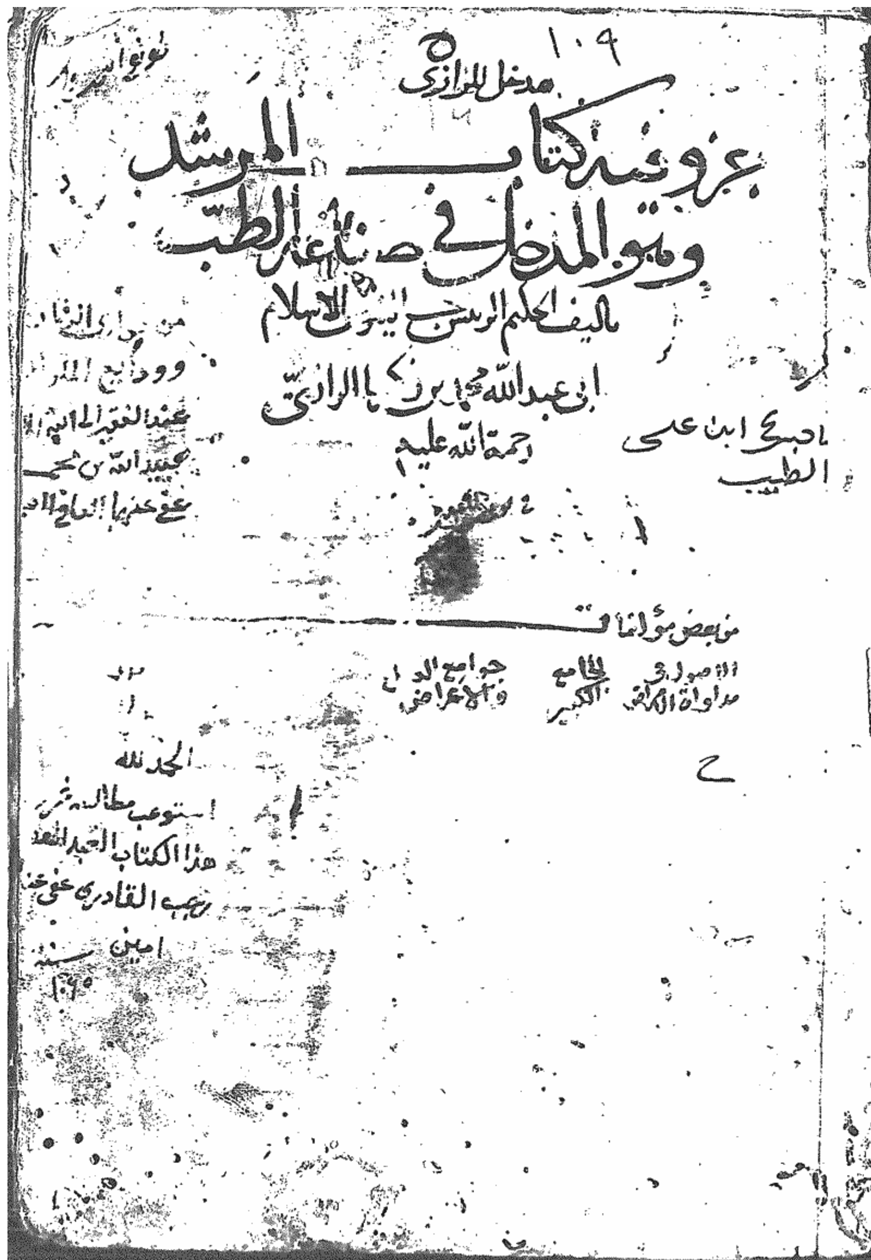
رسالة لابي بكر محمد بن زكريا الرازي الى بعض تلامذته

منقول من خط اصل السيد الروزي

بسم الله الرحمن الرحيم

لما امتع الله بك وبالنعمة فيك انه رجاك الامير فلان
الى حضرته واختصك لخدمته معتمدا في ذلك عليك
وواثقا باسبابه اليك وقد احسن الظن بك
من اختصك لنفسه واعتمد عليك من حفظ
امين روحه فوق ذلك الله لابد يكون اليه من خدمته وما
حقوقه وحفظ صحته انه شيء قريب اعلم انه من اصعب
الاشياء للطبيب خدمة الامراء ومعالجة المترفين
والنساء فان الطبيب لكثير السيرة اذا اشتغل بصناعته
وحفظ الخاصة والعامة فانه يعيش بخير ويكون عليهم

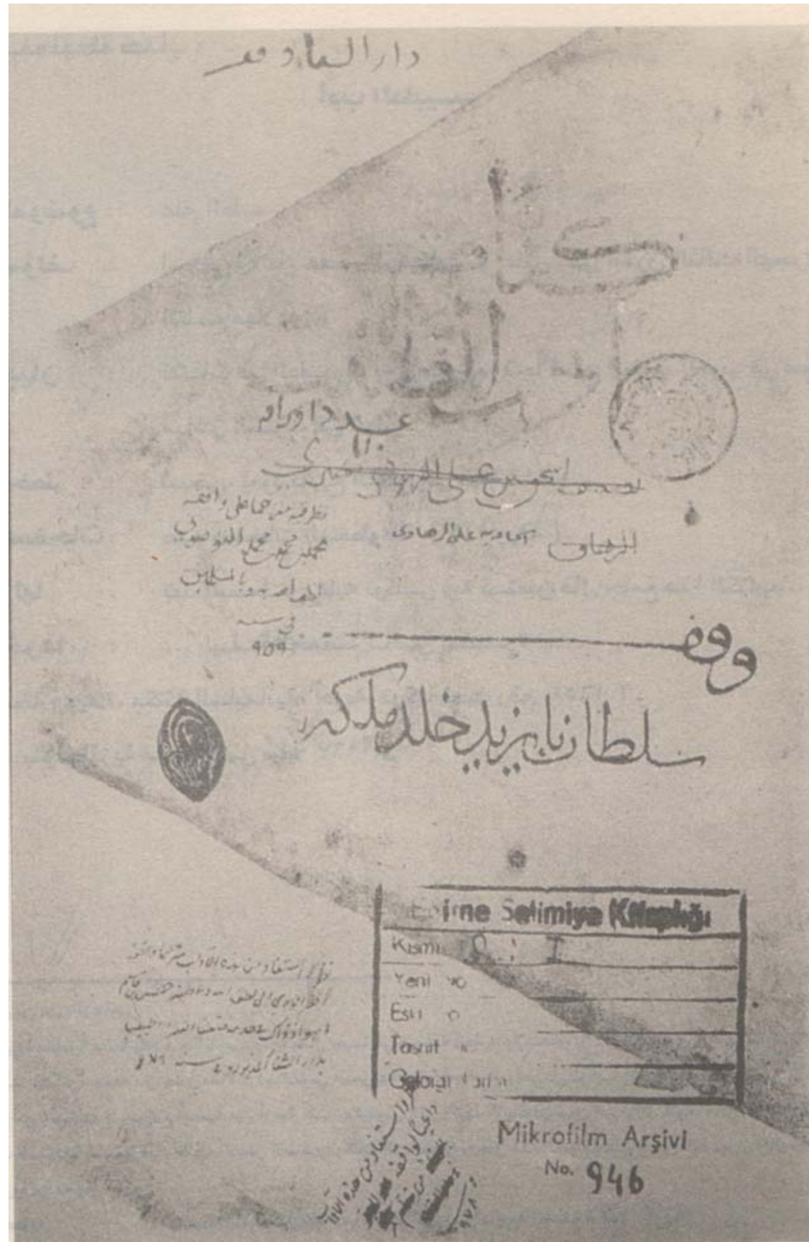
أخلاق الطبيب للرازي، دار الكتب بالقاهرة طب تيمور 119



١٠٩
مدخل للرازي
جزء فيه كتاب المرشد
وهو المدخل في صناعة الطب
تأليف الحكيم الرئيس جالينوس الإسلام
ابن عبد الله محمد بن زكريا الرازي
رحمة الله عليه

الحمد لله

المرشد للرازي، مخطوط مدريد والجامعة الأميركية ببيروت 109



أدب الطبيب للرهاوي، السليمانية أدرنة 1658

2a بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر بخير يا كريم

التشويق الطبي تصنيف صاعد ابن
الحسن الطبيب لخزانه الرئيس الاجل
الكامل ابي المكارم علي بن عبد الوهاب
وتفصيل ذلك في ثلاثة عشر بابا

١١

التشويق الطبي لصاعد بن الحسن، مخطوطة غوتا

بسم الله الرحمن الرحيم   وبه نستعين

مقالة علي بن رضوان في شرف الطب وهي سبعة ابواب ~ الباب الاول في منافع
الطب ومحاسنه ~ الباب الثاني في شرف صناعة الطب ~ الباب الثالث في
تعليم ابقراط صناعة الطب ~ الباب الرابع في تعليم جالينوس صناعة الطب ~
الباب الخامس في تعليم اصحاب الحواشي ~ الباب السادس في تعليم اصحاب التفاسير
الباب السابع في تعليم اصحاب الجوامع ~ الباب الاول في منافع الطب ومحاسنه
قال علي بن رضوان حمد الله منافع الطب ومحاسنه كثيرة منها في البدن ومنها في النفس
ومنها اكتساب الولاية لله عز وجل ومنها اكتساب المال ومنها اكتساب الرياسة
والكرامة اما في البدن فحفظ الصحة ومنع حدوث المرض المزمع بمقاومة اسبابه صحة
ومحو تأثيرها في البدن وانعاش البدن الضعيف حتى يقوى وعلاج المرض وابطاله
واعادة الصحة واطالة العمر بحسب ما يمكن في كل واحد من الابدان الى ان يبلغ اطول
ما يمكن في مثله من العمر الطويل مدة الشباب ومدة الكهولة ومدة الشيخوخة فلو لم يكن
في الطب الا هذه المنافع وحدها لكانت صناعة تستحق ان تؤثر وتقدم ويجتهد في تعليمها
فكيف ولها في البدن ايضا منافع اخر كثيرة وذلك انها تكسب معونة عظيمة على اللذات
وذلك انه يمكن بها ان تجود الهضم للاغذية والتزايد منها وان تعين على استعمال الباه
وتكسب البدن جمالا وزينة مثل صقالة الوجه وبريقه وصبغ الشعر وغير ذلك ولها ايضا
في ايجاد الاطعمة اللذيذة واختيارها في حال حال من البدن ابلغ عمل وافضله ولها ايضا
نفع عظيم في ايام القحط وفي حال الفقر وهي المعرفة بالاشياء المباحة والرخيصة التي
تغذي البدن وتدفع مضارها فيقوم للبدن مقام الخبز واللحم والشراب فيتخلص من مضارها
ومنافع الطب للمريض اربعة احدها ان كان المرض قابلا للبرء واسرع الطب ببرئه وخلاص
البدن منه واعادة الصحة اليه والثانية ان كان المرض قتالا لا نظر فيه وان كان يمكن علاجه بجلد ذلك
واعادة الصحة اليه وان كان لا يمكن تطويل ايام مدة حياته وذلك كمرض الدق والسل المتقلص
والثالثة ان يتخذ للمريض اغذية مزورات التي هي عدد كثير وما يصنع منها ما طعمه ورائحته
ولونه لا يجاد يعرف به ويبين ما هو مزور عليه ويختار لكل مريض من المزورات ما يجانس الاغذية
التي جرت بها عادته في حال صحته والرابعة ان يتلطف في الادوية التي يعالج بها المرض حتى
يسهل على المريض تناولها واستعمالها ويختار منها لكل مريض ما هو ابلغها نفعا فان كان يوثر

الادوية

شرف الطب لابن رضوان، حكيم اوغلي 3 ـ 691 ـ ف ـ 894

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وعلى آله
المقالة الاولى من الكتاب النافع في صناعة الطب
تصنيف ابي الحسن علي بن رضوان المصري وهي ثمانية ابواب
الباب الاول في سبب وضع هذا الكتاب
الباب الثاني في كيفية تعليم القدماء صناعة الطب
الباب الثالث في الاسباب الماحية لمحاسن صناعة الطب
الباب الرابع في اغراض كتب ابقراط ونحو تعليمه
الباب الخامس في كيفية تعليم جالينوس
الباب السادس في ما ينبغي ان يتقدم تعليم صناعة الطب
الباب السابع في الطريق النافع في تعليم صناعة الطب
وذلك حال المعلم والمتعلم وكيف يكتسب بها المال
الباب الثامن في اقتصار الاسكندرانيين على عشرين
كتابا اربعة من كتب ابقراط وستة عشر من كتب جالينوس
الباب الاول في سبب وضع هذا الكتاب ان قصدنا
ان نبين ما النافع في تعليم صناعة الطب وذلك انه
عرض لنا في تعلمها عنت عظيم وتعبنا فيه تعبا عظيما
فلما وقفنا على السبيل المستقيم في تعلمها رأينا ان
نسعف به كل من نظر فيه لتخرج به الواحد من الفتنة
التي نالتنا ولا يقع في حيرة من امره فيفوته الكمال
في صناعة

النافع في تعليم صناعة الطب لابن رضوان ـ تشستربتي 5019

بسم الله الرحمن الرحيم وبه توفيقي

قال جامع هذا الكتاب ابو نصر اسعد بن الياس بن مطران ادام الله سعادته وبلغه في الدارين ارادته اني جامع لنفسي في
كتابي هذا تذاكر مما اطالعه واسمعه من الشيوخ او انسخه من الكتب الطبية وقد وسمته بستان الاطباء وروضة الالباء وجزأته اجزاء
وابتدأت به وانا اسال الله المعونة على اتمامه واسال قارئه ان يكون منصفا لا متعسفا اسامحا فقد قال من يقول رحم الله من قرا
فاخذ من كل شيء احسنه وحسنه ينبغي للطبيب اذا اقدم على مداواة قوم في بلدان ينظر في وضع المدينة ومزاج الهواء المحيط بها والمياه
الجارية فيها والتدبير الخاص الذي يستعمله قوم دون قوم فان هذه كالاصول ثم بعدها النظر في سائر الشرائط مثل طريق
الطبيعة كالمدعي والعلة كالخصم والعلامات كالشهود والقارورة والنبض كالبينة ويوم البحران كيوم القضاء والفصل والمريض
كالموكل والطبيب كالقاضي نكتة اسم اليرقان مشتق من اسم طاير ذهبي اللون يكون وجوده كثيرا في شدة الحر ومداواة من العصور
في الاكثر وفي الخراب [illegible] العلة في ان اصحاب اليرقان يذوقون الحلو فيحسوا به مرا ان الصفرا غلبت على ابدانهم جميعا وعلى
حواسهم فاذا ورد طعم الى الفم دلالة الحاسة اثار الكامن في الحاسة من ذلك الخلط المر لامتزاجها للذوق فحس المذوق
فاحست المرارة اول ملاقى وسابق [illegible] لا تعجب من بعض الاعضاء يوافق كيفية لو حرت على غيره مما هو قريب منه في المزاج
لاضرت به ضررا بينا كالمرارة تحمل المرار الاصفر وتوافقه وينفعها ولو قطر على المثانة على قرب مزاجها من مزاجها على حدة
وجهه لاتكالها وقرحها فان في بعض الاعضاء معاني يوافق بها ما لا يقاس عليه غيره يشهد لذلك الرحم يحمل الجنين
ولا يحمل الحشيش في هاريح وقصبة الرية تحمل الهواء ولا يحمل اللبابة ولا القطرة من الماء الا ويحدث التقزز بها والانزعاج الى
اخراجها [illegible] لا تهمل علاج اليرقان فان كثيرا اهملوه فادى بهم الى الموت فجاة ينبغي متى اردت ان تقطع بقضية
ان تنظر فيها هل هي من المشتركة او من المفردة فان كانت من المفردة كعلامات ذات الجنب اللاتي لا تدل على غيرها فانت
من قضيتك على ثقة وان كانت من المشتركة كالفواق في اليرقان التابع لورم الكبد الحار الدال على الموت لا محالة

بستان الأطبّا وروضة الألبّا لابن المطران، مجلس شورى **3821**

الفصل الأوّل
كيفِيّة وجود صناعة الطبّ

من أجل المريض كان الطبيب، فكيف بدأت صناعة الطبّ على وجه الأرض؟ إذ من الطبيعي أن يصاب كلّ مخلوق بأمراض متعددة، ويحتاج إلى الطبّ، فكيف وجدت هذه المهنة الشريفة بين البشر؟ قيل: إن الطب ملهم، وقيل: إنه مستنبط.

قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿**قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾ [1]. صدق الله العظيم.

إنّ من يتمعن بهذه الآية الكريمة، يجد كيف أن الله ميّز كلاّ من مخلوقاته بميزات اختصّها بها، ثم هدى كلّ مخلوق ـ من حيوان وإنسان ونبات، إلى مطعمه، ومشربه، وسبل تناسله، ومداواته في حال مرضه.

فالقول في وجود صناعة الطبّ ينقسم قسمين رئيسين: الأوّل يعتقد بقدم صناعته، والثاني يقول بحدوثه. فالذين يعتقدون حدوث الأجسام يقولون: إنّ صناعة الطبّ مُحْدثة، لأنّ الأجسام التي يستعمل فيها الطبّ محدثة. والذين يعتقدون القدم، يعتقدون قدم الطبّ ويقولون: إن صناعة الطبّ قديمة، لم تزل مذ كانت، مثل خلق الإنسان.

---

[1] سورة طه ـ الآية 50.

أمّا أصحاب الحدوث فينقسم قولهم قسمين ؛ فبعضهم يقول : إن الطبّ خلق مع خلق الإنسان، إذ كان من أحد الأشياء التي بها صلاحه. وبعضهم يقول ؛ وهم الجمهور : إنّ الطبّ استخرج بَعْدُ، وهؤلاء أيضاً ينقسمون قسمين : فمنهم من يقول إن الله تعالى ألهم الناس علوم الطبّ، وأصحاب هذا الرأي هم على ما يقوله جالينوس وأبقراط. ومنهم من يقول إن الناس استخرجوها ؛ وهؤلاء من أصحاب التجربة وأصحاب الحيل، وهم أيضاً مختلفون في الموضع الذي استخرجت فيه المعارف الطبيّة وبماذا استخرجت ؛ فبعضهم يقول إن أهل مصر استخرجوها، وبعضهم يقول : استحدثها الكلدانيّون والهنود وغيرهم.

والاعتقاد الغالب أن **هرمس** الأوّل (وهو عند العرب النبي إدريس) استخرج سائر الصنائع والفلسفة والطبّ، فهو أوّل من درس الكتب، ونظر في العلوم، وأنزل الله عليه ثلاثين صحيفة، وهو أوّل من خاط الثياب ولبسها، وأوّل من نظر في الطبّ، وتكلّم فيه. كان مسكنه صعيد مصر، فبنى هناك الأهرام، وصور فيها جميع آلات الصناع، وأشار إلى صفات العلوم لمن بعده برسوم، حرصاً منه على تخليد العلوم لمن بعده وخيفة أن يذهب رسم ذلك من العالم. وهذا كان قبل الطوفان الذي أنذر به.[1]

فالذين قالوا : إن الطبّ من الله تعالى، قال بعضهم : هو إلهام بالرؤيا، واحتجّوا بأنّ جماعة رأوا في الأحلام أدوية استعملوها في اليقظة فشفتهم من أمراض صعبة، وشفت كلّ من استعملها. وقال آخرون : ألهمها الله تعالى بالتجربة، ثم زاد الأمر في ذلك وقويَ.

والذين قالوا : إن الله تعالى خلق صناعة الطبّ، احتجّوا في ذلك، بأنه لا يمكن في هذا العلم الجليل أن يستخرجه عقل إنسان، وهو رأي **جالينوس**، في قوله : " وأمّا نحن فالأصوب عندنا والأَوْلى أن نقول : إن الله تبارك وتعالى خلق صناعة الطبّ وألهمها الناس، وذلك أنّه لا يمكن في مثل هذا العلم الجليل أن

---

[1] الهرامسة ثلاث : الأول قبل الطوفان، والثاني البابلي، والثالث المصري. ينظر صاعد : طبقات الأمم ص 18.

يدركه عقل الإنسان، لكن الله تبارك وتعالى هو الخالق، الذي هو بالحقيقة فقط يمكنه خلقه، وذلك أنّا لا نجد الطبّ أحسن من الفلسفة التي يرون أن استخراجها كان من عند الله تبارك وتعالى"[1].

وكذا يقول **أسعد بن إلياس بن المطران**: "**سبب وجود هذه الصناعة وحيٌ وإلهامٌ، والدليل على ذلك أنّ هذه الصناعة موضوعة للعناية بأشخاص الناس، إما لكي تعطيهم الصحّة عند المرض، وإما لأن تحفظ الصحّة عليهم، وممتَنَعٌ أن تعنى الصناعة بالأشخاص بذاتها دون أن تكون مقرونةً بعلمٍ أمرِ هذه الأشخاص التي خُصّت العناية بها.... هذا يؤدي أيضاً في باقي العلوم والصناعات إلى أنّها إلهام، لأنها ذات إتقان أيضاً**".[2]

---

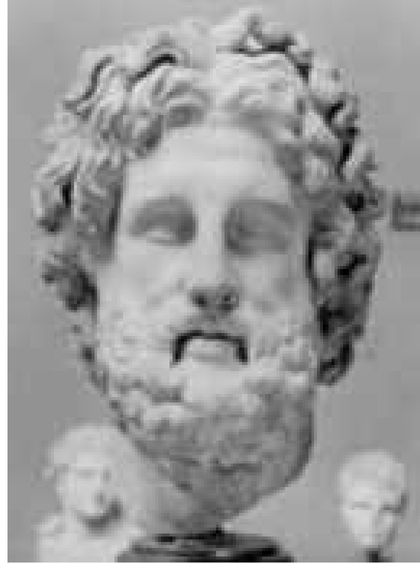
[1] ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص12 ـ 13.

[2] أسعد بن المطران: بستان الأطباء وروضة الألباء، الورقة 37/ظ من مخطوط مجلس شورى برقم 3821.

ميكافيس وكانت كيفيا تما الخاصية ... لكنه لم تقل أي صورة الصحة ... أردفيلوس قال فأما ما هي الصحة
مثل أي شيء هي فاطس أنه غير معلوم وأبولونيوس الطبيب قال إن الصحة هي اتفاق وإنما اتفاق القوى المكتسبة للحيوان
[illegible] عرض بقراط في كتاب الفصول بتعديد أنواع الأمراض المختلفة في الجنس الحادثة
بحسب الأسنان والأحوال والتدبير وبيّنها بعضا بعضا مُعرًّا من التحليل ... الفرق بين الجمل والاختصار والجوامع أن الجمل
معانٍ مسوقة حاصرة لأقسام الوضع العامية وأن الاختصار انتزاع معان عامة مذكرة بأقسام الوضع الجزئية وأن
الجوامع معان لكل منها أقسام الوضع الجزئية على ترتيب ... سبب وجود هذه الصناعة وحي وإلهام الدليل على
ذلك أن هذه الصناعة موضوعة للعناية بأشخاص الناس إما لأن يعيد لهم الصحة عند المرض وإما لأن يحفظ الصحة عليهم و
ممتنع أن تعتني الصناعة بالأشخاص بذاتها دون أن يكون مقرونة بعلم أمر هذه الأشخاص بذاتها دون أن يكون مقرونة بعلم
أمر هذه الأشخاص التي حصت العناية بها ومن البين أن الأشخاص ذوات مبدأ لوقوعها تحت العدد وكل معدود فأوله
واحد يكثر ولا يجوز أن يكون أشخاص الناس إلى ما لا نهاية له لأن خروج ما لا نهاية له إلى الفعل محال ... ليس كل ما لا متعذر
على حصره فلا نهاية له بل قد يكون له نهاية يضعف عن حصرها قال وإذا كانت الأشخاص التي لا تقوم بها الصناعة
إلا بها ذوي مبدأ ضرورة والصناعة ذات مبدأ ضرورة ومن البين أن الشخص الذي هو أول الكثرة منفرد النهاية كـ
سائرهم ومن البين أيضا أنه لا يأتي من أول شخص وجد علم هذه الصناعة استنباطها لقصره عمره وطول الصناعة ولا يجوز
أن يجتمعوا في مبدأ الكثرة على استنباطها من أجل أن الصناعة متقنة محكمة وكل أمر متقن لا يستنبط إلا باختلاف بل
بالاتفاق والأشخاص التي هي أول في الكثرة لا يجوز أن يجتمع على أمر متقن من أجل أن كل شخص لا يبادي كل شخص من جميع
الجهات وإذا لم يتأتّ من جهة آرائها لم يجز أن يجتمع على أمر محكم ... هذا يؤدي أيضا في باقي العلوم والصناعات
إلى أنها إلهام لأنها ذوات اتفاق أيضا وقوله إنه إن الأشخاص لا يجوز أن يجتمع على أمر متقن ليس شيء بل اجتماعها لا
يكون إلا على أمر متقن وإنما الاختلاف يقع مع عدم الاتفاق قال فقد بان أن الأشخاص في مبدأ الكثرة لا يتأتى منها
استنباط هذه الصناعة وكذلك عند نهاية الكثرة لتباينهم واختلافهم ووقوع الخلف بينهم ويقول أيضا يجوز أن يشك شاك

الورقة 37/ظ من مخطوط بستان الأطباء، نسخة مجلس شورى 3821

وعلى رأي ابن المطران ؛ إن كان جالينوس قال في تفسير "العهد" : إن هذه الصناعة وحي وإلهام، وقال : "إن طب أسقليبيوس[1] كان طبّاً إلهياً، وقال أيضاً : إن قياس الطبّ الإلهي إلى طبّنا، قياس طبّنا إلى طبّ الطرقات. وإن الله تعالى أوحى إلى أسقليبيوس أنّي إلى أن أسميك ملكاً أقرب منك إلى أن أسميك إنساناً". وقال أبقراط : "إن الله تعالى رفعه إليه في الهواء في عمود من نور". لكن مع ذلك فإن تبعيد حصول صناعة الطب باستنباط العقول خطأ، وتضعيف للعقول التي استنبطت أجلّ من هذه الصناعة.



أسقليبيوس

---

[1] أول من ذكر من الأطباء، وهو تلميذ هرمس المصري، ومسكنه أرض الشامات ، ينظر ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ص 11.

استنباط الطب:

يدافع المتبنّون للرأي القائل بأن صناعة الطب مستنبطة، كابن المطران، بالحجج التالية:

ـ لنفترض أنّ أوّل العالم كان إنساناً واحداً محتاجاً إلى صناعة الطب، كحاجة هذا العالم الغفير اليوم، ثقل عليه جسمه، واحمرّت عيناه، وأصابه علامات الامتلاء الدموي، لا يدري ما يفعل، وأصابه من قوتّه الرعاف، فزال عنه ما أصابه، وتعلّم ذلك. عادت إليه هذه الأعراض مرّة أخرى، وبادر إلى أنفه فخدشه ليجري منه الدم، فسكن عنه ما كان يجده، وصار ذلك عنده محفوظا يعلّمه لولده ونسله، وأصبح يجرى بتقنية أفضل، وتطور إلى الفصد، فصار هذا باباً من الطب.

ـ مثال آخر على ذلك: شخص امتلأ من الطعام امتلاءً مفرطاً، فأصابه من طبيعته أحد الاستفراغين؛ إما القيء وإما الإسهال، بعد غثيان وكرب وقلق وتهوع ومغص وقراقر وريح جوالة في البطن، عند ذلك سكن جميع ما كان يجده. وشخص آخر تناول بعض اليتوعات[1] فمغصه وأسهله وقيّأه كثيراً، عرف أن هذه الحشيشة تفعل هذا الفعل، وأن ذلك يخفف تلك الأعراض ويزيلها، فذكره لذاك الشخص، وحثّه على استعمال القليل منه لّما تأخّر عليه القيء والإسهال، وصعبت عليه الأعراض، فوصل إلى غرضه منهما وخفّف عنه ما لقي من شرّ تلك الأعراض. تطورت الصناعة ودرست باقي الحشائش، فعرف القوي منها والضعيف، وساعدت هذه التجربة بتثبيت الظن باليقين، فصار هذا باباً آخر في الطب.

ـ يروى في زمن جالينوس؛ أن رجلاً اشترى كبداً طريّة من جزّار ومضى إلى بيته، احتاج أن ينصرف إلى حاجة أخرى، فوضع تلك الكبد التي كانت معه على أوراق نبات مبسوطة كانت على وجه الأرض، قضى حاجته وعاد ليأخذ الكبد فوجدها قد ذابت وسالت دماً، أخذ تلك الأوراق وعرف ذلك النبات وصار يبيعه

[1] اليتوع من النبات كل ما له لبن مسهل كالشبرم والتين وغير ذلك.

دواءً قتّالاً، حتى انكشف أمره فحوكم وقُتل. قيل إنّ جالينوس كان السبب في القبض على ذلك الرجل وإرساله إلى الحاكم الذي أمر بقتله، قال جالينوس: وأمَرت أيضاً في وقت مروره إلى القتل أن تُشدّ عيناه حتى لا ينظر إلى ذلك النبات، أو أن يشير إلى أحد سواه فيتعلمه منه.

لكن صاحب النفس الفاضلة المفيدة للخير ـ جالينوس، نظر حينئذ فعلم أن هذا النبات الذي فعل ذلك الفعل لا بد أن يكون قد خُلق له ما يقاوم ضرره، فتّش عليه بالتجربة، ولم يزل يطلب في كلّ يوم أو في كلّ وقت حيواناً فيعطيه الأوّل ثم الثاني، وإن لم ينفع فيه طلب غيره، حتى وجد ما يضاده.

هذا ما حصل أيضاً في استخراج الترياق الذي لم يكن سوى حَبّ الغار وعسل، ثم زيد فيه كثير من الأدوية، لا بوحي ولا إلهام، لكن بقياس وصفاء عقول، وفي مدّة طويلة.

فإن سألنا: من أين علم أن الدواء لا بدّ له من ضدّ؟، أجيب: إنهم لما استدلّوا إلى نبات "قاتل البيش"[1] مثلاً، الذي إن وقع على نبات البيش جففه وأتلفه، والعالم الفطن يمكنه معرفة كيفيّة استخراج ذلك. هذا ما كان على رأي أسعد بن مطران في استنباط الطب.[2]

أمثلة من إلهام الطب عند الإنسان:

ـ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنّه قال: كان سليمان بن داودَ عليهما السلام، إذا صلّى رأى شجرة نابتة بين يديه، فيسألها ما اسمك؟ فإن كانت لغرس غُرست، وإن كانت لدواء كُتبت، وفي رواية أُنبتت.

ـ قال جالينوس: إني أُمِرت في منامي مرّتين بفصد العِرْق الضارب الذي بين السبابة والإبهام من اليد اليمنى، فلما أصبحتُ فصدتُ هذا العَرق وتركت الدم

---

(1) البيش Aconitum ferox، نبات، وهو سم قتال. وقاتل البيش هو نبات يسمى (بيش موش بيشا Aconitum Napellus) ينبت مع البيش وهو أعظم ترياق للبيش.

(2) عيون الأنباء: 12 ـ 32.

يجري إلى أن انقطع من تلقاء نفسه، فكان ما جرى أقل من رطل[1] فسكن الوجع الذي كنت أجده قديماً في موضع الكبد منذ كنت غلاماً.

ـ قال أريباسيوس[2]: إن رجلاً عرض له في المثانة حَجَر عظيم، قال: وداويته بكل دواء مستصلح لتفتيت الحجر، فلم ينتفع البتّة وأشرف على الهلاك. فرأى في النوم كأن إنساناً أقبل عليه وفي يده طائر صغير الجثّة، وقال له إن هذا الطائر اسمه "صَفْراغون"[3]، ويكون بالمواضع السبخة والآجام[4]، فخذه، واحرقه، وتناول من رماده حتى تشفى من هذه العلّة. ولما استيقظ فعل ذلك، فأخرج الحجر من مثانته متفتتاً كالرماد، وبرأ برءاً تاماً.

ـ ومما حصل أيضاً من ذلك بالرؤيا الصادقة؛ أن بعض خلفاء المغرب مرض مرضاً طويلاً، وتداوى بمداواة كثيرة، ولم ينتفع بها، إلى أن رأى في بعض الليالي النبيَّ، صلى الله عليه وسلم، في نومه، وشكى إليه ما يجده، فقال له صلى الله عليه وسلم: ادهن بلا، وكُلْ لا، تبرأ، فَلَمّا استيقظ من نومه بقي متعجباً من ذلك ولم يفهم ما معناه، فسأل المفسرين عنه، وكلٌّ منهم عجز عن تأويله، ما خلا واحد منهم يقال له علي بن أبي طالب القيرواني، قال: يا أمير المؤمنين، إن النبي صلى الله عليه وسلم، أمرك أن تدهن بالزيت وتأكل منه فتبرأ. فسأله: من أين له معرفة ذلك؟ قال: من قول الله عز وجل: ﴿**مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ**﴾[5]، فلما استعمل ذلك صلح وبرأ برءاً تاماً.

---

[1] حوالي 300غ.

[2] من الأطباء المشهورين بعد وفاة جالينوس، من أطباء يليان الملك.

[3] صفراغون Trochilos أصغر العصافير لونه متوسط بين اللون الأصفر والرمادي وفي جناحيه ريش ذهبي وفي ذنبه نقط بيض وله حركات متواترة وصفير دائم، يسمى في الشام السكسوكة. (معجم الحيوان ص265).

[4] الآجام: الدغلات.

[5] النور ـ 34.

ـ وقال ابن زُهر الأندلسي[1] في كتابه "التيسير في المداواة والتدبير": إنني كنت قد اعتل بصري من قيء بُحراني[2] أفرط عليّ، فعرض لي انتشار (توسع) في الحدقتين، فشغل بذلك بالي، فرأيت في ما يرى النائم طبيباً، أمرني بالاكتحال بشراب الورد، وكنت في ذلك الزمان طالباً، فأخبرت أبي ـ الذي كان متمرّساً في مهنة الطبّ ـ فنظر في الأمر مليّاً، ثم قال لي: استعمل ما أمرت به في نومك، فانتفعت به. ثمّ لم أزل أستعمله إلى وقت وضعي هذا الكتاب في تقوية الإبصار.[3]

تجارب حصلت بالاتفاق والمصادفة والقياس:

هناك العديد من القصص التي تذكر في كتب التراث الطبي عن حصول بعض التجارب والمصادفات التي حدثت وعرف منها منافع الأدوية؛ نباتية كانت أو حيوانية أو غيرها:

ـ **الترياق Antidote**: بدأه **أندروماخوس** الأول[4] بحبّ الغار، وعرفه من غلام جلس ليبول فلدغته حيّة، فمضى إلى الغار، وأكل من حبه، ولما سأله أندروماخوس قال: إنهم يستعملون هذا الحب لذلك، فعرفه، وأضاف له أدوية أخرى تعرف بمقاومتها للسموم.

ذكر أندروماخوس الثاني[5] الأسباب التي جعلته يضيف لحوم الأفاعي إلى الترياق، في قصص منها:

ـ كان يعمل عندي في بعض ضياعي حراثون، وكنت أحمل لهم الطعام والشراب. وفي بعض الأيّام أخرجت لهم إناء فيه خمر، مطيّن الرأس، فلما أدخل

---

[1] عبد الملك أبو مروان بن أبي العلاء توفي 557هـ

[2] البُحران: استفراغ يعرض للعليل دفعة بعد اضطراب وقلق شديد، إما بقيء أو إسهال أو رعاف....

[3] عيون الأنباء: 12 ـ 32.

[4] كان في زمن الإسكندر، قبل جالينوس.

[5] بعد الأول بألف ومائة وخمسين سنة.

أحدهم يده مع كوز ليغرف الشراب، وجد فيها أفعى مهترئة، فأمسكوا عن الشراب، وقالوا: إن في هذه القرية رجلاً مجذوماً[1] يتمنى الموت من شدة ما به، فنسقيه من هذا الشراب ليموت، فمضوا إليه بزاد وسقَوْه من هذا الشراب، فلمّا كان قريب الليل انتفخ جسمه نفخاً عظيماً، وبقي إلى الغداة، ثم سقط عنه الجلد الخارج، وظهر الجلد الداخل الأحمر، ولم يزل حتى صلب جلده وبرأ، وعاش دهراً طويلاً. فهذا دليل على أن لحوم الأفاعي تنفع من الأمراض الشديدة المزمنة في الأبدان.

ـ حكى أيضاً أنه كان للملك يبولس غلام شرّير جداً، أجتمع الوزراء والرؤساء على قتله، فسحقوا وزن درهمين من الأفيون، ووضعوه في شرابه، ولمّا ظنّوا أنّه قد مات نقلوه إلى أحد البيوت، وأقفلوا عليه، ثم ذهبوا إلى الملك ليعلموه بأنه قد مات فجأة، ويبعث رجاله يشاهدوه، وإذا بأفعى تدخل إلى البيت الذي فيه الغلام، وبعد ساعة سمعوا الغلام يصيح بهم لم أقفلتم عليّ الباب؟ أعينوني، لقد لسعتني أفعى! فكسروا الباب، وخرج وليس به أيّ مكروه. كان هذا أيضاً دليلاً على أن لحوم الأفاعي تنفع من ضرر الأدوية القتالة المهلكة ـ كالأفيون.[2]

---

[1] هو المصاب بمرض الجذام.

[2] عيون الأنباء: 12 ـ 32.



من كتاب " الترياق " لجالينوس، يحتمل أنها رسمت شمال العراق سنة 1199م[1]

ـ ومن هذا القبيل ما حصل مع أبي الفرج جورجس بن يوحنا بن سهل بن إبراهيم اليبرودي (ت426هـ/1034م): كان بدمشق فاصد يقال له أبو الخير، ولم يكن من المهرة، فكان من أمره أن فصد شابّاً فوقعت الفصدة في الشريان، فتحيّر، وتبلّد، وحاول قطع الدم فلم يقدر على ذلك، فاجتمع الناس عليه، وفي أثناء ذلك اطّلع صبي عليه، فقال: يا عمّاه افصده في اليد الأخرى، فاستراح إلى

[1] عن كتاب الفن الإسلامي، ترجمة منير صلاحي.

كلامه، وفصده من يده الأخرى، فقال: شدَّ الفصد الأول، ففصده، ووضع لازوقاً كان عنده عليه، وشدّه فوقف جرية الدم، ثم مسك الفصدة الأخرى فوقف الدم وانقطع الجميع. وكان الصبي يسوقُ دابّة عليها حمل شيح، فتشبث به الفاصد وقال: من أين لك ما أمرتني به؟ قال: أنا أرى أبي في وقت سقي الكرم، إذا انفتح شقٌّ من النهر وخرج الماء منه بحدّة، لا يقدر على إمساكه دون أن يفتح فتحاً آخر ينقص به الماء الأول الواصل إلى ذلك الشقّ، ثم يسدّه بعد ذلك. قال: فمنعه الجرائحي من بيع الشيح واقتطاعه، وعلّمه الطبّ، فكان منه اليبرودي من مشاهير الأطباء الفضلاء.[1]

ـ مما حصل أيضاً أنه كان بأفلوللن (من سلالة أسقليبيوس) ورم حار في ذراعه، مؤلم ألماً شديداً، فلما أشفى منه[2]، ارتاحت نفسه إلى الخروج إلى شاطئ نهر كان عليه النبات المسمى "حي العالم[3]"، وضع ذراعه عليه تبرداً به، فخفف بذلك ألمه، فأطال مدّة وضع يده عليه، وأعاد الكرّة في صباح اليوم التالي، فبرأ برءاً تاماً. وشاع استخدامه بين الناس لذلك، وقيل إنه أول ما عرف من الأدوية.[4]

---

[1] عيون الأنباء ـ 611.

[2] أي قرب من الموت.

[3] نبات صغير دائم الحياة، ينبت بالجدران والصخور اسمه العلمي Sempervivum

[4] عيون الأنباء ص 32.



صفحة من "كتاب الترياق" تظهر عمالاً يعملون في زراعة النباتات التي كانت تزرع لخصائصها الطبية (عن الفن الإسلامي)

إلهام المداواة عند الحيوانات:

ليس الإنسان فقط من أُلهِم صناعة الطب، بل ألهم الله أيضاً الحيوانات، وشاهدها الإنسان، فاقتبس منها، وتعلّم. وتروي كتب التراث كثيراً من هذه القصص، ومنها:

ــ ذكر الرازي في كتاب "الخواص" أن الخطّاف إذا أصاب فراخه اليرقان، مضى فجاء بحجر اليرقان[1] ؛ يضعه في عشه فتبرأ الفراخ. والإنسان إذا أراد ذلك الحجر طلى فراخ الخطّاف بالزعفران، فيظنّ قد أصابهم اليرقان، ويمضي فيجيء بذلك الحجر، يأخذه الإنسان ويعلقه على من به اليرقان لينتفع به.[2]

ـ ويروى عن أنثى العقاب، أنه إذا تعسر عليها بيضها وخروجه، وصعب حتى تبلغ الموت، ورأى ذَكَرُها ذلك، طار وأحضر حجراً يعرف بالقَلْقَل، لأنه إذا حُرِّك تقلقل في داخله، فإذا كسر لم يوجد فيه شيء، وكل قطعة منه إذا حركت تقلقلت مثل صحيحه، أكثر الناس تعرفه بحجر العقاب أو حجر النسر، لأنه يوجد في أوكارها، يضعه فيسهل على الأنثى بيضها. يستعمله الناس أيضاً في عسر الولادة على ما استنبطوه من العقاب.

ـ مثل ذلك أيضاً أن الحيّات إذا أظلمت أعينها لكمونها في الشتاء في ظلمة الأرض، وخرجت من مكامنها عند دفء الجو، تذهب إلى نبات الرازيانج[3]، وتُمِرُّ عيونها عليه فيصلح ما بها. لّما رأى الناس ذلك جربوه فوجدوا من خاصيته إذهاب ظلمة البصر إذا اكتحل بمائِهِ.

---

[1] هو حجر أبيض صغير يعرفه، ولا يوجد منه إلا ما يرى في بيت الخطاطيف، يسمى أيضاً حجر الخطاطيف، يتولد بسرنديب من أرض الهند، في قدر أنملة.

[2] الرازي، مخطوط كتاب الخواص، نسخة دار الكتب المصرية برقم 4/141 طب 441.

[3] هو الشمرة أو الشمار Foeniculum vulgare

ـ ذكر جالينوس في كتابه "في الحقن" عن أرودوطس[1]، أن طائراً يدعى أيبس[2] هو الذي دل على علم الحقن. زعم أن هذا الطير كثير الأكل، لا يترك شيئاً من اللحوم إلا أكله، فيحتبس بطنه، ورآه مرة يأكل السمك ثم يتمرغ ببطنه على الرمل، فإذا اشتد ما به توجه إلى البحر ليأخذ بمنقاره من ماء البحر ثم يدخله في دبره، فيُخرِج بذلك الماء ما كان محتقناً في بطنه. يقول داود الأنطاكي: بذلك استدلوا على أن البورق (Boric) يزاد في الحقنة إذا زادت الرياح.

ـ يحكى أن الدواب إذا أكلت الدفلى[3] في ربيعها أضرّ ذلك بها، فتسارع إلى حشيشة تسمى "كف مريم"[4] هي بادزهر[5] للدفلى، فتأكلها ويكون بها برؤها.

ـ ذكر أوحد الزمان[6] في كتاب "المعتبر": أن إنساناً رأى الحُبارى تقاتل الأفعى، وتنهزم عنها إلى بقلة تتناول منها، ثمّ تعود لقتالها، وأن هذا الإنسان عاينها، فذهب إلى البقلة وقطعها عند اشتغال الحبارى بالقتال، ولما عادت الحبارى إلى منبتها، فقدتها، وطافت مكانها، فلم تجدها، خرّت ميتة لأنها كانت تتعالج بها. قال أيضاً: ابن عرس يستعين في قتال الحية بأكل السذاب[7]. والكلاب إذا دوّدت بطونها أكلت السنبل[8] وتقيأت وأسهلت. وإذا جُرِحَ اللقلقُ داوى جراحه بالزعتر الجبلي. والثور يفرق بين الحشائش المتشابهة في صورها، ويعرف ما يوافقه، فيرعاه، وما لا يوافقه، فيتركه، مع نهمه وكثرة أكله وبلادة ذهنه.[9]

---

[1] يقول الرازي في الحاوي: أحسبه لروفس. وكلاهما أقدم من جالينوس، وروفس بين ابقراط وجالينوس، وهو من ثغور طرسوس، يقال إنها بلد أصحاب الكهف.

[2] Ibis يسمى أبو منجل أو اللقلق الأسود.

[3] Nerium Oleander نبت مر لا تأكله حتى الدواب.

[4] الفَنْجَنْكُشْت Vitex agnus.

[5] البادزهر اسم عام لجميع أدوية السموم.

[6] هبة الله بن علي بن ملكا، توفي 560هـ.

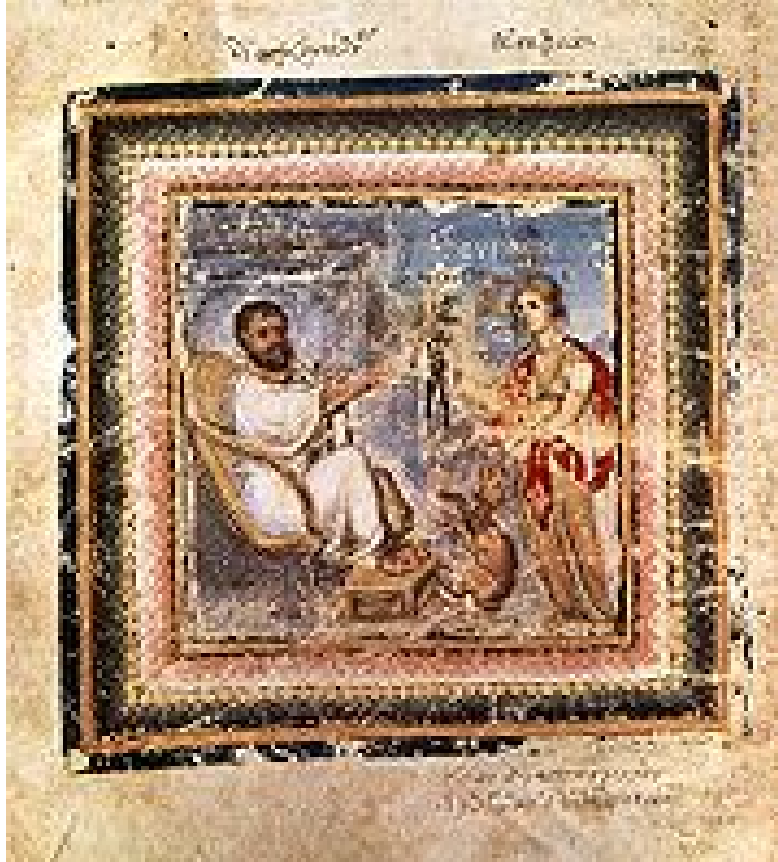
[7] نبات مثل الرمان يسمى الفيجن Ruta Angustifolia.

[8] هو الناردين Nardostachys.

[9] عن عيون الأنباء: 12 ـ 32.

نخلص ممّا سبق أنه إذا كانت الحيوانات التي لا عقول لها، أُلهِمت مصالحها ومنافعها، فإن الإنسان العاقل المميز المكلف، الذي هو أفضل المخلوقات، أَوْلى بذلك، وهذا أكبر حجّة لمن يعتقد أن الطبّ إنما هو إلهام وهداية من الله سبحانه لخلقه.

لكن بما وهبه الله للإنسان من عقل، يجعله ـ إضافة إلى الإلهام الإلهي ـ قادراً على أن يستخلص، ويستنبط، بالتجربة والقياس، ما يطوّر ويحسّن مهنة الطبّ، باكتشاف أدوية جديدة، وطرق علاج أفضل، وذلك بشكل مستمر ودائم على مر العصور، حتى يقبض الله الأرض وما عليها.



لوحة تمثل ديسقوريدس العشّاب (فينّا)

الفصل الثاني
تشريعات الطب قبل الإسلام

ظهرت تشريعات ناظمة لمهنة الطب في التاريخ القديم ؛ كشريعة حمورابي ، ومدوّنة مانو الهندي[1] ، وقانون الألواح الاثني عشر[2] ، وكان أهمها شريعة حمورابي (1748 ـ 1686 ق.م) الذي حكم بلاد الرافدين ، وقد ضم هذا التشريع أحكام ذوي المهن كالجرّاح ، والبيطري ، والوشّام ، والبنّاء ، وبنّاء السفن ، والملاّح. وكان منها تسع فقرات تتعلق بأجور الأطباء وبالعقوبات التي تفرض عليهم في حال وقوعهم في الخطأ ؛ ومن هذه القوانين :

- إذا عالج الطبيب رجلاً مصاباً بجرح خطير بواسطة مشرط برونزي وشفي ذلك الرجل ، أو إذا شق الطبيب خراجاً في عين مريض وشفاه ، فإنه يتقاضى عشر شيقلات[3] من الفضة.

- إذا استعمل الجرّاح مشرطه البرونزي وأخطأ في استعماله فأدّى إلى وفاة الرجل ، أو إذا شقّ خُرَاجاً في العين وأدّى إلى ضياع عينه ، تقطع يد الطبيب.

- وإذا تعاطى أجرة أكثر ممّا يستحقّ يعاقب بالحبس.

---

(1) يرجح تاريخ صدورها حوالي 200 ق.م. باللغة السنسكريتية.

(2) أول القوانين الرومانية ، صدر عام 450 ـ 449 ق.م.

(3) الشيقل Shekel واحدة وزن كانت تستعمل في ذلك الزمن ، وكذلك المينة.



حمورابي

ويجدر الذكر أن المعالجة في المجتمع البابلي والآشوري كانت على يد ثلاثة أنواع من المتطببين وهم ؛ **الآسيبو** Asipu ويعني باللغة الأكادية ؛ الكاشف : وهو الذي يشخص المرض. ثم يأتي دور **الآسو**[1] Asu ويعني الرجل الذي يعرف الماء والزيت ، وهو الطبيب الذي يصف الدواء ويحضّره ويشرف على تعاطيه. والثالث **الجرّاح** ؛ حيث ورد ذكره في النصوص والتشريعات.[2]

---

[1] ولعل منها أحد أسماء الطبيب في العربية : آسي. وفي اللغة الإبلاوية (نسبة إلى إبلا في محافظة إدلب) أيضاً يسمى الطبيب Azu. ينظر كتابنا ؛ تاريخ الطب والأطباء في إدلب الخضراء ، طبعة دار الفتاة بدمشق 2009م ، ص53.

[2] دبسي ، فيصل : تاريخ الطب وآدابه وتشريعاته ، منشورات جامعة حلب 2004م ، ص35 ، 255.

هذا، وثمّة رأي يعدُّ إيمحوتب Imhotep – وهو من أشهر أطباء العصر الفرعوني بمصر وكان في 2890 ق.م، أبا الطب والأطباء في مصر ـ كما أبقراط في الإغريق ـ وسبقه بنحو ألفي عام، ويعدُّ أوّلَ من وضع المبادئ والقيم الأخلاقية للأطباء.[1]



أيمحوتب Imhotep

وتعتبر بردية أدوين سميث الجراحية[2] من أهم الوثائق التي ظهر فيها الاهتمام بموضوع الإنذار المَرضي، حيث كان يعطى لكلّ حالة بعد التشخيص إنذار؛ فكان أحد ثلاثة عبارات:

ـ هذه علة سوف أعالجها.

---

[1] مرفت عبد الناصر: موسوعة التاريخ المصري القديم.

[2] كتبت حوالي 1600ق.م في مصر، ويقال سنة 3600 ق.م. ولدينا صورة عنها، وقمنا بترجمتها من اللغة الإنكليزية إلى العربية.

ـ هذه علة سوف أتعارك معها.

ـ هذه حالة لا يمكن عمل شيء لها.

وهذا الرأي الأخير كان موجوداً في الأخلاق الطبية القديمة، حيث إن الطبيب كان يرفض معالجة الحالات التي يرى أنها قاتلة، وهذا أيضاً كان خدمةً لضمانة الطبيب وتجنّباً للمسؤولية، عندما تكون النتيجة المتوقعة ضعيفة الأمل، ممّا يحفظ للطبيب سمعته ومعيشته.



من بردية إدوين سميث

قسم أبقراط
وناموس الطب

أما في الطب اليوناني فقد اتفق كثير من قدماء الفلاسفة والمتطببين على أن أسقليبيوس ـ كما ذكرنا ـ هو أوّل من ذكر من الأطبّاء، وأوّل من تكلّم في شيء من الطبّ على طريق التجربة، وكان يونانياً، واسمه يعني منع اليبس، وقيل: إن أصل هذا الاسم في لسان اليونان مشتق من البهاء والنور. وكان لإسقليبوس اثنا عشر ألف تلميذ في جميع أقاليم الأرض، وكان يعلم الطب مشافهة، وكان آل أسقليبيوس يتوارثون صناعة الطبّ، إلى أن تضعضع الأمر فيه على زمن **أبقراط**، ورأى أن أهل بيته وشيعته قد قلّوا، ولم يأمن أن تنقرض الصناعة، فابتدأ في تأليف الكتب على جهة الإيجاز.[1]

وشعر أنه قد يخرج عن أهل إسقليبوس إلى غيرهم، فوضع عهداً استحلف فيه المتعلم لصنعة الطبّ على أن يكون لازماً للطهارة والفضيلة. ثم وضع ناموساً عرّف فيه من الذي ينبغي له أن يتعلّم صناعة الطبّ. ثم وضع وصيّة عرّف فيها ما يحتاج إليه الطبيب في نفسه.[2]

يقول ابن رضوان: لمّا وقف أبقراط على رداءة صناعة الطبّ في عصره واتّفق أن يقيّد الصناعة، رأى أن يدوّنها بألفاظ سهلة، وأن يعلّمها كلَّ مَنْ رَامها من الأذكياء الطاهرين ـ سواء كان من أهل بيته أو من غيرهم، ومن كان غريباً ذكياً

---

(1) عيون الأنباء ص33.

(2) عيون الأنباء ص44.

طاهراً، وكتب عهداً شرط فيه شروطاً، من عمل بها جعل صلاتَه عليه، وسمّاه ولداً ـ كان نسيباً أو غريباً، ومن خالفها جعل اللعنة عليه وسمّاه بضدّ ذلك ــ كان غريباً أو نسيباً. وأمر أن يداووا **الفقراء احتساباً، والأغنياء اكتساباً**، وأن لا يُعطي دواءً قتّالاً ـ ولاسيما فيما يضرّ، وأن يكون الطبيب يجري أمره في كلّ شيء يفعله من أفعاله على الزكاة والطهارة، فحفظ صناعة الطب بما دوّنه في كتبه.[1]

ونسخة العهد أو القسم الذي وضعه أبقراط هي:



قسم أبقراط باللغة اليونانية والإنكليزية

---

(1) علي بن رضوان (388 ـ 460هـ): شرف الطب، مخطوط استانبول ـ حكيم أوغلي برقم 3 ـ 691 ـ ف ـ 894. الورقة 116/و.

" إنّي أقسم بالله ربّ الحياة والموت، وواهب الصحّة، وخالق الشفاء وكلّ علاج. وأقسم بإسقليبوس، وأقسم بأولياء الله من الرجال والنساء جميعاً، وأشهدهم جميعاً على أني أفي بهذا اليمين وهذا الشرط. وأرى المعلم لي في هذه الصناعة بمنزلة آبائي، وأواسيه في معاشي، وإذا احتاج إلى مال واسيته وواصلته من مالي.

أمّا الجنس المتناسل منه فأرى أنه مساوٍ لإخوتي، وأعلّمهم هذه الصناعة إن احتاجوا إلى تعلّمها بغير أجرة ولا شرطٍ. وأشرك أولادي وأولاد المعلّم لي والتلاميذ الذين كتب عليهم الشرط أو حلفوا بالناموس الطبي في الوصايا والعلوم وسائر ما في الصناعة. وأمّا غير هؤلاء فلا أفعل به ذلك، وأقصد في جميع التدابير ـ بقدر طاقتي ـ منفعة المرضى.

وأما الأشياء التي تضرّ بهم وتدني منهم بالجور عليهم، فأمنع منها بحسب رأيي، ولا أعطي ـ إذا طلب مني ـ دواءً قتّالاً، ولا أشير أيضاً بمثل هذه المشورة. وكذلك أيضاً لا أرى أن أدني من النسوة فرزجة[1] تسقط الجنين. وأحفظ نفسي في تدبيري وصناعتي على الزكاة والطهارة، ولا أشقّ أيضاً عمّن في مثانته حجارة، ولكن أترك ذلك إلى من كانت حرفته هذا العمل. وكلّ المنازل التي أدخلها إنما أدخل إليها لمنفعة المرضى، وأنا بحال خارجة عن كلّ جور وظلم وفساد إراديّ مقصود إليه في سائر الأشياء، وفي الجماع للنساء والرجال، الأحرار منهم والعبيد. وأما الأشياء التي أعاينها في أوقات علاج المرضى أو أسمعها في غير أوقات علاجهم في تصرّف الناس من الأشياء التي لا يُنطق بها خارجاً فأمسك عنها، وأرى أن أمثالها لا ينطق به.

فمن أكمل هذا اليمين ولم يفسد شيئاً كان له أن يكمل تدبيره وصناعته على أفضل الأحوال وأجملها، وأن يحمده جميع الناس فيما يأتي من الزمان دائماً، ومن تجاوز ذلك كان بضدّه".[2]

---

[1] الفرزجة: هي تحميلة في القبُل.

[2] عيون الأنباء ـ 45. كتاب العهد لأبقراط بتفسير جالينوس (وهو مفقود)، نقله حنين (194 ـ 260هـ) إلى السريانية وأضاف عليه، وترجمه إلى العربية حبيش الأعسم (كان حياً سنة ==

إن المتأمِّل في هذا القسَم أو العهد الذي اقتطعه أبقراط على متعلّم الطب يرى بوضوح أنه يتألف من بنود ثلاثة ؛ أوّلها منزلةُ المعلِّم لصناعة الطب عند المتعلِّم والتزامه برعاية معلِّمه وكفالته له في حال ضعفه، ومن ثم التزامه بتعليم من أراد من أبنائه أن يتعلّم صناعة الطبّ. والبند الثاني خصَّصه لمنفعة المرضى قَدْر المستطاع، وعدم الإضرار بهم. والبند الثالث يتعلَّق بكتم أسرار المرضى وأحوالهم المرضية وغيرها.

وحين أنشئت المدرسة الطبية المصرية في أبي زعبل وقصر العيني عام 1827م، اعتمدت نصَّ جامعة مونبلييه بفرنسا، فتمّت ترجمته إلى اللغة العربية مع تعديلات تقتضيها الاعتبارات الدينية الإسلامية وأصبح كما يلي:

" أقسم بالله العظيم، ونبيّه الكريم محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ على أن أكون أميناً حريصاً على شروط الشرف والبرّ والصلاح في تعاطي صناعة الطبّ، وأن أُسْعِف الفقراء مجاناً، ولا أطلب أجرة تزيد عن أجرة عملي. وإنّي إذا دخلت بيتاً فلا تنظر عيناي ماذا يحصل فيه، ولا ينطق لساني بالأسرار التي ائتمنوني عليها، ولا أستعمل صناعتي في إفساد الخصال الحميدة، ولا أعاونها على الذنوب، ولا أعطي سمّاً البتة، ولا أدلّ عليه، ولا أشير به، ولا أعطي دواء فيه ضرر على الحوامل، ولا إسقاط لهنّ، وأكون موقراً وحافظاً المعروف مع الذين علّموني، ومكافئاً لأولادهم بتعليمي إيّاهم ما تعلمته من آبائهم. ومادمت حريصاً على عهدي وأميناً على يميني، فجميع الناس يعتبروني ويوقّروني، وإن خالفت ذلك أكون المرذول المحتقر، والله شهيد على ما أقول. قد تمّ العهد ".[1]

232هـ، خاله حنين بن إسحاق)، وعيسى بن يحيى بن إبراهيم (تتلمذ على حنين بن إسحاق). (الفهرست: 456. القفطي: إخبار العلماء ص67. أعلام الحضارة لزهير حميدان ج1 ص292، ج2 ص189).

[1] شحادة: تاريخ التعليم الطبي في البلاد العربية، ص74.

أمّا ناموس الطبّ لأبقراط فنسخته :

" إنّ الطبَّ أشرفُ الصنائع كلّها، إلا أنّ نقص فَهْمِ مَن ينتحلُها صار سبباً لسلب الناس إيّاها، لأنّه لم يوجد لها في جميع المدن عيب غير جهل من يدّعيها، ممّن ليس بأهل للتسمّي بها، إذ كانوا يُشبهون الأشباحَ التي يحضّرها أصحابُ الحكاية ليلهوا الناس بها، فكما أنّها صور لا حقيقة لها، كذلك هؤلاء الأطباء؛ بالاسم كثير، وبالفعل قليل جداً.

وينبغي لمن أراد تعلّم صناعة الطبّ أن يكون ذا طبيعةٍ جيدة مواتية، وحرصٍ شديد، ورغبةٍ تامّة، وأفضل ذلك كلّه الطبيعة، لأنّها إذا كانت مواتية فينبغي أن يقبل على التعليم، ولا يضجر، لينطبع في فكره، ويثمرَ ثماراً حسنة، مثل ما يُرَى في نبات الأرض؛ أمّا الطبيعة فمثل التربة، وأمّا منفعةُ التعليم فمثل الزرع، وأمّا تربية التعليم فمثل وقوع البذر في الأرض الجيّدة. فمتى قدمت العناية في صناعة الطبّ بما ذكرنا، ثم صاروا إلى المدن لم يكونوا أطبّاء بالاسم بل بالفعل. والعلم بالطبّ كنز جيد، وذخيرة فاخرة لمن علمه، مملوء سروراً، سرّاً وجهراً. والجهل به لمن انتحله صناعة سوء، وذخيرة رديئة، عديم السرور، دائم الجزع والتهوّر؛ والجزع دليل على الضعف، والتهوّر دليل على قلة الخبرة بالصناعة".[1]

ومن وصاياه للطبيب ومتعلّم الطب أيضاً:

" وينبغي أن يكون مشاركاً للعليل مشفقاً عليه، حافظاً للأسرار، لأنّ كثيراً من المرضى يوقفونا على أمراض بهم لا يحبّون أن يقف عليها غيرهم ".[2]

وهذه الفكرة قلّ أن يتقيد بها بعض الأطباء، وخاصّة ذووهم، ظنّاً منهم بأنّهم من المقرّبين إلى الطبيب، فلا مانع من وجودهم في غرفة فحص المريض، أو اطلاعهم على مرضه، وهذا ما لا يريده المريض، بل له الحقّ في أن يكون مرضه لا يطلع عليه غير الطبيب. هذا فضلاً عمّا يجري من أحاديث يظنّها الطبيب عاديّة بأن

---

[1] عيون الأنباء ص46.

[2] المصدر السابق.

يذكر لذويه من عالج من المرضى، ويتحدّث لهم عن أمراضهم، ناسياً بأن ذلك ممّا يكرهه المريض ولا يريد أن يطلع عليه أحد غير الطبيب. وفي ذلك يقول صاعد بن الحسن: " ويكتُم أسرارَ المرضى، فإن كثيراً من الأمراض لا يجوز أن يذكرها الطبيب لغير أصحابها؛ كالبواسير وأمراض الأرحام، وغير ذلك". [1]

ومن وصايا أبقراط للطبيب أيضاً الكثير مما استغنينا عن ذكره منعاً للتطويل[2]، ومنها ما سوف يرد في فصل سلوك الطبيب.



لوحة تمثل أبقراط يفحص مريضاً

ومن ألفاظ أبقراط الحكيمة: " الطبّ قياس وتجربة ". وقال: " كلّ مرض معروف السبب موجود الشفاء". وقال: " إنّما نأكل لنعيش، ولا نعيش لنأكل ". وقال: يتداوى كلّ عليل بعقاقير أرضه، فإنّ الطبيعة تفزع إلى عادتها ". ودخل

---

(1) التشويق الطبي: الورقة 18/ظ.

(2) ينظر عيون الأنباء ص46 وما بعد.

على عليل فقال: " أنا والعلة وأنت ثلاثة؛ فإن أعنتني عليها بالقبول منّي لما تسمع صرنا اثنين، وانفردت العلة فقوينا عليها، والاثنان إذا اجتمعا على واحد غلباه". وقال لتلميذ له: " ليكنْ أفضلُ وسيلتك إلى الناس محبّتَك لهم، والتفقد لأمورهم، ومعرفة حالهم، واصطناع المعروف إليهم".[1]

ومن فضل أبقراط ما رواه ابن جلجل بقوله: "ورأيت حكاية ظريفة لأبقراط[2] استحلينا ذكرها، لندلّ بها على فضله، وذلك أن أفليمون صاحب الفراسة (عاش في القرن الثاني بعد الميلاد) يزعم في فراسته أنّه يستدلّ بتركيب الإنسان على أخلاق نفسه، فاجتمع تلاميذ أبقراط وقال بعضهم لبعض: هل تعلمون في دهرنا هذا أفضل من هذا المرء الفاضل أبقراط؟ فقالوا: ما نعلم. فقال بعضهم: تعالوا نمتحن به علم أفليمون فيما يدّعيه من الفراسة، فصوّروا صورة أبقراط، ثم نهضوا بها إلى أفليمون، فقالوا له: أيّها الفاضل، انظر إلى هذا الشخص واحكم على أخلاق نفسه من تركيبه. فنظر إليه وقرن أعضاءه بعضها ببعض، ثم حكم، فقال: هذا رجل يحبُّ الزنى. فقالوا له: كذوب، هذه صورة أبقراط الحكيم. فقال لهم: لا بد لعلمي أن يصدق، فاسألوه، فإنَّ المرء لا يرضى بالكذب، فرجعوا إلى أبقراط، وأخبروه الخبر، وما صنعوا، وما قال لهم أفليمون. فقال أبقراط: صدق أفليمون، أحبُّ الزنى، ولكنّي أملكُ نفسي. فهذا يدل على فضل أبقراط وملكته لنفسه ورياضته لها بالفضيلة".[3]

---

[1] عيون الأنباء ص49.

[2] نسبت هذه الحكاية أيضاً إلى سقراط وإلى صاحب الفراسة اليوناني زوبيروس.(ابن جلجل، طبقات الأطباء ص20.)

[3] ابن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء ص17.

الفصل الثالث
هدي النبيِّ
محمّد صلّى اللّه عليه وسلم
في التطبّب

ذكر ابن قيّم الجوزية، في كتابه الطبّ النبوي، بعض هدي الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في تضمين من طَبَّ الناس وهو جاهل بالطب، فقال:

روى أبو داود، والنسائي، وابن ماجه ـ من حديث عَمْرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده ـ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "من تطبّب، ولم يُعْلَمْ منه الطبُّ قبل ذلك فهو ضامن"[1]. فهذا الحديث يتعلّق به ثلاثة أمور: أمر لغوي، وأمر فقهي، وأمر طبي.

أمّا الأمر اللغوي ففي قوله صلّى الله عليه وسلّم: "من تطبّب" فهو لم يقل من طَبَّ، لأن لفظ التفعّل يدل على تكلف الشيء والدخول فيه بعسر وكلفة، وأنه ليس من أهله.

وأما الأمر الشرعي: فإيجابُ الضمان على الطبيب الجاهل، فإذا تعاطى علم الطبّ وعمله، ولم يتقدم له به معرفة، فقد هجم بجهله على إتلاف الأنفس، وأقدم بالتهوّر على ما لم يعلمه، فيكون قد غرّر بالعليل، فيلزمه الضمان لذلك. وهذا إجماع من أهل العلم.

---

[1] أخرجه أبو داود في الديّات، وابن ماجه في كتاب الطب.

وأمّا الأمر الطبي ؛ فالأطباء في الضمان خمسة أقسام :

ـ **القسم الأول** : طبيب حاذق أعطى الصنعة حقّها ، ولم تجْنِ يده ، فتولد من فعله ـ المأذون من جهة الشارع ومن جهة من يطبُّه ـ تلف العضو أو النفس ، أو ذهاب صفة. **فهذا لا ضمان عليه** اتفاقاً ، فإنها سرايةُ مأذونٍ فيه.

ـ **القسم الثاني** : متطبّب جاهل باشرت يدُه من يطبُّه ، فتلف به ، فهذا إنْ علم المجني عليه أنّه جاهلٌ لا علم له ، وأذن له في طبّه ، **لم يضمن**. ولا يخالف هذه الصورة ظاهر الحديث ، فإنّ السياق وقوّة الكلام يدلّ على أنه غرَّ العليلَ ، وأوهمه أنّه طبيبٌ ، وليس كذلك. وإن ظنَّ المريض أنّه طبيب ، وأذن له في طبّه لأجل معرفته ، **ضمن الطبيب** ما جنت يده. وكذلك إن وصف له دواءً يستعمله ، والعليل يظن أنه وصفه لمعرفته وحذقه ، فتلف به ، ضمنه. والحديث ظاهر فيه أو صريح.

ـ **القسم الثالث** : طبيب حاذق أذن له ، وأعطى الصنعة حقّها ، لكنه أخطأت يده ، وتعدّت إلى عضو صحيح ، فأتلفه ؛ مثل أن سبقت يد الخاتن إلى الكَمَرة ، **فهذا يضمن** ، لأنها جناية خطأ.

ـ **القسم الرابع** : الطبيب الحاذق الماهر بصناعته ، اجتهد فوصف للمريض دواءً ، فأخطأ في اجتهاده ، فقتله. فهذا يخرج على روايتين : إحداهما أن ديّة المريض في بيت المال ، والثانية : أنّها على عاقلة الطبيب. وقد نصّ عليهما الإمام أحمد.

ـ **القسم الخامس** : طبيب حاذق أعطى الصنعة حقّها ، فقطع سلعة (ورم سليم) من رَجُل أو صبي أو مجنون ، بغير إذنه أو إذن وليّه ، أو ختن صبياً بغير إذن وليّه ، فتلف ، فقال البعض : **يضمن** ، لأنه تولد من فعلٍ غير مأذون فيه. وإنْ أذِنَ له البالغ أو وليّ الصبيّ والمجنون ، **لم يضمن**.[1]

[1] وقد حدث في عصرنا أن أقدم طبيب على إجراء جراحة لمريض غير بالغ دون إذن أهله ، فعوتب في ذلك بالرغم من عدم حصول مضاعفات.

والطبيب ـ في هذا الحديث ـ يتناول: من يطبُّ بوصفه وقوله، وهو الذي يُخَصّ باسم الطبائعي[1]. وبمروده، وهو الكحّال[2]. وبمبضعه ومراهمه، وهو الجرائحي. وبموساه، وهو الخاتن. وبريشته، وهو الفاصد. وبمحاجمه ومشرطه، وهو الحجّام. وبخلعه ووصله ورباطه، وهو المجبّر. وبمكواته وناره، وهو الكوّاء. وبقربته، وهو الحاقن. وسواء كان طبّه لحيوان بهيم أو إنسان، فاسم الطبيب يطلق لغة على هؤلاء كلهم[3]، كما تقدم، وتخصيص الناس له ببعض أنواع الأطباء عُرْفٌ حادث كتخصيص لفظ الدابّة بما يخصها به كل قوم.[4]

أما هديه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في وجوب التطّب، فالأحاديث التي تحثّ على ضرورة التطبب كثيرة، ومنها ما أورده ابن جلجل في كتابه طبقات الأطبّاء والحكماء:

كان في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم، أطبّاء من حيٍّ أنمار، وقد دخل الرسول – صلى الله عليه وسلّم ـ على أحد أصحابه، وبه جرح، فقال لطبيبين: أيُّكما أطبّ؟ فقال أحدهما: أنا، يا رسول الله، فقال: فدونك إذاً. قيل له: يا رسول الله، أفي الطبِّ خير؟ قال: نعم، أنزل الدواءَ من أنزل الداء، فأطلق وأجاز، صلى الله عليه وسلم.[5] وفي هذا الحديث أنه ينبغي الاستعانة، في كلّ علم وصناعة، بأحذق من فيها، لأنه الأقرب إلى الصواب.

---

[1] ندعوه حالياً الطبيب الداخلي.

[2] يدعى حالياً طبيب العيون.

[3] حالياً يقال: طبيب بشري، وطبيب بيطري.

[4] الطب النبوي لابن قيم الجوزية، ص261.

[5] والحديث في كتاب الطب النبوي لابن قيّم الجوزية ص257هو على هذا الشكل: ذكر مالك في موطئه عن زيد بن أسلم أن رجلاً في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم جرح، فاحتقن الدم، وأن الرجل دعا رجلين من بني أنمار فنظرا إليه، فزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهما: أيكما أطبّ؟ فقالا: أوَ في الطب خيرٌ يا رسول الله؟! فقال: أنزل الدواء الذي أنزل الداء.

ويروى عن سعد بن أبي وقّاص، قال: مرضتُ مرضاً، فعادني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لي: إيت الحارث بن كلدة[1]، فإنّه رجل يتطبّب، فأمر رسول الله بإتيان الأطباء ومسألتهم عما بين أيديهم (من علم وتجربة).[2]

ومنها ما صح عنه ـ صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم ـ أنه تداوى، وأمر بالتداوي: **فعن** أمّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان لا يصيب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرحة ولا شوكة إلا وضع عليها الحناء، وذلك لما فيها من القوة المجففة للقرحة وغيرها، والقوّة المحلّلة الجاذبة للشوكة ونحوها. **وعن** أسامة ـ رضي الله عنه ـ قال: شهدت الأعراب يسألون النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالوا: يا رسول الله أنتداوى؟ فقال: تداووا، عبادَ الله، فإنّ الله لم يضع داءً إلا وضع له شفاءً، إلا داء واحداً، قالوا: يا رسول الله وما هو؟ قال: الهرم.[3]

ويؤكد الذهبي ـ في كتابه "الطب النبوي" أيضاً ـ على ضرورة اختيار الأحذق بين الأطباء، بقوله: وينبغي أنْ يُختار الحاذقُ في الطبّ، البصير به، لقوله عليه السلام: " أيّكما أطبُّ"، وهذا ما يأمر الأطبّاء به، ومنهم جالينوس الذي يقول: إن الجاهل من الأطباء يدخل على المريض وبه حمّى، فيخرج وبه حمّيان، وذلك لسوء معالجته وقلّة معرفته وجهله.[4]

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنّ رسول الله كثرت أسقامه، فكان تقدم عليه أطباءُ العرب والعجم، وتعلمتُ الطبَّ منهم.[5]

---

(1) الحارث بن كلدة الثقفي: تعلّم الطبّ بناحية فارس واليمن، وعاش إلى زمن معاوية (40 ـ 60هـ) ـ رضي الله عنه، قال له معاوية: ما الطبّ يا حارث؟ فقال: الأَزْمُ يا أمير المؤمنين، يعني (الإمساك عن الغذاء).

(2) طبقات الأطباء والحكماء لسليمان بن حسان الأندلسي المعروف بابن جلجل، ألفه سنة 377هـ، تحقيق فؤاد سيد، طبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة عام 1955م. ص 55.

(3) الطب النبوي لابن قيّم الجوزية ص259.

(4) ينظر الذهبي: الطب النبوي، ص121.

(5) وينظر ما أوردناه من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ في ضرورة التطبب ـ وذلك في فصل شرف الطب. وينظر تفصيل هذا في فصل اتخاذ الطبيبة المحسنة.

وكان ابن أبي رمثة طبيباً على عهد رسول الله وكان عالماً بصناعة اليد، قال: أتيتُ النبيَّ ـ صلى الله عليه وسلم، فرأيت بين كتفيه الخاتم[1] فقلت: إنّي طبيب، فدعني أعالجه، فقال: أنت رفيق، والطبيب الله. أي أنت رفيق اليد، ولست فائقاً في العلم.[2]

أما في جواز اتّخاذ طبيب من أهل الذمّة فيقول الإمام أحمد: يجوز الرجوع إلى قول الطبيب من أهل الذمة في الدواء المباح، ولا يسمع قوله إذا وصف دواء محرّماً كالخمر ونحوه، وكذلك لا يسمع قوله في الفطر والصوم والصلاة جالساً ونحو ذلك، ولا يقبل مثل هذا إلا من مسلمين عَدْلين من أهل الطبّ.[3]

---

[1] وفي رواية: ورأى خاتم النبوة وظنه ألماً.

[2] ينظر ابن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء ص57.

[3] الذهبي: الطب النبوي، ص122.

الفصل الرابع
بداية تنظيم المهن الطبّيّة
ونظام الحِسبة
في البلاد العربية والإسلامية

كان الأطبّاء في أول عهد الدول الإسلامية يكتفون ـ لممارسة مهنة التطبيب ـ بقراءة الطبّ، على أيّ طبيب من النابهين في عصره، حتى إذا وجد في نفسه القدرة على مزاولة الصنعة باشرها بدون قيد أو شرط.

وبقي هذا حتى عهد الخليفة العباسي المقتدر بالله جعفر بن المعتضد الذي تولى الخلافة سنة 295هـ، وكان سنان بن ثابت رئيساً للأطباء في عهد المقتدر وطبيباً له، وقد اتصل به عام 319هـ/ 931م فحدث أن وقع غلطٌ على رجل من العامة من بعض المتطببين، فمات الرجل، فأمر الخليفةُ إبراهيمَ بن محمد بن بطحا[1] بمنع سائر المتطببين من التصرّف، إلا من امتحنه سنان بن ثابت بن قرّة، وكتب له رقعة بخطّه بما يطلق له التصرف فيه من الصناعة. فصاروا إلى سنان، وامتحنهم، وأطلق لكلّ واحد منهم ما يصلح أن يتصرف فيه، وبلغ عددهم في جانبي بغداد ثمانمائة رجل ونيّف وستين رجلاً، سوى من استغنى عن محنته باشتهاره بالتقدم في صناعته، وسوى من كان في خدمة السلطان.[2]

---

[1] في تاريخ البيمارستانات: أبا بطيحة.

[2] ينظر عيون الأنباء ص302. تاريخ البيمارستانات ص42. القفطي: إخبار العلماء ص129.

ثمّ صار النظامُ، بعد ذلك، بأنْ يتقدّم الطالبُ ــ الذي أتمّ دروسه ــ بطلب إجازة من رئيس الأطبّاء لمزاولة مهنة الطبّ، وكان الطالب يتقدّم برسالة في الفن الذي يريد الحصول على إجازة فيه، وهذه الرسالة أشبه بما يكون اليوم الأطروحة، وتكون هذه الرسالة له أو لأحد مشاهير الأطباء المتقدمين أو المعاصرين، يكون قد أجاد دراستها، فيمتحنه فيها، ويسأله في كلّ ما يتعلّق بما فيها من الفنّ، فإذا أحسن الإجابة أجازه الممتحن بما يطلق له التصرّف فيه من الصناعة.

وقد أورد الدكتور أحمد عيسى بك في كتاب تاريخ البيمارستانات سنة 1939م ما وجده في خزانة أستاذه العلامة أحمد زكي باشا ــ صورتين لإجازتين في الطبّ من القرن السادس عشر الميلادي؛ منحت إحداهما لفصّاد، ومنحت الأخرى لجرّاح، مفادهما:

الإجازة الأولى

وهي من القرن الحادي عشر الهجري

" وهذه صورة ما كتبه الشيخ الأجلّ، عمدة الأطباء ومنهاج الألباء، الشيخ شهاب الدين ابن الصائغ (945 ـ 1036هـ/ 1538 ـ 1626م) الحنفي رئيس الأطباء بالديار المصرية، إجازة للشاب المحصل محمد عزّام ــ أحد تلامذة الشيخ الأجل والكهف الأحول الشيخ زين الدين عبد المعطي رئيس الجراحين، على حفظه لرسالة الفصد كما سنبينه: ... وبعد؛ فقد حضر عندي الشابّ المحصّل شمس الدين محمد بن عزّام بن (... بن...[1] عي) المؤذن الجُرْواني[2] المتشرّف بخدمة الجراح، والمتقيّد بخدمة الشيخ الصالح، بقيّة السلف الصالحين العارف، وشيخ طائفة الجراحين بالبيمارستان المنصوري[3]، هو الشيخ عبد المعطي المشهور بابن رسلان ـ نفعنا الله ببركاته، ورحم أسلافه العارفين الصالحين. وعرض عليّ جميع

---

[1] مكان النقط كلمات مفقودة من الأصل.

[2] نسبة إلى جُرْوان محلة بأصفهان.

[3] أو بيمارستان قلاوون، بناه الملك المنصور قلاوون الصالحي (حكم بين 678 ـ 689هـ).

الرسالة اللطيفة المشتملة على معرفة الفصد وأوقاته وكيفيته وشروطه، وما يترتب عليه من المنافع المنسوبة ــ والرسالة المذكورة للشيخ الإمام العلامة التمام شمس الدين محمد بن ساعد الأنصاري[1]، شكر الله سعيه ورحمه وأسكنه بحابيح جنانه بمنّه وكرمه ـ عرضاً جيّداً دلّ على حسن حفظه للرسالة المذكورة، وقد أجزته أن يرويها عنّي بحقّ روايتها، وغيرها من الكتب الطبية ".[2]

الإجازة الثانية

وهي كذلك من القرن الحادي عشر الهجري

وصادرة من رئيس الجرّاحين بدار الشفاء المنصوري (قلاوون):

" صورة ما كتبه الفقير على ذلك: ... وبعد؛ فقد وقفت على هذه الرسالة العظيمة، والمقالة الكريمة، الموسومة " ببرء الآلام في صناعة الفصد والحجام" نظم لوذعي زمانه وألمعي عصره وأوانه؛ الشمس شمس الدين محمد القيّم شهرة، الجرّاح صنعة ومهرة، التي أصلها للشيخ حاوي الفضائل الشيخ شمس الدين محمد الشربيني الجراح... الموسومة " بغاية المقاصد فيما يجب على المفصود والفاصد"، إذ هي في هذا الفن أسمى المقاصد. وقد قرأها عليه قراءة إتقان وإمعان، وحلّ لمشكلات الألفاظ والمعان، فلم يرَ بدّاً من أن يبسطها ليتيسّرَ حفظُ تلك الفوائد، ولتسهّلَ ضبط تلك القواعد، فجاءت بجملة أبهى من نور الأنحار....، فقد أجاد ناظمها في تحقيقها، وبذل الجهد في تحريرها وتدقيقها، وأتقن ألفاظ مبانيها، وغاصَ بحارَ معانيها، واستخرج الدرَّ الثمين من أصلها.... .فلمّا ظهرت نتيجة الانتخاب في المسألة والجواب، وتغذّى ناظمُ سلكها بالخاصّ من اللباب، وصارت

---

[1] محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري السنجاري السخاوي المعروف بابن الأكفاني المتوفى سنة 749هـ، والرسالة هي نهاية القصد في صناعة الفصد. منها نسخة بدار الكتب. (أعلام الحضارة ج4 ص189).

[2] قال أحمد عيسى: وباقي الإجازة مفقود.

الخناصر عليه تُعقد؛ إنْ كان لساعد الأنصاري رسالة[1]، فشتّان رسالته ورسالة محمّد. وكانت عين المقصود، ورُقمت فيما يجب على الفاصد والمفصود، استحقَّ راقمُ وَشْيِها وناسجُ بُرْدِها أنْ يُتَوّجَ بتاج الإجازة، فاستخرت الله تعالى، وأجزت له أنْ يتعاطى من صناعة الجِرَاح ما أتقن معرفته، ليحصلَ له النجاح والفلاح؛ وهو أن يعالجَ الجراحات التي تبرأ بالبطّ[2]، ويقلعَ من السنان ما ظهر له من غير شرط، وأنْ يفصد من الأوردة ويبترَ الشرايين، وأن يقلعَ من الأسنان الفاسدة المسوسين، وأن يلمَّ ما بَعُدَ من تفرّق الاتصال بِقيطان[3] وغير ذلك، وطهارة الأطفال. هذا مع مراجعته وخدمته لرؤساء هذا الفن المتبحّرين، والمهرة الأساتذة العارفين[4]، مع تقوى الله والنصح في الصناعة، ولا يخشى مع ذلك من كساد البضاعة. ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا وإياه لصالح الأعمال، في كل حال ومآل...".

رَقَمَهُ بقلمه أحقرُ عباد الفتّاح، الفقير للحقّ؛ عليّ بن محمّد بن محمّد بن عليّ الجرّاح، خادمُ الفقراء الضعفاء بدار الشفاء بمصر المحروسة، ... بتاريخ صفر الخير، من شهور سنة إحدى عشرة وألف (1602م) من الهجرة النبوية ــ على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، والحمد لله وحده".[5]

امتحان الصيادلة

أمّا الصيادلة فكان لهم أيضاً امتحان ومراقبة لأعمالهم، ومن ذلك ما حدّث به زكريا الطيفوري الطبيب[6]، أنه بينما كان مع الأفشين أحد قواد جند المعتصم في

---

(1) ينظر الرسالة في الإجازة السابقة.

(2) أي الشق.

(3) بالأصل بِقِطان، والقيطان: نسيج من الحرير أو القطن، أو غيرهما، يُبرم فيكون كالحبل الدقيق. (المعجم الوسيط).

(4) وهذا ما يعرف حالياً بحضور المؤتمرات مع كبار الأساتذة.

(5) تاريخ البيماستانات ص44 ـ 48.

(6) كان في أيام الخليفة المعتصم بن الرشيد (218 ـ 227هـ).

معسكره وهو في محاربة بابك، زعيم فرقة الخُرَّمية من الإسماعيليين سنة 221هـ/ 838م، أمره بإحصاء جميع من في عسكره من التجار وحوانيتهم وصناعة كلّ رجل منهم، فرفع ذلك إليه. فلما بلغت القراءة بالقارئ إلى موضع الصيادلة قال له: "يا زكريا، ضَبْطُ هؤلاء الصيادلة عندي أولى ممّا تقدّم فيه، فامتحنْهم حتى نعرفَ منهم الناصح من غيره، ومن له دين، ومن لا دين له". فقال زكريا: "أعزَّ اللهُ الأميرَ، إنَّ يوسفَ لَقْوَة الكيميائي كان يدخل على المأمون كثيراً ويعمل بين يديه، فقال له يوماً: ويحكَ، يا يوسُفُ، ليس في الكيمياء شيء؟ فقال له: بلى، يا أمير المؤمنين، وإنّما آفة الكيمياء الصيادلة، قال له المأمون: ويحك، وكيف ذلك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ الصيدلاني لا يطلبُ منه إنسان شيئاً من الأشياء كان عنده أو لم يكن إلا أخبره بأنّه عنده، ودفع إليه شيئاً من الأشياء التي عنده، وقال: هذا الذي طلبت، فإنْ رأى أمير المؤمنين أنْ يضع اسماً لا يعرفُ، ويوجّه جماعةً إلى الصيادلة في طلبه، ليبتاعه، فليفعل، فقال له المأمون: قد وضعت الاسم وهو سقطيثا[1]، ووجه المأمون جماعة من الرسل يسألهم عن سقطيثا، فكلهم ذكر أنه عنده، وأخذ الثمن من الرسل، ودفع إليهم شيئاً من حانوته، فصاروا إلى المأمون بأشياء مختلفة، فمنهم من أتى ببعض البذور، ومنهم من أتى بقطعة من حجر، ومنهم من أتى بوبر. فاستحسن المأمون نصح يوسف لقوة عن نفسه، وأقطعه ضيعة على النهر المعروف بنهر الكلبة، فهي في أيدي ورثته، ومنها معاشهم.

فإن رأى الأمير أن يمتحن هؤلاء الصيادلة بمثل محنة المأمون، فليفعل، فدعا الأفشين بدفتر من دفاتر الأسروشنية[2] فأخرج منها نحواً من عشرين اسماً ووجه إلى الصيادلة من يطلب منهم أدوية مسماة بتلك الأسماء، فبعضهم أنكرها،

---

[1] شقطيثا في تاريخ البيمارستانات. وهي ضيعة تقرب من مدينة السلام.

[2] بلدة بما وراء النهر بين سيحون وسمرقند. أَسْرُوشَنَة؛ والأشهر أُشْرُوسَنَة: اسم لإقليم ما وراء النهر من بلاد الهياطلة، بين سلمون وسمرقند، مدينتها الكبرى بلسان الأشروسنة. ياقوت: معجم البلدان، ج1ص177، 197.

وبعضهم ادعى معرفتها وأخذ الدراهم من الرسل، ودفع إليهم شيئاً من حانوته، فأمر الأفشين بإحضار جميع الصيادلة، فلما حضروا كتب لمن أنكر معرفة تلك الأسماء منشورات، أَذِنَ لهم فيها بالمقام في عسكره، ونفى الباقين عن العسكر، ولم يأذن لأحد منهم في المقام، ونادى المنادي بنفيهم، وبإباحة دم من وُجِدَ منهم في معسكره. وكتب إلى المعتصم يسأله البعثة إليه بصيادلة لهم أديان ومذهب جميل، ومتطببين كذلك، فاستحسن المعتصم ذلك، ووجّه إليه بما سأل".[1]

ونجد في الخبر حرصاً وخوفاً على الرعية، من أن تصاب بضرر يجريه عليهم من هُمْ مؤتمنون على أرواح الناس، وفي ذلك دعوة لأولي الأمر كي يُشَدِّدوا العقاب على مرتكبي الغش، دون هوادة، بما الحاجة إليه في كل الأمكنة والأوقات.

نظام الحِسبة والمحتسِب

كان نظام الحِسبة في الزمن القديم بمثابة الرقابة والتفتيش في هذه الأيام، على الأطباء والصيادلة وغيرهم، أو يمكننا أن نشبهه في مجال الطب والصيدلة أيضاً بفحص الكوليكيوم الذي تجريه وزارة الصحة للأطباء حين منحهم شهادة الاختصاص، وكذلك مراقبة مدّعي مهنة الطب وملاحقتهم.

والحسبة وظيفة جليلة رفيعة الشأن، وموضوعها الأمر والنهي، والمعايش والصنائع، والأخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح في معيشته وصناعته. ويقول فيها ابن الإخوة: " وهي من أشرف المناصب الدينية، وأعلاها رتباً، وخصّ الله بها أصحابَ نبيه، ومن بعدهم من الدولة العباسية؛ فهي من قواعد الأمور الدينية، وقد كان أئمة الصدر الأول يباشرونها بأنفسهم.[2] والمحتسب من نصّبه الإمام أو

---

[1] عيون الأنباء ص224. تاريخ البيمارستانات ص49. . القفطي: إخبار العلماء ص128 ـ 129.

[2] إن نظام الحسبة لم يكن معروفاً قبل الإسلام، فأول من احتسب هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالحديث مشهور " من غش ليس منا" حين أدخل يده في طعام فنالت أصابعه بللاً، ثم حين استعمل سعيد بن العاص ـ بعد الفتح ـ على سوق مكة، وكذلك الشفاء ==

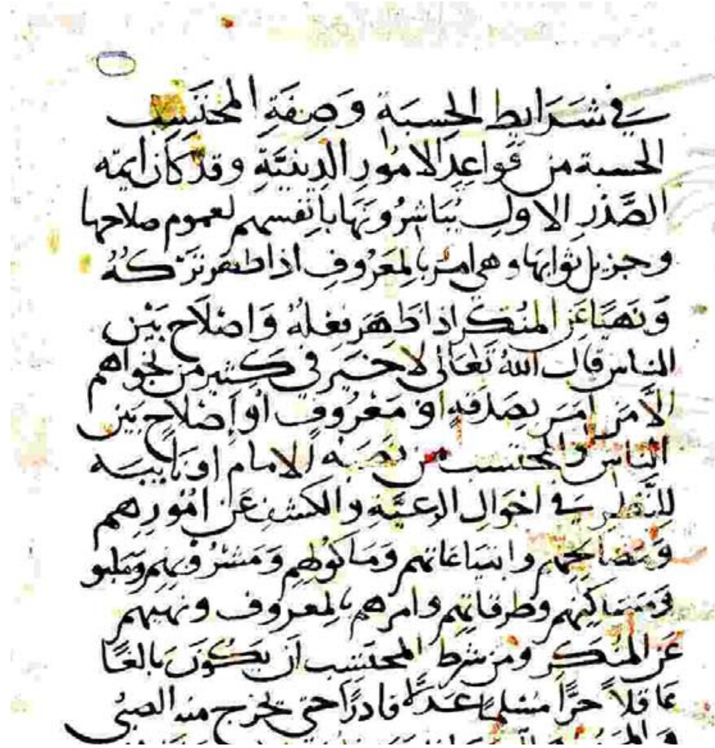
نائبه للنظر في أحوال الرعية، والكشف عن أمورهم ومصالحهم، وابتياعاتهم، ومأكولهم ومشروبهم، وملبوسهم، ومساكنهم، وطرقاتهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر". [1]


بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر يا كريم
الحمد لله الذي فضل الحسبة وجعلها من أشرف المناصب
الدينية وأعلا رتبتها وخص بها أصحاب نبيه ومن بعدهم
من الدولة العباسية والصلاة والسلام على نبي فتح للشرع
بابا وجاهد في الله حق جهاده طلبا لرضاه واحتسابا
وبعد فقد انتدب الحق سبحانه وتعالى بعض عباده لإقامة الأمور
الدينية وفوض منصب

صفحة غلاف معالم القربة في أحكام الحسبة

بنت عبد الله (الأعلام ج3 ص168) التي كانت تمر في الأسواق وتأمر بالمعروف، وأدركت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبقاها سيدنا عمر – رضي الله عنه ـ محتسبة على السوق. هذا بالإضافة إلى أن عمر – رضي الله عنه ـ كان يمر بالأسواق قائماً بوظيفة المحتسب بنفسه. وظل نظام المراقبة والحسبة موجوداً طوال العهد الراشدي والأموي، وإن لم يحمل صاحبه لقب المحتسب ـ إذ عرف هذا المسمى في العصر العباسي، وقد عيّن زياد بن أبيه عاملاً على سوق البصرة في خلافة معاوية بن أبي سفيان.

[1] عن معالم القربة في أحكام الحسبة لابن الإخوة محمد بن محمد (توفي سنة 729هـ) مخطوط رقم 5023 بمكتبة جامعة الملك سعود، صفحة الغلاف، والورقة 5/و.


في شرايط الحسبة وصفة المحتسب
الحسبة من قواعد الامور الدينية وقد كان ايمة
الصدر الاول يباشروها بانفسهم لعموم صلاحها
وجزيل ثوابها وهي امر بالمعروف اذا ظهر تركه
ونهي عن المنكر اذا ظهر فعله واصلاح بين
الناس قال الله تعالى لا خير في كثير من نجواهم
الا من امر بصدقة او معروف او اصلاح بين
الناس والمحتسب من نصبه الامام او نايبه
للنظر في احوال الرعية والكشف عن امورهم
ومصالحهم وابتياعاتهم وماكولهم ومشروبهم وملبو
سهم ومساكنهم وطرقاتهم وامرهم بالمعروف ونهيهم
عن المنكر ومن شرط المحتسب ان يكون بالغا
عاقلا حرا مسلما عدلا قادرا حتى يخرج منه الصبي

الورقة 5/و من معالم القربة

والحِسبة لغة ؛ مشتقة من قولك حَسْبُكَ بمعنى : اكْفُفْ ، لأنّها تكفي الناس مؤونةَ مَنْ يبخسُهم حقوقَهم. وحقيقة المحتسب في اللغة : المجتهد في كفاية المسلمين ومنفعتهم.[1]

والمحتسب هو من أرباب الوظائف الدينية الست المشهورة ، ولذلك كان عندهم من وجوه العدول وأعيانهم ، وكان من شأنه أنّه إذا خُلِع عليه قُرئ سجلّه

[1] صبح الأعشى للقلقشندي ، دار الكتب الخديوية بالقاهرة ، طبعة 1914م ، ج4 ص37. ج5 ص452. وتاريخ البيمارستانات ص 51 ، بتصرف.

على المنابر. ويده مطلقة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على قاعدة الحسبة، ولا يحال بينه وبين مصلحة أرادها، ويقيم النواب عنه وجميع الأعمال كنوّاب الحكم، وقد تضاف الحسبة إلى صاحب الشرطة أحياناً.[1]

أما في نظام الحسبة على الأطباء والكحّالين والجرائحيين والمجبّرين فيقول عبد الرحمن الشبزري[2]: " وينبغي للمحتسب أن يأخذ عليهم عهد أبقراط الذي أخذه على سائر الأطباء، ويحلفهم أن لا يعطوا أحداً دواء مرّاً، ولا يركّبوا له سمّاً، ولا يصنعوا السمائم عند أحد من العامة، ولا يذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الأجنّة، ولا للرجال الدواء الذي يقطع النسل. وليغضّوا من أبصارهم عن المحارم عند دخولهم على المرضى، ولا يُفْشوا الأسرار، ولا يهتكوا الأستار. وينبغي للطبيب أن يكون عنده جميع آلات الطبّ على الكمال ممّا يحتاج إليه في صناعة الطبّ، غير آلة الكحالين والجرائحيين، وللمحتسب أن يمتحنَ الأطبّاء بما ذكره حُنَيْن[3] في كتابه المعروف بمحنة الطبيب.

أما الكحّالون فيمتحنهم المحتسب بكتاب حنين بن إسحق، أعني عشر المقالات في العين، فمن وجده فيما امتحنه به عارفاً بتشريح العين، وعدد طبقاتها السبع، وعدد رطوباتها الثلاث، وعدد أمراضها الثلاثة، وما يتفرع من ذلك من الأمراض، وكان خبيراً بتركيب الأكحال وأمزجة العقاقير، أَذِنَ له المحتسبُ بالتصدّي لمداواة أعين الناس، وينبغي أن لا يفرّط في شيء من آلات صنعته مثل سنانير[4] السَّبَل والظفرة ومحكّ الجرب ومباضع الفَصْد ودُرْج[5] المكاحل وغير ذلك.

---

[1] عن صبح الأعشى. ج3 ص487.

[2] عبد الرحمن بن نصر الشيزري ــ نسبة إلى قلعة شيزر قرب معرة النعمان بمحافظة إدلب بسورية (توفي سنة 590هـ).

[3] حنين بن إسحاق العبّادي (194 ـ 264هـ: طبيب موسوعي كحّال، ولد ببغداد، وأصله من نصارى الحيرة.

[4] السنارة كلاّبة يعلق بها السبل وغيره من الأنسجة لتسليخها ورفعها.

[5] الدُّرْج: سُفَيْط توضع فيه الأشياء، وأصله للمرأة تضع فيه خِفّ متاعها وطيبها. (الوسيط).

وأما كحّالوا الطرقات فلا يوثقُ بأكثرهم، إذ لا دين لهم، يصدُّهم عن التهجّم على أعين الناس بالقطع والكحل بغير علم وخبرة بالأمراض والعلل الحادثة، فلا ينبغي لأحد أن يركن إليهم في معالجة عينه ولا يثق بأكحالهم وشيافاتهم[1]، فإنّ منهم من يعمل أشيافاً وأكحالاً مغشوشة لا يمكن حصر معرفتها، فيحلفهم المحتسب على ذلك، إذ لا يمكن منعهم من الجلوس لمعالجة الناس.

وأما المجبّرون فلا يحلّ لأحد أنْ يتصدّى للجبر إلا بعد أن يحكم معرفةَ المقالةِ السادسة من كنّاش فولوس في الجبر (ترجمة حنين بن إسحق) وأن يعلم عددَ عظام الآدمي، وهو مائتا عظم وثمانية وأربعون عظماً، وصورةَ كلِّ عظم فيها، وشكلَه، وقدْرَه، حتى إذا انكسر منها شيء أو انخلعَ ردّه إلى موضعه على هيئته التي كان عليها، فيمتحنهم المحتسب في جميع ذلك.

وأمّا الجرائحيون فيجب عليهم معرفة كتاب جالينوس المعروف "بقاطاجانس في الجراحات والمراهم"[2]، وأيضاً كتاب الزهراوي في الجراح[3]، وأن يعرفوا التشريحَ وأعضاءَ الإنسان، وما فيه من العضل والعروق والشرايين والأعصاب، ليتجنب ذلك في وقت فتح الموادّ وقطع البواسير، ويكون معه دست المباضع، فيه مباضع مدوّرات الرأس، والموربات، وفأسُ الجبهة، ومنشارُ القطع، ومجرفةُ الأذن، ووَرْد السَّلَع[4]، ومَرْهَمْدان[5] المراهم، ودواء الكُنْدُر[6] القاطع للدم. وقد

---

[1] الشيافات هي من مراهم العين.

[2] يعرف باللاتينية: De Medicamentorum compositione Locos et genera

[3] وهو كتاب الزهراوي في الطب لعمل الجرّاحين، وهو المقالة الثلاثون من كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف (العمل باليد)، لأبي القاسم خلف بن عبّاس الزهراوي المتوفى سنة 404هـ، وقد حققنا الكتاب، وصدر عن وزارة الثقافة السورية سنة 2009م.

[4] آلة حادة مدببة الرأس تستعمل في قطع السلع (الأورام السليمة).

[5] مرهمدان: شريط من قماش توضع عليه المراهم.

[6] الكندر: صمغ نوع من الشجر.

يبهرجون على الناس بعظام تكون معهم فيدسّونها في الجرح ثم يخرجونها منه بمحضر من الناس ويزعمون أن أدويتهم القاطعة أخرجتها. ومنهم من يضع مراهم من الكلس المغسول بالزيت ثم يصبغ لونه..... فيعتبر عليهم العريف جميع ذلك.[1]

ويقول محمد بن الإخوة: وينبغي إذا دخل الطبيب على المريض، وسأله عن سبب مرضه وعمّا يجد من الألم، ثم يرتب له قانوناً من الأشربة وغيره من العقاقير، ثم يكتب نسخة لأولياء المريض بشهادة من حضر معه عند المريض.[2]


وينبغي اذا دخل الطبيب على المريض
سبب مرضه وعما يجد من الالم ثم يرتب له قانونا من
الاشربة وغيره من العقاقير ثم يكتب نسخة لاوليا المريض

معالم القربة في أحكام الحسبة ـ من الورقة 107/و

نلحظ، فيما سبق من نظام الحسبة الذي كان مطبقاً في ظلّ الحضارة العربية الإسلامية، تنظيمَ مهنة الطبّ، ومراقبةَ جميع الأعمال الطبّيّة، وتدوينَ وصفة للمريض، فضلاً عن وضع نظام المستشفيات (البيمارستانات)[3].

وأما الحسبة على الصيادلة فقد كانت أشدّ وأدقّ لما في مهنة الصيدلة من خطورة في العقاقير واستخدامها غير الصحيح، حتى إنَّ الرقابة كانت تتمّ على العقاقير كلّ أسبوع. وقد قال في ذلك الإمام عبد الرحمن بن نصر الدين الشيزري:

---

[1] نهاية الرتبة في طلب الحسبة لعبد الرحمن الشيزري، ص 97 ـ 99.

[2] محمد بن الإخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة، الورقة 107و.

[3] لم نتطرق إليها منعاً للتطويل، ينظر نظامها في كتاب تاريخ البيمارستانات لأحمد عيسى ص18.

" تدليس هذا الباب كثير لا يمكن حصر معرفته على التمام، فرحم الله من نظر فيه، وعرف استخراج غشوشه، فكتبها في حواشيه، تقرّباً إلى الله تعالى، فهي أضرّ على الخلق من غيرها، لأنّ العقاقير والأشربة مختلفة الطبائع والأمزجة، والتداوي على قدر أمزجتها، فمنها ما يصلح لمرض ومزاج، فإذا أُضيف إليها غيرها أخرجها عن مزاجها فأضرّت بالمريض، لا محالة.

فالواجب عليهم أن يراقبوا الله ـ عزّ وجلّ ـ في ذلك، فينبغي للمحتسب أن يُخَوّفهم ويعظهم وينذرهم بالعقوبة والتعزير، ويعتبر عليهم عقاقيرهم في كل أسبوع"[1]. أي مراقبة العقاقير كل أسبوع.

وثمة مخالفة طبية ما زال العديد من الأطبّاء يرتكبونها؛ وهي وصف الأدوية في الطرقات للعوام، وهذا ممّا يستهان بمهنة الطبّ، فقد نبّه جالينوس على هذا الأمر بما نقله صالح بن نصر الله ابن سلّوم الحلبي قائلاً:

" **جالينوس يقول:** متى ما أمكن تقليل أدوية المركّب فهو أفضل، وخصوصاً ما كان سهلَ الوجود، كثيرَ الاستعمال، ونبّه جالينوس على عدم كَتْب نسخ الأدوية للعوام، خصوصاً إذا كانت سهلة التركيب، فإنّه يوجب الاستهانة بالصناعة[2]، وينظرون إليها حينئذ بالحقارة، وإذا لزم كتْب بعض الأدوية والتراكيب لبعض من لا يمكن مخالفته أو يُستحى عن مخالفته، فلْيُكتَبْ له من النسخ ما هو كثير الأدوية، وما له منها ثمن غال، أو ما يندر وجود أدويته"[3].

---

[1] نهاية الرتبة في طلب الحسبة لعبد الرحمن بن نصر الشيزري ص47.

[2] **هذا ما يقع فيه أكثر الأطباء في عصرنا، وهو استهانة بمهنة الطب، وهذا من المخالفات التي منعت القوانين الناظمة لممارسة مهنة الطب من عملها، بل ويعاقب كل من يصف أدوية في الشارع وعلى أوراق غير نظامية.**

[3] غاية الإتقان في تدبير بدن الإنسان لابن سلّوم الحلبي (توفي 1081هـ)، من تحقيقنا، فصل في بيان ما يحتاج إليه من يروم تركيب الأدوية، وهو في الورقة 2/ظ من نسخة ولي الدين 2520 ـ استانبول.

ونبه جالينوس على عدم كتب نسخ الادوية للعوام خصوصا اذا كان سهلة التركيب فانه
يوجب الاستهانة بالصناعة وينظرون اليها حينئذ بالحقارة واذا لزم كتب بعض
الادوية والمراكب لبعض من لا يمكن مخالفته او يستحيي عن مخالفته فليكتب له من النسخ
ما هو كثير الادوية وماله ثمن غال او يندر وجود ادويته فصل في الاوزان والمكاييل

من الورقة 2/ظ – مخطوط غاية الإتقان في تدبير بدن الإنسان

الفصل الخامس
شرف الطبّ وفضل الأطباء

كفى بالطبيب شرفاً أن جُعل اسمُه مشتقاً من أسماء الله ـ الحكيم، وكفى به فضلاً وتكريماً أنّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حث على التداوي في أحاديث كثيرة، ويكفي بعلم الطبِّ تشريفاً أن جعله الحكماء والأئمّة العلماء قسيماً لعلم الأديان، حين قال الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه: " العلم علمان؛ علمُ الأبدان وعلمُ الأديان"[1]، ولنفعه في علم الأديان فقد بُدِئَ به، إذ كانت الأديان لا تقوم إلا بصحّة الأبدان. ولشرف الطبّ وفضله أيضاً؛ فإنه كان محصوراً في عائلة أسقليبيوس ـ عائلة الملوك، ثم أذيع بين الناس خوفاً من الانقراض.

هذا، وكتب التاريخ أظهرت مليّاً مكانة الطبّ والطبيب عند العرب والمسلمين، فكانت مكانة الطبّ لا تنازع، وكرامة الأطبّاء لا تمسّ. ألا ترى إلى طاعة الملك لطبيبه، ما لا يطيع أبويه ولا أحداً من حشمه وأهله، ويكشف من سره إليه ما لا يكشفه إليهم، لِمَا يرجو عنده من النفع والمصلحة. والطبيب يخدم حرم الملوك وغيرهم، ويكشفن للطبيب من أسرارهن ما لا يستجزن كشفه لرجالهن، فبذلك وأشباهه وَجَبَ لصناعة الطب الشرف، ولأهلها التقدّم على سائر أهل الصنائع والمهن.

---

[1] نسب هذا القول إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولكنه للإمام الشافعي ـ رضي الله عنه، ينظر كشف الخفاء للعجلوني ج2 ص68 ـ رقم 1765.

إن هـذا الـشرف للطبّ، وهـذا الفضل والعلوّ في مكانتـه، يجعـل عـلى عـاتق الطبيب أمانة تستوجب الحفاظ عليها وعلى مكانتها، وذلك بما يسلكه الطبيب، وما يتمسك به من آداب في تلك المهنة النبيلة. ولعل من أهم من تحدث عن ذلك ابن رضوان حين قال: " إنّ في الطبّ اصطناع الجميل، وما كان لذلك فشرفه ظاهر، ولفظةُ شرفٍ دالّةٌ على ارتفاع الفضيلة وعلوّها. وشَرَفُ كل شيء ـ بحسب ما تبين في الفلسفة ـ يكون مبلغه، بحسب مبلغ فضيلة موضوعه ومبلغ براهينه، ولا شيء من الصنائع الفاعلة لها موضوع أشرف من موضوع صناعة الطبّ ـ الذي هو أبدان الناس. فلذلك يكون شرف الطب أعلى وأفضل من شرف كلّ صناعة فاعلة، إذ براهينهُ تنتج ما يطابق الوجود، وموضوعه أفضل من جميع الأجسامِ الأرضية. وبيّنَ أن شرفَ الطبيب بحسب شرف صناعته؛ فإنْ كان فيها فاضلاً كاملاً، فمنافعه ومحاسنه واصطناعه الجميل إلى الناس وشرفه بحسب ما ذكرناه، وإنْ كان ناقصاً، فنقصان فضائله بحسب نقصانه في صناعته.[1]

ولقد حُكِي عن جبرائيل بن بختيشوع (توفي 213هـ/828م) طبيب المأمون، أنه قال له يوماً: يا أمير المؤمنين، أنا مصلحُ أدمغةِ الملوك والقضاة منذ خمسين سنة، فكيف أقاس بغيري؟ فاستحسن ذلك منه.[2]

وممّا يوضّح شرف الصناعة الطبّيّة، ما تثمره من المنافع للناس كافّة؛ **فأوّل** نفع يصل إلى الفَهِم بها، هو الإقرار بتوحيد البارئ، والمعرفة للطيف حكمته، وعلوّ قدرته، وحسن عنايته لسائر خلائقه، وذلك عند تأمّله لقدرة الله في خلق الأعضاء والأمزجة والتراكيب وأفعالها، وغير ذلك مما تجلّت قدرة الخالق في صنعه. والنفع **الثاني** أنّها أعظم معين في القيام بالشرائع، لأنّها إذا صححت الأبدان أمكن الإنسان اقتناء العلم، وقدر على العمل من صوم وصلاة وغير ذلك. ولها نفع

---

(1) ابن رضوان: شرف الطب 113/و ـ 113/ظ.

(2) أدب الطبيب لإسحاق بن علي الرهاوي (توفي في القرن الرابع الهجري)، تحقيق الدكتور مريزن عسيري، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، طبعة 1992، ص213.

ثالث وهو أن من التمسها لذاتها، ولنفع الناس بها ــ لا للتكسّب ــ أكسبته اللذّة الدائمة، والمال النافع، والذكر الجميل، والثواب الجزيل.[1]

وإذا نظرنا إلى أغلب المصنّفات الطبّيّة الإسلاميّة وجدناها بدئت بمقدّمة في شرف الطبّ وأهمّيّته مستشهدين على قولهم بالقرآن والأحاديث النبوية وأقوال الفلاسفة والحكماء والسابقين.

فمن ذلك ما ذكره **علي بن عبّاس المجوسي** تشريفاً لمهنة الطب، وأن هذا الشرف والقدر هو ما دفعه إلى تصنيف كتاب في الطب: " وقد قال أنو شروان: إذا أراد الله بأمّة خيراً جعل العلمَ في ملوكها والملكَ في علمائها. ولما كان العلمُ بصناعة الطبّ أفضلَ العلوم وأعظمَها قدراً وأجلّها خطراً، وأكثرَها منفعة لحاجة جميع الناس إليها، أحببتُ أن أصنّفَ كتاباً كاملاً في صناعة الطب ....[2]

ومن هذا القبيل ما ذكره **سعيد بن هبة الله،** عن سبب كون الطبّ من أشرف الصنائع، وأنّ الوصول إلى المطالب لا يتم إلا بالصحة، فيقول: ... ولذلك قالت الحكماء: إنّ المطالبَ نوعان؛ خيرٌ ولَذَّةٌ، وهذان الشيئان لا يتمّ للإنسان الوصولُ إليهما إلا بالصحّة، لأنّ اللذة المستفادة من هذه الدنيا والخير المرجوّ في الآخرة لا يصل إليهما الواصل إلا بالصحّة، وصحّة البدن إنّما تتمّ بالصناعة الطبّيّة، ولهذا السبب صارت أشرف الصنايع قدراً، وأجلّها خطراً، لأنّها حافظة للصحّة الموجودة، ورادّة للصحّة المفقودة.[3]

ويحثّ **خلف بن عبّاس الزهراوي** طلبة العلم على تقديم تعلّم الطبّ، لما له من شرف وفضل على باقي العلوم، فيقول: أما بعد يا بَنِيّ فان أفضل العلوم بعد علم الدين وكتابه المبين علم الطب، فقدموا الطب وفقكم الله لعلم الدين، الذي

---

(1) عن أدب الطبيب: ص211.

(2) كامل الصناعة الطبية لعلي بن عباس المجوسي (القرن الرابع الهجري)، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية بجامعة فراانكفورت بألمانيا 1996م، ج1، ص 2 ـ 3.

(3) المغني في تدبير الأمراض ومعرفة العلل والأعراض لسعيد بن هبة الله البغدادي (436 ــ 495هـ)، تحقيق الدكتور محمد ياسر زكور، طبعة دار المنهاج بجدة 2010م. ص 68.

هو واجب في الفطنة، ولازم في الطبيعة، والذي له خلقنا، وبإقامة حدوده أمرنا، ثم اجعلوا بعد ذلك بحثكم وهمتكم في طلب صناعة الطب، التي هي نافعة في الحياة وبعد الممات، باستعادتها الصحة التي بها نستعين على إقامة فرائضنا وحدود شرائعنا، وطلب معايشتنا في حياتنا الدنيا طول مدتنا.[1]

أما **مدين القوصوني**، فرأيه بأن يكون علم الطبّ بعد العلم الإلهي، وله أيضاً استدلالات على شرف علم الطب، وفي ذلك يقول: إنّ كلَّ علم يشرف على غيره إما بحسب موضوعه ــ ولا شك أن العلم الإلهي أشرف العلوم، لأن موضوعه أشرف موضوع، لأن المبحوث عنه فيه هو ذات الله وصفاته، والطبُّ يجب أن يكون بعده، لأنّ موضوعه بَدَنُ الإنسان الذي هو أشرف مواليد الأركان.

وممّا يُستدل على شرفه أيضاً أمورٌ، منها؛ أنّ الإنسان إذا عرف علم التشريح، عرف قدر ما أودعه الله في هذا البدن النحيف، والهيكل اللطيف الشريف، من الأسرار الخفية، المحيّرة للعقول الزكيّة، وإذا عرف ذلك، كان له من أقوى الدلائل، وأعظم المسائل إلى اعترافه بالخالق الحكيم الذي أحسن كلّ شيء خلقه، وهو الخلاق العليم.

ومنها أنه إذا اطّلع على ما في كلّ عضو من أقسام الأسقام وأنواع ما ألم به من الآلام، وعلم أنه ـ سبحانه وتعالى ـ وضع في مقابلة كلّ داء دواء، ولكلّ ألم شفاء، وله ذلك على عنايته ـ تعالى ـ بهذه البنية الضعيفة، والخلقة النحيفة، فلا يزال ينتقل كلّ لحظة من برهان إلى برهان، وكلّ لمحة من مشاهدة إحسان إلى إحسان.[2]

---

[1] فاتحة التصريف لمن عجز عن التصريف لأبي القاسم خلف بن عباس الزهراوي، إعداد الصيدلي محمد يحيى خراط، معهد التراث ـ جامعة حلب 1992م.

[2] قاموس الأطبا وناموس الألبا، تأليف مدين بن عبد الرحمن القوصوني المصري (كان حياً سنة 1044هـ)، مصورات مجمع اللغة العربية بدمشق، أوفست دار الفكر سنة 1979م، ج1 ص1 ـ 3.

وصالح بن نصر الله الحلبي، يقول بثبوت شرف علم الطبّ بالعقل، والنقل؛ أمّا ثبوته بالعقل، فموضوعه، الذي هو بدن الإنسان، والذي هو أشرف المخلوقات. وبالنقل، ما جاء فيما نقل وسبق من الأقوال.[1]

وللأحنف بن قيس[2] في ضرورة الطب وشرفه وفضله، ما جاء على لسان **إبراهيم الأزرق** ـ بعد مقدمة مطوّلة، منها: أما بعد؛ فإنّ الطبّ علم عظُم نفعه وقدره، وعلا شرفه وفخره، واشتهر فضله وذكره، وثَبُتَ في الشرع أصله، ... وقال الأحنف بن قيس: ثلاث لا ينبغي لعاقل أن يتركهن: علم يتزود لمعاده، وصنعة يستعين بها على أمر دينه ودنياه، وطبٌّ يذهب به الداء عن جسده.[3]

هذا، وقد جعل الحافظُ **محمد بن عثمان الذهبي** الطبَّ بمثابة تقرّب إلى الله جلَّ وعلا، لأنه يعود نفعه على صحة الإنسان بدفع الأمراض عنه، فيقول: " إن الواجب على كلّ مسلم أن يتقرّب إلى الله تعالى بكلّ ما يملكه من القربات، ويستفرغ وسعه في القيام بالأوامر والطاعات، وأنفعُ الوسائل وأنجحُ القربات بعد امتثال الطاعات واجتناب المنهيّات، ما يعود نفعه على الإنسان من حفظ صحتهم ومداواة أمراضهم؛ إذ العافية أمرٌ مطلوب في الأدعية الشرعية والعبادات".[4]

إنّ ما ينطبق على علم الطبّ من شرف وفضل وعلوّ مرتبة بين العلوم، ينطبق على الصيدلة أيضاً، فهذا العلم لا يقلّ أهميّة عن علم الطبّ، بل لا غنى عنه في

---

(1) وللمزيد في ذلك ينظر مخطوط غاية البيان في تدبير بدن الإنسان لصالح بن نصر الله الحلبي (توفي 1081هـ)، نسخة واشنطن برقم MS30 ـ المقدمة. وقد حققنا هذا الكتاب بعون الله.

(2) الأحنف بن قيس بن معاوية بن حُصَين المرّي السعدي المِنْقَري التميمي، أبو بحر (3 ق. هـ ــ 72هـ): سيد تميم، وأحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين، ولد في البصرة. والأحنف لقب لحَنَفٍ كان في رجله؛ أي اعوجاج. واختلف في اسمه، فقيل الضحاك، وقيل صخر. (الأعلام ج1 ص276).

(3) إبراهيم بن عبد الرحمن الأزرق (كان حياً890هـ): تسهيل المنافع في الطب والحكمة، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ـ القاهرة 1948م. ص2.

(4) الذهبي: الطب النبوي، طبع بهامش تسهيل المنافع في الطب والحكمة للشيخ إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي بكر الأزرق، مؤسسة الحلبي وشركاه ـ القاهرة 1948م، ص2.

التطبّب، وفي ذلك يقول **أبو المنى بن أبي نصر** في صناعة الصيدلة: " إذ كانت هذه الصناعة أشرف الصنائع بعد صناعة الطب، لأنها آلة لصناعة الطب التي موضوعها النظر في بدن الإنسان من حيث حفظ صحته إن كانت موجودة، أو ردّها إن كانت مفقودة ".(1)

ونختم بقول **صاعد بن الحسن** في التنبيه على جلالة قدر صناعة الطبّ وأهلها، بقوله: قد أجمعت الأمم واتفقت الشهادات بالقياسات الصحيحة والتجارب المستمرّة، بفضل صناعة الطبّ وجلالتها وحاجة الناس إليها، وشهدت بذلك الشرائع على اختلافها، والملل على ثباتها، واستعملها الأنبياء والأوصياء واقتدى بهم الأتقياء والعلماء. قال تعالى: " **وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ**"(2) (3).

هذا ما كان من شرف الطب، وعلوّ منزلته بين العلوم، وتقديمه على غيره.

أما فضل الأطباء فقد جمعه الرازي في خمس خصال لم تجتمع لغيرهم، وهي:

الأولى: اتفاق أهل الملل والأديان على تفضيل صناعتهم.

والثانية: اعتراف الملوك، والسُّوْقة بشدّة الحاجة إليهم؛ إذ هم المفزع والغياث، حين لا تَنفع عدّةٌ ولا عشيرةٌ.

والثالثة: مجاهدة ما غاب عن أبصارهم.(4)

---

(1) ابن أبي نصر، داود، أبو المنى العطار الإسرائيلي الهاروني (كان حياً 658هـ)، منهاج الدكان ودستور الأعيان في أعمال وتركيب الأدوية النافعة للأبدان، طبع سنة 1287هـ في عهد الخديوي إسماعيل، على ذمة الشيخ حسن زغلة، بمطبعة حسين بك حسني. ص2.

(2) البقرة ـ 164. ويعقب صاعد بقوله: " وجاء في التفسير أنه الإهليلج، وقال آخرون بل كل ما يحمل في السفن ما يكون دواء وغيره".

(3) التشويق الطبي لصاعد بن الحسن الرحبي الطبيب (كان حياً سنة 464هـ وقيل 475هـ)، تحقيق ونشر أوتو شبيس، جامعة بون، 1968 اللوحة الخامسة – الثامنة.

(4) وذلك بالتنقيب على العلة مهما خفيت.

والرابعة: اهتمامهم الدائم بإدخال السرور والراحة على غيرهم.

والخامسة: الاسم المشتق من أسماء الله تعالى[1]. [2]

ليس هذا وحسب، بل إن المريض ليشعر بالراحة النفسية ـ حين وجود الطبيب عنده ـ ما لا يحسّه مع أهله وذويه، وفي ذلك يؤكّد الرازي أيضاً بقوله:

ولو لم يكن من فضل للطبيب ـ إلا أن الإنسان ربما يتشوق إليه حين يسأمُ أكرمَ الناس عليه، وأخصَّهم لديه؛ فإنّه في العلل الصعبة ربّما كره الإنسان لقاء أهله وولده، ويشتاق إلى الطبيب، ويتروح برؤيته، وتطيب نفسه بحضوره ومشاهدته ـ لكان فيه مندوحة عن غيره. وحكى لي غير واحد من المرضى: أنه يجد في نفسه راحة عند دخول الطبيب عليه، وكونه عنده، ما لا يجد في غيره من الأوقات.[3]

---

(1) أي الحكيم.

(2) الرازي: أخلاق الطبيب، تحقيق عبد اللطيف العبد، طبعة دار التراث بالقاهرة 1977م، ص87.

(3) المرجع السابق.

قاموس الأطبا وناموس الألبا

الحمد لله الذي جعل لسان العرب قاموسا مديدا وناموسا مفيدا وفردوسا فريدا وجعل التخريج منه
صحاح الدرر ولباسا للحكمى ومشوفا معلما وفيضى مفهما وكشافا عن كل ما استتر وعبابا منيرا ومصباحا
منيرا وروضا مزهرا يقتطف من افنانه يانع الثمر وقانونا قويا وشفاء وقيا وارشادا واستويا هاديا لاهل
البصاير والبصر احمده حمد عبد نور الله جنانه بنبراس السعادة والبسه حلل الفضل والسيادة
وبلغه الحسنى وزيادة وحققه بلطفه في القضاء والقدر وطهر لسانه بتوفيقه عن جراح الاعراض والهمه
بفضله علم معالجة الامراض والاعراض وافهمه بكرمه معرفة حقايق الجواهر والاعراض وما لها من
نفع وضرر واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له الذي خلق الانسان من نطفة امشاج
وركبه على اعدل مزاج من غير مزاولة ولا علاج وشرفه بالسمع والبصر واشهد ان سيدنا محمدا
عبده ورسوله السيد الاعظم والحبيب الاكرم والخليل الافخم خاصة خلاصة كنانه ومفرني شفى الله
بقانون شريعته ما سقم من الاجسام وداوى بموجز كلامه ما فسد من الافهام وفتح بشامل رسالته
ما انغلق من الاحكام وشرفه على ساير البشر صلى الله وسلم عليه وزاده شرفا وكرما لديه و
ادام امداده وتواصل احسانه اليه ما انجلت غياهب الفكر لمن حقق ونظر وبعد فيقول الفقير المعترف
بالعجز والتقصير الراجي عفو ربه القريب مدين بن عبد الرحمن الطبيب بدار الشفا بمصر غفر الله له كل اصر
وحل عنه كل اصر ووفقه لكل محمود ميثاق واصر ما كل من الف اتقن ولا كل من صنف احسن فالفضل
مواهب والهمم مراتب والعلم بحر زاخر وكم ترك الاول للاخر وكيف لا وتنقيح العلوم وتهذيبها
وتحريرها وترتيبها وتحقيق المنقول منها والمعقول انما هو من نتايج العقول قال العلامة ليس
كلمة اضر بالعلم من قولهم ما ترك الاول للاخر شيئا اذ كان المتاخر ينقطع عن العلم والتعليم ويقتصر على

١ سعطى

فاتحة قاموس الأطبا وناموس الألبا للقوصوني

ما قدمه المتقدم وهو سهو عظيم اذ لكل مجتهد نصيب قل او كثر جل او صغر فكما ان الاوايل فازوا بالسبق
الى استخراج الاصول وتمهيدها فالاواخر اشتغلوا بتفريع الاصول وتشييدها وكما ان الاوايل تفضلوا
على من بعدهم بالتأسيس والتمهيد فالاواخر قضوا حق من بعدهم بالتلخيص والتجريد اشهى وقد اجاد واحد
الزمان وفريد الاوان ذو التحقيق والفصاحة والتدقيق والبلاغة افصح اللغويين محمد شمس الدين في قاموسه
حيث قال ولولم اخش ما يجي المزكي نفسه من المعرة والوما لتمثلت بقول احمد بن سليمان اديب معرة
النعمان ولكن اقول كما قال ابو العباس المبرد الكامل وهو القايل الحق ليس لقدم العهد يفضل القايل ولا لحدثانه
يهتضم المصيب ولكن يعطى كل ما يستحق اشهى قلت قول القايل هنا لعل اي المخطي والمراد بقول اديب معرة
النعمان قوله واني وان كنت الاخير زمانه لآت بما لم تستطعه الاوايل

وقال ابن عمار رحمه الله

انا ابن عمار لا اخفى على احد • الا على جاهل بالشمس والقمر
ان كان اخرني دهري فلا عجب • فوايد الكتب يستلحقن في الطرر

بدا وان كل علم فانه يشرف على غيره اما بحسب موضوعه ولا شك ان العلم الالهي اشرف العلوم
لان موضوعه اشرف موضوع لان المبحوث عنه فيه هو ذات الله وصفاته والطب يجب ان يكون
بعده لان موضوعه بدن الانسان الذي هو اشرف المواليد الاركان واما بحسب شدة
الحاجة اليه في كل حين واوان وحين وزمان ولا شك ولا ارتياب عند ذوي الالباب ان الحاجة
الى الطب اشد منها الى غيره لان كل علم لا يمكن تحصيله الا بعد صحة الابدان الانسانية وسلامتها
من العلل البدنية والنفسانية ومما يستدل به على شرفه ايضا امور منها ان الانسان اذا عرف
علم التشريح عرف قدر ما اودعه الله في هذا البدن النحيف والهيكل اللطيف الشريف من الاسرار
الخفية المحيرة للعقول الزكية واذا عرف ذلك كذلك كان ذلك له من اقوى الدلايل واعظم الوسايل
الى اعترافه بالخالق الحكيم الذي احسن كل شيء خلقه وهو الخلاق العليم ومنها انه اذا اطلع على ما في كل عضو
من اقسام الاسقام وانواع ما الم به من الالام وعلم انه سبحانه وتعالى وضع في مقابلة كل داء دواء
ولكل الم شفاء وذلك على عنايته بهذه البنية الضعيفة والحلقة النحيفة فلا يزال ينتقل كل لحظة من
برهان الى برهان وكل لمحة من مشاهدة احسان الى احسان ومنها ان الطب يفيد الحياة الحاصلة
والصحة الكاملة والحيوة مع الصحة افضل منها مع المرض ومنها انه يوصل العطية والنفع الى الغير
وكلما كانت العطية افضل كان المعطي لها افضل ومنها ان معطي الذهب اذا كان يسمى جوادا فمعطي
الصحة بذلك اولى ان ينادى ومنها ما صح عنه صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم انه تداوى
وامر بالتداوي فعن ام سلمة رضي الله عنها قالت كان لا يصيب النبي قرحة ولا شوكة الا وضع

٢

الصفحة الثانية من فاتحة قاموس الأطبّا



فاتحة غاية البيان في تدبير بدن الإنسان لابن سلّوم، واشنطن 30 أ

5b

بكمال فضيلته . دليلة على سداده
وحسن نيته ، ورايه الموافق في ذلك
ان شا الله تعالي

الباب الثاني

في التنبيه علي جلالة قدر صناعة
الطب واهلها

قد اجمعت العلما الامم واتفقت الشهادات
بالقياسات الصحيحة والتجارب
المستمرة بفضل صناعة الطب وجلالتها
وحاجة الناس اليها . وشهدت بذلك
الشرايع علي اختلافها . والملل علي
تشتتها . واستعملها الانبيا والاوصيا
واقتدي بهم الاتقيا والعلما من ذلك
قول النبي صلي الله عليه وسلم العلم
علمان علم الابدان وعلم الاديان
فبدا بعلم الابدان اذ كانت الاديان

---

7 العلما: fehlt
14 قول النبي ... وسلم : قول القايل لا

الورقة 5/ظ من التشويق الطبي

الفصل السادس
سلوك الطبيب وأدبه، وكتمان السرّ

إنّ الشرف العظيم الذي حمله الطبّ والطبيب، لا بدّ له من مقابلة بالسلوك والأدب اللائق بهذا الشرف، والتمسّك بالقيم التي يجب أن يتحلى بها، ويعتقدها الطبيب، حتى يحتلّ المكانة التي أولاه إياها ذوو الحكمة والعقول النيّرة. فماذا ينبغي على الطبيب أن يكون عليه؛ في **سلوكه، وأدبه، واعتقاده، وأمانته**؟

لقد شُبِّه الطبيبُ بالحاكم، وما ينطبق على الحاكم ينطبق على الطبيب في سلوكه وأدبه وتزكية نفسه، ولقد أكّد ذلك **الرهاوي** بقوله: قال أرسطو طاليس: " تفقد من الحاكم أربع خصال؛ أنْ يكون حسيباً، وأنْ يكون عالماً، وأن يكون ورعاً، وأن يكون غير عجول". وقال: "إن الحاكم يَزين الحكمَ، وهو يُوحِشه". وإذا نقلت هذه الأقاويل إلى الطبيب وجدتها به لائقة، وعليه واجبة، إذ الطبيب حاكم في النفوس والأجسام، ولا يشك أحد في أنّ النفوس والأبدان أشرف من الأموال، فلذلك ينبغي للطبيب أن يأخذ نفسه بالآداب والعلوم النافعة في صناعة الطب. وبغير شك أنّ من لم يحظ بما أذكره وأطرحه سيخجل إن كان له أدنى حسّ، وأن يكون له مع الحسّ يسيرٌ من العقل، فإنّه سيستحي من الله، جلّ ذكره، الذي أنعم على الناس بصناعة الطبّ، ومنح بها أفاضل يستحقون تعلّمها، يخافونه، ويرهبونه قبل الإقدام على علمها، فضلاً عن العمل بها، وسيرى هذا المتجرئ على الله وعلى أهلها، أنّ مزاحمته لهم، ودخوله بينهم بغير نصيب منها، قبيح جداً، فإنْ بعثه خجله على تأديب نفسه، وإصلاح أخلاقه، ثم قصد أهلها بلطف

وأدب، وحسن مسألة، فتعلّم منهم، وخدم بين أيديهم في أعمالها، أمكنه حينئذ جمع العلم والعمل، وأنْ يحفظ صحّة الأصحّاء وأن يعالج المرضى ".[1]

أما فيما يتعلّق **بأمانة الطبيب واعتقاده**، فقد فصّل في ذلك **الرهاوي** أيضاً، وقسّم الأمانة في الاعتقاد إلى ثلاثة أصول، قائلاً:

إنّ أوّل ما يلزم الطبيبَ اعتقادُه صحّةَ الأمانة، **وأوّل الأمانة** اعتقادُه أنّ لكل مخلوق خالقاً مكوِّناً، واحداً قادراً، حكيماً فاعلاً لجميع المفعولات بقصد، محيياً مميتاً، ممرضاً مشفياً، أنعم على الخلائق منذ ابتدأ خلقهم، بتعريفهم ما ينفعهم ليستعملوه، إذ خلقهم مضطرّين، وكشف لهم عمّا يضرُّهم ليحذروه، إذ كانوا بذلك جاهلين. فهذه أوّل أمانة واعتقاد ينبغي للطبيب أن يتمسّك بها، ويعتقدها اعتقاداً صحيحاً.

والأمانة الثانية: أنْ يعتقد لله – جلّ ذكره – المحبّة الصحيحة، وينصرف إليه بجميع عقله ونفسه واختياره، فإنّ منزلةَ المحبّ اختياراً أشرفُ من منزلة الطائع له خوفاً واضطراراً.

والأمانة الثالثة: أنْ يعتقد أنّ لله رسلاً إلى خلقه، هم أنبياؤه، أرسلهم إلى خلقه بما يصلحهم، إذ العقل غيرُ كافٍ في كلّ ما يصلحهم دون رسله، ما شاؤوا، وكيف شاؤوا في الوقت الأصلح، كما اختار من الخلق لرسالته الصفوة ممَّن شاء.

فهذه أصول الأمانات التي يجب على الطبيب أن يستسرّها بينه وبين خالقه، ويعتقدها اعتقاداً صحيحاً، فقد دلّت أقوال القدماء على صحّتها، وأتت الكتب المنزلة بها، وشهدت على حقيقتها، ولا يسع ذا شرع الخروجُ عنها، فليس ينبغي لك أن تحفل بمن عَدَل عن هذه الأمانات، ظنّاً منه ببطلانها، فأزرى على الشرائع، وأظهر التدهّر والزندقة، فليس ذلك منه إلا جهلٌ يسوقه إلى الهلاك وسوء العاقبة، فإنْ دعتك نفسك إلى أن تختبره، وينكشف لك جهله ـ فاسأله عمّا اعتقده: لِمَ اعتقده؟ ولم عَدَل عن اعتقاد الكافة، وأهل شرعه؟ فإنّك من مبتدأ جوابه تستدلّ

---

[1] الرهاوي: أدب الطبيب، ص39.

على حيرته وسوء عقله، ولعلّه أنْ يكون في ذلك مقلّداً لمن قد كان يصحبه، ممّن كان يذهب ذلك المذهب، ويعتقد ذلك الرأي، ميلاً إلى الرخصة وخلع العذار، وشوقاً إلى بلوغ اللذات، حتى انطمست عين عقله، وعميت عن النظر الصحيح، فكان سبب هلاكه وهلاك من صحبه.[1]

نلحظ في كلّ ما ورد عن حكماء الطب والفلسفة منذ القدم، أنَّ آراءهم كلَّها تدور حول تزكية النفس بالإيمان بالله والاعتقاد بقدرته، والإيمان بأنبيائه ورسله وأوليائه، فكلٌّ ذلك له الأهمية الكبرى في سلوك طريق الخير الذي أودعه الله في علم الطبّ وعمله الذي شُرِّف، فكان قسيم علم الأديان، فإذا صحّ اعتقاد الطبيب وأمانته في ذلك كان عليه بعدها إصلاح خلقه بتعديل القوى الطبيعية، والعبادة بما يرضي الله، وفي ذلك يقول **الرهاوي**: "ولنرجع إليكَ أيّها المحبُّ للأدب، فإنّه إذا صحّت أمانتك بما تقدّم القول به من الإقرار بالله ـ جلَّ وعزّ ـ ومن المحبّة له، والاعتراف بحقّه، والإقرار برسله، والتمسّك برسائله، فعليك بالعبادة له بما يرضيه، ولن تقدر على ذلك دون أن تصلح أخلاقك، وتعدل أفعالك ولا يمكنك ذلك حتى تعلم أصول قوى النفس، وهي ثلاث قوى، كما بين ذلك القدماء من الطبيعيين والأطباء: النفسانية، والحيوانية، والشهوانية، فاعتدالُ القوة النفسانية يكسب الإنسان اللُّبَّ والعقل، وجودةَ التحصيل والتمييزَ وصحّةَ الفكر. واعتدالُ القوّةِ الحيوانية يكسبه الهدوء والرزانة وقلّة الحَرَد (الغضب) والغيظ. واعتدالُ القوّةِ الشهوانية يكسبه العفّة وضبطه لنفسه عن اتباع الشهوات والملذّات.

وبعد علمك بما ذكرناه يجب أن تروّض نفسك وتعوّدها هذه الخصال الثلاث، أعني العقل، والرزانة، والعفّة لتصيرَ فاضلاً أديباً، وتنَقّي نفسك، وتَصْلُحَ لاقتناء العلوم. واجتهدْ في الحذر من الوقوع في أمراض هذه القوى، فإنّ خروج القوّة النفسانية عن اعتدالها هو مرضٌ لها، يوجب سوءَ التحصيل والجهل، وخروجُ القوّةِ الحيوانية عن اعتدالها هو مرضٌ، يوجب سرعة الغضب والجزع،

[1] الرهاوي: أدب الطبيب، ص39. وفي هذا المعنى كثرت أقاويل الفلاسفة وبعض الحكماء، يمكن الرجوع إليها لمن أراد في المرجع المذكور.

وخروجُ القوّة الشهوانية عن اعتدالها هو مرضٌ لها، يوجب ألا يضبطَ الإنسانُ نفسه أو ألا تقوى له شهوةٌ". (1)

هذا، ومن يتمعّنُ في جلّ كتب الأطباء العرب، يرى أنّهم كانوا يحثّون في كلّ مناسبة على تزكية النفس، والتمسك بالقيم التي أودعتها الشرائع السماوية في نفوس البشر، والتنزّه عن الدنايا، والركون إلى ذوي الأنفس الخبيثة. كما كان الأطباء كثيراً ما ينبّهون على اختيار الطبيب الذي يتمثل هذه القيم والأخلاق والأمانة والاعتقاد، ومن ذلك قول **محمود الشيرازي**: "تأمّل سيرةَ الطبيب، فإنْ وجدتَه ذا حياء ودين، وورع متين، فاستصلحه لنفسك". (2)

وكذلك يقول **الرازي**: " ينبغي أنْ تكون حالة الطبيب معتدلة، لا مقبلاً على الدنيا كلّيّة، ولا معرضاً عن الآخرة كلّيّة، فيكون بين الرغبة والرهبة". (3)

ويقول **ابن سينا** في صفات الطبيب: " أن يعاشر كلّ فرقة بعادته ورسمه، ويسمح بالمقدور والتقدير من المال، ويركب لمساعدة الناس كثيراً ممّا هو خلاف طبعه. ثم لا يقصّر في الأوضاع الشرعيّة، ويعظم السنن الإلهيّة، والمواظبة على التعبّدات البدنية ". (4)

ويقول **صاعد بن الحسن**: وليجهد الطبيب في التباعد عن السُفسطائيين ويهرب منهم، ولا يكلّمهم بشيء من قبحهم وأغاليطهم وتمويههم، ويهتم بما يضيق صدره ويضيع زمانه، وترى مناظرته لمن ليس هو له بنظير، وكما أن لا يخلو من أن يستفيدوا منه علماً، ويتخذوه عذراً. كذلك ربّما اكتسب منهم خلقاً رديئاً،

---

(1) الرهاوي: أدب الطبيب، ص 54.

(2) رسالة في بيان الحاجة إلى الطب وآداب الأطباء ووصاياهم لمحمود بن مسعود الشيرازي (توفي 710هـ) اللوحة 82. عن حاشية أدب الطبيب ص161. وفي ص 144 منه: ميكروفيلم مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى رقم 36 طب. وينظر أعلام الحضارة لزهير حميدان ج4 ص414 حيث فيه المخطوط في دار الكتب المصرية برقم 141/طب ـ ف441.

(3) عيون الأنباء ص 420.

(4) عيون الأنباء ص446.

وأورثه كلامهم همّاً. وهم المغلطون المبطلون لحقائق الأمور، والله ينصرُ الحقَّ وأهلَه، ويبعدُ الباطلَ وناصرَه.

ويقول أيضاً: ويجب أن يتباعد من كلّ فساد ودنس، وبالجملة فلا يفعلُ ولا يتكلم إلا بما لا يستحي أنْ يُظهرَه للناس.[1]

ويقول أيضاً: من الشروط التي يجب على الطبيب أن يعملها: أن يكون كثير الأسفار والتنقل في الديار، باحثاً عن العلوم، طالباً لملاقاة ذوي الفضل، كثير السؤال والاستقصاء عن كتب الأوائل.[2]

ومن **وصايا أبقراط** للطبيب: " وينبغي أن يكون محتملاً للشتيمة، لأنّ قوماً من المبرسمين[3] وأصحاب الوسواس السوداوي يقابلونا بذلك، وينبغي لنا أن نحتملهم عليه، ونعلم أنّه ليس منهم، وأنّ السبب فيه المرض الخارج عن الطبيعة "[4].

أما في العفّة، وكتمان السرّ، فكان ذلك من مبادئ سلوك الطبيب وأدبه، وقد تناوله أكثر الأطباء العرب والمسلمين في أغلب مؤلفاتهم، **فلأبي بكر الرازي** في عفّة الطبيب ـ خاصة في معالجة النساء، وكتمان السر أقوال كثيرة، منها: واعلم يا بني أنه ينبغي للطبيب أن يكون رفيقاً بالناس، حافظاً لغيبهم، كتوماً لأسرارهم، لاسيما أسرار مخدومه؛ فإنّه ربما يكون ببعض الناس من المرض ما يكتمه من أخص الناس به، مثل أبيه وأمّه وولده، وإنّما يكتمونه خواصهم، ويفشونه إلى الطبيب ضرورة. وإذا عالج من نسائه أو جواريه أو غلمانه أحداً فيجبُ أن يحفظَ طرفه، ولا يجاوزَ موضع العلّة، فقد قال الحكيم جالينوس، في وصيته للمتعلمين ــ ولعمري

---

(1) التشويق الطبي: الورقة 18/ظ.

(2) صاعد: التشويق الطبي، الورقة 17/ظ.

(3) المبرسمين: هم المصابون بالبرسام (وصحته السرسام؛ وهو التهاب السحايا، أما البرسام فهو التهاب الصدر بلغة الطب القديم). والمقصد هنا المصابون بالأمراض النفسية والعصبية وما يصدر عنهم من كلمات مهينة خارجة عن وعي وإرادة المريض.

(4) عيون الأنباء ص46.

لقد صدق فيما قال: على الطبيب أن يكون مخلصاً لله، وأن يغضّ طرفه عن النسوة ذوات الحسن والجمال، وأن يتجنّب لمس شيء من أبدانهن. وإذا أراد علاجهن أن يقصد الموضع الذي فيه معنى علاجه، ويترك إجالة عينيه إلى سائر بدنها. قال: ورأيت من يتجنّبُ ما ذكرت فكبر في أعين الناس، واجتمعت إليه أقاويل الخاصة والعامة. قال: ورأيت من تعاطى النساء فكثرتْ قالةُ الناس فيه، فتجنّبوه، ورفضوه، وحُرِمَ الدخولَ على الملوك وعلى الخاصّة والعامّة. فليحذر الطبيب هذه الأمور التي حذَّرته إيّاها.[1]

ويقول **ابن هُبَل** في ذلك أيضاً: وكذلك يأخذون عليهم العهود في حفظ الأسرار، فإنّهم يطلعون على ما لا يطّلع عليه الآباء والأولاد من أحوال الناس، وأن يلزموا العفّة وغضَّ الطرف، وإذا دخلوا بيوت الناس لا تكون هِمَمُهم مصروفة إلاّ إلى ما يعود بمصالح المرضى.[2]

---

(1) الرازي: أخلاق الطبيب ص27.

(2) ابن هبل: المختارات في الطب ج1 ص3.

الفصل السابع
هيئة الطبيب

وهي التدابير التي يُصْلِحُ بها الطبيب جسمه وأعضاءه، بالابتعاد عما يضرُّ بصحته، ويضعف قوّةَ فهمه وعقله، وما عليه من التدابير اليومية في بيته فضلاً عن عمله، وينظم أوقاته بين النوم واليقظة والعبادة وقراءة كتب الشرع، كل هذا في إطار تطوير ما لديه من علم في كل سنة، بحيث يكون كثير الأسفار، شغوفاً لطلب العلم ومنفعة المرضى، مبتعداً عن التهور، وأن لا يكون جباناً، ولا يكون متكبراً مع حفاظه على هيبته.

وكذلك تطرق القدماء إلى ما ينبغي أن تكون عليه هيئة الطبيب في شكله، وملبسه، وهيئته بين الناس، إلى غير ذلك من الصفات التي يجب أن يتصف بها، ومن ذلك قول **أبقراط** في هيئة الطبيب: " وينبغي أن يكون حَلْق رأسه معتدلاً مستوياً، لا يحلقه ولا يدعه كالجمة[1]، ولا يستقصي قص أظافر يديه، ولا يتركها تعلو على أطراف أصابعه ".[2]

يقصد من كلام أبقراط هنا أن يكون الاعتدال في هيئة الطبيب، وعدم المغالاة والشذوذ في الظهور، وخصّ من ذلك الشعر والأظافر. وكذا المشية، والجلوس عند المريض، حتى الحركات يجب أن تكون موزونة. وفي ذلك يقول أيضاً: "

---

[1] الجمة: ما ترامى من شعر الرأس على المنكبين (المعجم الوسيط).

[2] عيون الأنباء ص46.

وينبغي أن تكون ثيابه بيضاء نقيّة ليّنة، ولا يكون في مشيه مستعجلاً، لأن ذلك دليلٌ على الطيش، ولا متباطئاً لأنّه يدل على فتور النفس. وإذا دعي إلى المريض فليقعد متربّعاً ويختبر منه حاله بسكون وتأنّ، لا بقلق واضطراب، فإن هذا الشكل والزي والترتيب عندي أفضل من غيره".[1]

أما في التدابير والسياسة التي ينبغي للطبيب أن يدبر نفسه بها في كلّ يوم مدة حياته، فيفصّلها **الرهاوي** بقوله: ينبغي للطبيب أن يبدأ في كلّ يوم باستنظاف ما يبرز من سائر منافذ بدنه، كالذي يبرز من منخريه وعينيه وفمه ونظائرها، وتزكيتها بالماء، وليس يكثر في هذه المنافذ الفضلات إلا لكثرة الأكل والشرب وسوء ترتيبها، فلذلك يكون أنفع الأشياء في تزكية الحواسّ ونقائها هو تعديل المأكول والمشروب.

وأيضاً: فإن الطبيب مضطر إلى حضور مجالس الأفاضل والأدباء، والأدب لائق، وليس من الأدب التنحنح والتبصّق والتثاؤب والتمطّي، وأشباه هذه الأشياء، وجميع هذه ونظائرها إنّما تأتي على التملّي من الطعام والشراب، فينبغي للطبيب أن يحذر ذلك، وما يملأ الرأس ويفعل هذه الأشياء العشاء، فيجب أن يتوقاه، وبعد ذلك فينبغي أن يعنى بفمه بالسواك والسَّنُونات التي تجلي الأسنان، وتطيّب النكهة، وتشدّ اللثة كالسُّعد والإذخَر[2] ونظائرهما، ويأخذ في فيه من العود ما يمضغه قليلاً قليلاً، ليطيب بذلك نكهته، وتقوى معدته ودماغه، وكذلك من المصطكى[3] ونظائرها.

ثم يجب عليه أن يتبع ذلك بتفقد روائح سائر أعضائه، فما أنكر منها من رائحة قابله بما يزيل تلك الرائحة كالتوتياء لروائح الإبط، والذرائر التي تقمع الروائح الرديئة.

---

[1] عيون الأنباء ص46.

[2] هما من النباتات الطبيّة.

[3] لبان معروف.

ويتلو ما ذكرنا عناية الطبيب بلباسه، فإنه ينبغي له أن يعتمد شيئين: أحدُهما النافع كاللّين والمسخّن في الشتاء، وكالرقيق الناعم في الصيف، والآخرُ ما جَمُلَ وحَسُنَ عند أبناء نوعه، ولم يخرج عن طبقة مثله، فإنّ الطبيب الخادم للسلاطين يحتاج من الكسوة والطيب أكثر ممّا يحتاج إليه طبيب العامة.(1)

وهكذا ينبغي للطبيب أن يأخذ نفسه في حراسة حواسه الباقية، وذلك بأن يحرس نفسه من اشتمام الروائح المكروهة المفسدة لدماغه، أو ملامسة الأعمال المفسدة لبدنه. وينبغي أن يجتهد في تعديل هواء مسكنه ومجلسه، وذلك بأن لا يجاور ما يفسد هواءه؛ من مسبك نحاس، أو أتون حمام، أو مجمع ماء رديء، أو مدبغة، أو ما أشبه ذلك.(2)

وإذا فرغ من حوائج الناس، ثم أخذ في مصالح جسمه، من استحمام وأكل وشرب، فعليه أن يعدل ذلك لجسمه حسب ما يوافقه بالكمية والكيفية، وبحسب الزمان والمكان، وإن احتاج إلى الأكل مع غيره فلا يتبع في أكله وشربه محابّ الأصحاب، بل يأخذ من كلّ أمر طبيعي بحسب الواجب، وبمقدار الحاجة لا بحسب اللذّة، ويكون هو المعلّم لغيره الصواب في ذلك، وليُجِدْ مضغَ ما يأكله، وليمتص ما يشربه، والأحمد للطبيب أن لا يجالس شُرّاب النبيذ، لأنه يضيع زمانه، ويستشغل مكانه، وليحذر أيضاً مخالطة الأحداث، وكثرة المزاح، فإنه يبسط عليه الجاهل والوَقَاح، ولا ينبغي للطبيب أن يجاذب النساء، لئلا يقطعه عن العلم، ويكسبه الخسارة، ولا يصلح للطبيب التشاغل باللعب والملاهي، لئلا يسخف ويصير واهياً، ولا يليق بالطبيب المَلَقُ، فإنه خُلُقٌ خَلَقٌ، ولا يحسن بالطبيب الحسد، فإنه يسقطه عن كل أحد.(3)

وفي الهيئة التي ينبغي أن يكون عليها الطبيب، في منزله وبين العوام وفي الأسواق، ما ذكره **صاعد** أيضاً بقوله: ولا ينبغي أن يكون هجّاماً متهوّراً عجولاً، فيضع الشيء في غير موضعه، ولا جباناً ولا عاجزاً عن فعل ما يجب أن يفعل،

---

(1) الرهاوي: أدب الطبيب ص157.
(2) أدب الطبيب ص159.
(3) الرهاوي: أدب الطبيب ص161.

فيفوته ما يحتاج أن يتعب في استدراك ما فرط فيه. ويكون قليل النهم والشره على الأكل والشرب واتباع الشهوات، غير مخلّط في تدبير ولبس، وإن أهمل أمره أو خلّط في مطعمه ومشربه لضرورة داعية أو لشهوة مفرطة، يجب أن يُزْهَدَ فيه لأجلها، أو يُعابَ لفعلها. مع ما أنا بهذا القول لا نطلق إجازة ذلك؛ فقد قال بعض الحكماء: قبيح بالملك أن يكون ظالماً، وذلك داع إلى فساد ملكه ورعيته، وقبيح بالزاهد أن يكون فاسقاً، وذلك مفسد لدينه وآخرته، وقبيح بالطبيب أن يكون مخلطاً، وذلك مفسد لصحته ولصناعته، وإذا عدم الطبيب الصحّة كان ذلك مّما يطلق فيه الألسن بالوقيعة والذمّ، ويورثه خصالاً منها حياؤه وخجله إذا سئل عن سبب ذلك، ومنها أنّ القلوب تنفر منه إذا كان الطبيب لم يمكنه حفظ صحّته ودفع مرضه، فهو أحرى أن لا يمكنه ذلك في غيره، ومنها أن معيشته تفسد، فلعن الله تخليطاً يوجب تفريطاً، وشهوةً تحدث هفوة. ولا ينبغي أيضاً أن تبلغ به الحمية المفرطة إلى أن تضعف قوته، ويرق جلده، ويهزل بدنه، وتقلّ شهوته، ويصفرّ لونه، ويكون ذلك سبب حدوث أمراض مزمنة أو مهلكة، بعد أن يقيمَ بأسوأ حال أكثر عمره. ويكون مشيه بين السريع والبطيء، قليل التلفت، كثير التودد والسلام على من يستحقّه، طويل الروح مبشراً بالخير، ضاحك السن، ولا يبلغ به الانبساط والبشاشة إلى أن يدق الأبواب، ويتطفل على المرضى، فيتهاون به وتسقط هيبته، ولا يطاع أمره. ولا يكون من الفظاظة والتكبر إلى الحدّ الذي يُخافُ منه، ويُمْقَت، لكن يكون بين الحالين. ولا يمضي إلى المرضى حتى يستدعى، فإنّه أجلّ له وأرفع لمنزلته، فإنْ ظهر له من المريض أو من أهله زهد فيه، فلا يعاود إليهم.[1]

ويقول الرازي أيضاً: وينبغي للطبيب أن لا يكون حقوداً ولا حسوداً، ولا عجولاً ولا ملولاً، ولا صلِفاً ولا شرهاً، بل يكون للذنب صافحاً، وللناس مسامحاً، ثابتاً متوقفاً، وبالأمر عارفاً، ليناً متواضعاً، وإلى الخيرات مسارعاً، قنوعاً شكوراً، ويحسن الثناء مسروراً، وعن المآثم عفيفاً، وفي باطنه وظاهره نظيفاً.[2]

---

[1] صاعد: التشويق الطبي، الورقة 20/و.

[2] الرازي: المرشد مخطوط الجامعة الأمريكية ببيروت 17/و.

تلك هي صفات الطبيب الذي يستحق أن يكون متميزاً عن غيره في الصفات الحسنة والخلق العالي، وبذلك يتميز الطبيب الماهر أيضاً عن غيره من منتحلي صناعة الطب ويستحق التقدم عليهم.

من صفات الأطبّاء

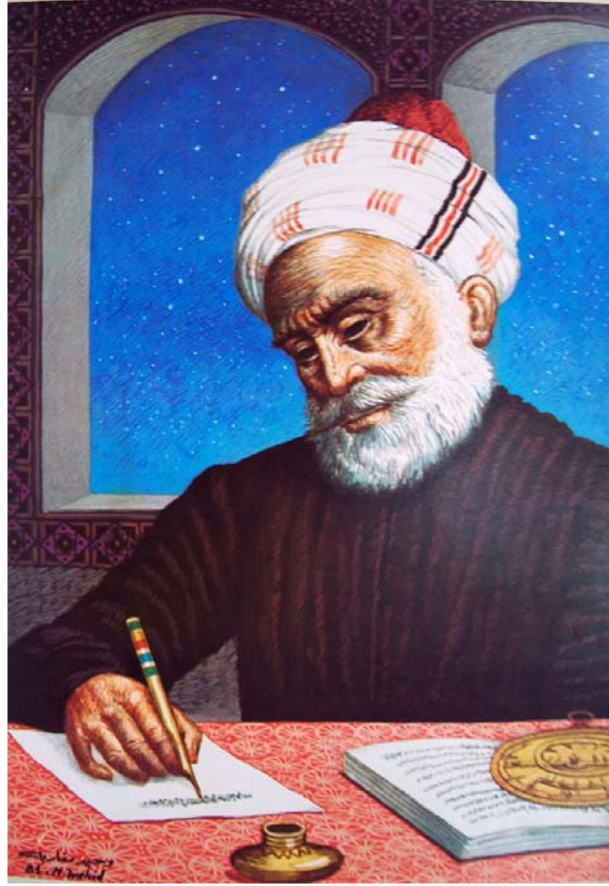
لعلّ من أهمّ ما ذُكِر عن صفات الأطبّاء، ما ورد عن ابن أبي أصيبعة، فقد وصف أبقراط قائلاً: إنّ **أبقراط** كان رَبْعَة، أبيض، حسن الصورة، أشهل العينين، غليظ العظام، ذا عصب، معتدل اللحية، أبيضها، منحني الظهر، عظيم الهامة، بطيء الحركة، إذا التفت التفت بكلّيته، كثير الإطراق، مصيب القول، متأنّياً في كلامه، يكرّر على السامع منه، ونعلاه أبداً بين يديه إذا جلس، وإنْ كُلّم أجاب، وإن سُكِتَ عنه سأل، وإنْ جلس كان نظرُه إلى الأرض، معه مداعبة، كثير الصوم، قليل الأكل، بيده أبداً إمّا مبضع، أو مِرْود(ميل). وكان منقوشاً على فصّ خاتم أبقراط: "المريض الذي يشتهي أرجى عندي من الصحيح الذي لا يشتهي شيئاً".[1]

ووصف **الرازيَّ** أيضاً بقوله: وكان الرازي ذكيّاً فطناً رؤوفاً بالمرضى، مجتهداً في علاجهم وفي برئهم بكلّ وجه يقدر عليه، مواظباً للنظر في غوامض صناعة الطبّ والكشف عن حقائقها وأسرارها، وكذلك في غيرها من العلوم بحيث إنّه لم يكن له دأب ولا عناية في جلّ أوقاته إلا في الاجتهاد والتطلّع فيما قد دوّنه الأفاضل من العلماء في كتبهم. وكان كريماً متفضّلاً، بارّاً بالناس، حسن الرأفة بالفقراء والأعِلاّء، حتى كان يجري عليهم الجرايات الواسعة، ويمرّضهم، ولم يكن يفارق المدارج والنسخ.[2]

---

[1] عيون الأنباء ص49.

[2] عيون الأنباء ص416.



صورة تمثل طبيباً ينسخ

ومن التدابير التي كان يقوم بها الأطباء في يومهم ما ذكره **علي بن رضوان** عن نفسه قائلاً : " وكنت منذ السنة الثانية والثلاثين إلى يومي هذا أعملُ تذكرةً لي، وأغيّرها في كلّ سنة إلى أن قرّرتها على هذا التقرير الذي أستقبل به السنة الستين من ذلك. أتصرّف في كل يوم في صناعتي بمقدار ما يُغْنِي، ومن الرياضة التي تحفظ صحّة البدن، وأغتذي بعد الاستراحة من الرياضة غذاءً، أقصدُ به حفظ الصحّة، وأجتهد في حال تصرُّفي في التواضع والمداراة وغياث الملهوف، وكشف كربة المكروب، وإسعاف المحتاج. وأجعل قصدي في كلّ ذلك الالتذاذ بالأفعال،

والانفعالات الجميلة. ولا بدَّ أن يحصل مع ذلك كسبُ ما ينفقُ، فأنفق منه على صحّة بدني، وعمارة منزلي نفقةً لا تبلغ التبذير، ولا تنحطُّ إلى التقتير، وتلزم الحال الوسطى بقدر ما يوجِبُه التعقّل في كلّ وقت. وأتفقدُ آلات منزلي، فما يحتاج إلى إصلاح أصلحتُه، وما يحتاجُ إلى بدل بَدَّلتُه، وأعدُّ في منزلي ما يُحتاجُ إليه من الطعام والشراب والعسل والزيت والحطب، وما يُحتاجُ إليه من الثياب. فما فَضُلَ بعد ذلك كلّه صرفته في وجوه الجميل والمنافع؛ مثل إعطاء الأهل والإخوان والجيران، وعمارة المنزل. وما اجتمع من غلّة أملاكي ادخرته لعمارتها ومرمّتها، ولوقت الحاجة إلى مثله. وإذا هممت لتجديد أمر مثل تجارة أو بناء أو غير ذلك فرضته مطلوباً، وحللته إلى موضوعاته ولوازمها. فإنْ وجدته من الممكن الأكثر بادرتُ إليه، وإنْ وجدته من الممكن القليل أطرحته.

وأتعرَّفُ ما يمكنني تعريفه من الأمور المزمعة، وآخذُ له أهبته. وأجعلُ ثيابي مزينة بشعار الأخيار، والنظافة وطيب الرائحة. وألزمُ الصمت، وكفَّ اللسان عن معايب الناس، وأجتهدُ ألا أتكلمَ إلا ما ينبغي. وأتوقى الإيمانَ ومثالب الآراء، فأحذرُ العجبَ وحبَّ الغلبة، وأطرح الهمّ الحرصي، والاغتمام. وإن دهمني أمرٌ فادح، أسلمت فيه إلى الله تعالى، وقابلته بما يوجبه التعقّل من غير جبن ولا تهوّر. ومن عاملته عاملته يداً بيد، لا أسلّف[1] ولا أتسلّف، إلا أن أضطرّ لذلك. وإنْ طلب منّي أحدٌ سلفاً وهبت منه، ولم أُردْ منه عوضاً. وما بقي من يومي بعد فراغي من رياضتي صرفته في عبادة الله سبحانه؛ بأن أتنزه بالنظر في ملكوت السماوات والأرض، وتمجيد محكمها. وأتفقّدُ في وقت خلوتي ما سلف في يومي من أفعالي وانفعالاتي، فما كان خيراً أو جميلاً أو نافعاً سُرِرْتُ به، وما كان شرّاً أو قبيحاً أو ضارّاً اغتممت به، ووافقت نفسي بأن لا أعود إلى مثله. وأما الأشياء التي أتنزّه فيها فلأني فرضتُ نزهتي ذكر الله عزّ وجلّ، وتمجيده بالنظر في ملكوت السماء والأرض".[2]

---

[1] بالأصل أسف.

[2] عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة ص561.

وختاماً، فقد أَجْمَلَ ابن رضوان صفاتِ الطبيب في **هيئته وسلوكه**، بأنه من اجتمعت فيه سبع خصال ـ على رأي أبقراط ـ وهي:

الأولى: أن يكون تامّ الخلق، صحيح الأعضاء، حسن الذكاء، جيّد الرويّة، عاقلاً، ذكوراً، خيّر الطبع.

الثانية: أن يكون حسن الملبس، طيّب الرائحة، نظيف البدن والثوب.

الثالثة: أن يكون كتوماً لأسرار المرضى، لا يبوح بشيء من أمراضهم.

الرابعة: أن تكون رغبته في إبراء المرضى أكثر من رغبته فيما يلتمسه من الأجرة، ورغبته في علاج الفقراء أكثر من رغبته في علاج الأغنياء.

الخامسة: أن يكون حريصاً على التعليم والمبالغة في منافع الناس.

السادسة: أن يكون سليم القلب، عفيف النظر، صادق اللهجة، لا يخطر بباله شيء من أمور النساء والأموال التي شاهدها في منازل الأعِلاّء، فضلاً عن أن يتعرض إلى شيء منها.

السابعة: أن يكون مأموناً، ثقة على الأرواح والأموال، لا يصف دواء قتّالاً ولا يعلّمه، ولا دواء يسقط الأجنة، يعالج عدوّه بنية صادقة كما يعالج حبيبه.[1]

[1] عيون الأنباء ص564.

الفصل الثامن
التقرّب من المريض وذويه

إنّ التقرّب من المريض ـ وما يسمى بلغة الطبّ الحديث Clinical approach ـ يعدّ من أولى مبادئ القصة السريرية في التشخيص ؛ والتقرّب من المريض يكون بتودّد الطبيب إلى المريض ـ وليس العكس ـ وذلك لكسب ثقته ومودّته ، وهذا ممّا يسهِّل الوصولَ إلى التشخيص الصحيح للمرض ـ بغضّ النظر عن تطوّر التقنيات في الفحوص المتمّمة للتشخيص ، من تصوير وتحليل وغير ذلك ، ناهيك عن دور التقرّب من المريض ، والتودّد إليه ، و ما له من أهمية في سرعة الشفاء وقبول العلاج.

قال الرازي : ولا شيء أجدى على العليل ، من كون الطبيب مائلاً إليه بقلبه ، محبّاً له.[1]

وفي مقابل ذلك ، فمن الواجب على المريض أيضاً أن يكون الطبيب لديه كأقرب الناس منه ، مع خصوصية ليست في غيره. وفي ذلك **يقول الرازي** أيضاً : " ويجبُ على من استخدم الطبيب أن يقرّبه من نفسه ، ويكلّمه كما يكلّم أخصَّ الناس به ، كيلا يحتاج الطبيب بينه وبين مخدومه إلى سفير ، فإنّه ربما يقع بالإنسان من العلل المستحى منها ما يحتاج الطبيب أن يأمر بعلاج في ذِكْره كراهة ، مثل الشيافات والحقن. فإذا لم يكن الطبيب مقرّباً فتمنعه الحشمة أو الجبن أن يشير عليه

---

[1] الرازي : أخلاق الطبيب ، ص35.

بذلك العلاج، فربّما أدت حشمته منه إلى إتلاف نفسه. كما إنّي سمعت أن ملكاً أصابته علّة القولنج، فاحتاج الطبيب فيها إلى استعمال الحقنة، ولم يكن الملكُ سَمِعَ بوصفتها ـ إذ كان عاميّاً لم يشاهد العلماء، فأشار الطبيب عليه باستعمالها، فلمّا وصفها له ظنّ الملكُ ــ بقلّة عقله وكثرة جهله ــ أن ذلك باستخفاف من الطبيب، وتهاون بعلاجه، فغلظ له القول، وقال: بمن ينبغي أنْ يُفْعَلَ ما وصفتَ؟ فخافه الطبيبُ على نفسه فقال: بي، أيَّدَ اللهُ الملكَ! قال: أو ينفعني ذلك؟ فقال المتطبّب: قد قيل: إنه ينفع، وترك علاجه، فتلف فيه. وحكى هذا الطبيب أنّه لو حُقِنَ لفاز ونجا. فلمّا لم يكن مقرّباً من مخدومه، حتى يمكنه أن يباسطه الكلام، خافه وترك علاجه، وكان في ذلك هلاكه".[1]

إنّ التقرُّب من المريض والتعاون معه، ليس له إلا هدف واحد؛ وهو شفاء العلّة التي من أجلها صار هذا اللقاء بين المريض والطبيب، للتعاون بينهما على العلّة، وفي ذلك يقول ابن أبي أصيبعة: دخل **أبقراط** على عليل فقال: أنا والعلّة وأنت ثلاثة، فإنْ أعنتني عليها بالقبول منّي لما تسمع صرنا اثنين، وانفردت العلّة فقوينا عليها، والاثنان إذا اجتمعا على واحد غلباه.[2]

وفي ذلك **يقول الرازي** أيضاً: "إذا كان الطبيب عالماً والمريض مطيعاً فما أقلّ لبث العلّة، فإنْ لبثت فذلك دليل قوّتها وتمكنها، وعند ذلك ينبغي أن يُقْبِلَ على أصعب علاج بعد أن يكون في القوّة محمل لذلك العلاج".[3]

ومن جهة أخرى فمطلوب من الطبيب أن يعطي الأمل دائماً في الشفاء ــ ولو لم يكن متأكّداً ــ فهو، أوّلاً، لم يصل إلى معرفة الغيب دائماً، وثانياً إنّ إعطاء الأمل من طبعه أنْ يقوّي غريزة المريض ودفاعه، وهذا أيضاً ممّا أكد عليه الكثير من الأطباء العرب القدماء في وصاياهم، ومن ذلك **قول الرازي**: ينبغي للطبيب أن يوهم المريضَ أبداً الصحّة، ويرجيه بها، وإن كان غير واثق بذلك، فمزاج الجسم

---

(1) المصدر السابق ص47.

(2) عيون الأنباء ص49.

(3) الرازي: المرشد، مخطوط الجامعة الأمريكية ببيروت رقم 109، ص31.

تابع لأخلاق النفْس.[1] وفي ذلك يقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: إذا دخلتم على المريض فنفسوا له في الأجل، فإن ذلك لا يردّ شيئاً، وهو يطيب نفس المريض.[2]

أمّا لقاء الطبيب مع المريض فقد وُضِعَتْ له كيفيات، مع حسن استماع للمريض وذويه، ومساءلة غير مملّة، وفي ذلك يقول **صاعد بن الحسن**: وليُحْسِنْ إنصاته واستماعه لما يشتكي إليه المرضى، ومن يهمّه أمرهم، مع رفق بهم، وتوقّف عليهم في إفهام ما يصفه لهم، ولا يكون حنقاً عليهم، ولا مكافئاً لهم بقبيح، ربّما ظهر منهم إليه أو بتقصير في مجازاة له بجميل. وإذا دخل على المريض فليقعدْ قريباً منه بحيث يرى وجهه، ويقابله، ويسمعُ كلامه، ويسأله عمّا يجب أن يَسأل عنه، وينصت له. وقال: ينبغي للطبيب أن يعالج الفقراء كما يعالج الأغنياء.[3]

ويقول الرازي في ذلك أيضاً: ينبغي للطبيب أن لا يدع مساءلة المريض عن كلّ ما يمكن أنْ تتولّد عنه علّته من داخل، ومن خارج، ثم يقضي بالأقوى.[4]

وفي معرض مساءلة المريض عن كلّ ما يمكن أن يفيد في الوصول إلى التشخيص، قد يسأل بعضُ الأطباء عن أشياء لا يكون لها علاقة بذلك، وهذا ما ورد عن **صاعد بن الحسن من النكت الطبّيّة قوله**: وبلغني أنّه دخل طبيبٌ على بعض ظرفاء الكتّاب، فسلّم عليه، وقعد، وابتدأ يسأله عن حاله، وقال له: ما تجد؟ قال: ألماً، قال: وما هذا الألم؟ قال: حمى، قال: ومِمَّ حممت؟ قال: من عقر الخف، قال: ولمَ عقرك؟ قال: لبسته وكان ضيقاً، قال: ولمَ لبسته؟ قال: مضيت في حاجة، قال: وأين كانت الحاجة؟ قال: في الديوان، قال: ولمن هي؟

---

(1) عيون الأنباء ص420.

(2) أخرجه ابن ماجه – الحديث 1438 ـ باب ما جاء في عيادة المريض، والترمذي 2078.

(3) صاعد: التشويق الطبي، الورقات 23/و ـ 24/و.

(4) عيون الأنباء ص420.

قال: للسلطان، قال: وما هي؟ قال: لا أقول لك، قال: ولمَ لا تقول لي؟ قال: لأنك صفعان[1]، دَبِرُ القفا، قُمْ عنّي إلى لعنة الله، فما أشدَّ فضولك!.[2]

وعلى نقيض هذه النادرة، فقد يتحدث بعض المرضى بأعراضٍ لا يُفْهَم منها حالة مرضية، بل تكون أقرب إلى الشكايات الوهمية، ومن تلك النوادر ما رواه صاعد أيضاً: جاء رجل إلى طبيب فقال له: أيّها الحكيم، أجد مغصاً في أطراف شعري، وظلمة في بطني، وإذا أكلت الطعام يتغيّر في معدتي، فقال له الطبيب: أمّا المغص الذي تجده في أطراف شعرك، فيجب أن تحلق رأسَك ولحيتَك، وقد زال عنك، وأمّا ظلمة بطنك؛ فيجب أن تعلق على باب سُرمك[3] قنديلاً، وأمّا تغير الطعام في معدتك؛ فكل خراك، واربح النفقة.[4]

ومن هذا القبيل يروي صاعد أيضاً: دخل طبيب أصمّ على مريض يعوده، فقال له: كيف رأيت نفسك البارحة؟ فقال: بشرّ، فقال: الحمد لله، ومن جاءك اليوم من أصحابنا؟ فقال المريض: الكلب، فقال: إنسان ــ والله ــ خير، صديقي وأخي، ومعي كان يقرأ، فما وصف لك؟ فقال: سمّ الموت، فقال: جيّد مبارك، وبهذا أردت أشير عليك.[5]

ولعل هذه القصة الأخيرة ليست للتندر وحسب، بل يمكن أن نستقرئ منها ضرورة كون الطبيب سالم الحواس ـ كما ذكرنا ـ حتى لا يستخفّ به المريض وتقلّ هيبته.

أما فيما يتعلّق بأدوية المريض وطريقة استخدامها وتحضيرها من قبل ذوي المريض، فذلك من الأمور التي يجب أن ينتبه إليها الطبيب، لما قد يترتّب عليها من

---

(1) صفع: ضرب قفاه بجمع كفه لا شديداً، ورجل صفعان ومَصفعاني: يُصفع (القاموس المحيط).

(2) صاعد: التشويق الطبي، الورقة 30/و.

(3) السُّرم: طرف المعي المستقيم (الوسيط).

(4) التشويق الطبي 53/ظ.

(5) صاعد: التشويق الطبي 54/و.

أخطاء إن جهل باستخدامها، أو أن يدبرها بيده، وفي ذلك **يقول الرهاوي**: " فإن يكن المريض، أو من يخدمه، يَعُون، ويفهمون وصف أدويته وأغذيته، أثبتّها لهم، فإنَّ ذلك أسلم له ولهم، وإنْ لم يكن من يعي، تولّى هو إصلاح ما يحتاج إليه بيده، فإن لم يتهيأ له ذلك لم يصف له شيئاً، لأنّ سكوته عن وصفته لمن لا يعي، ولا يؤمَن منه الخطأ هو أصلح للمريض وللطبيب".[1]

هذا ما ينبغي على الطبيب عمله من تقرّب من المريض وذويه حين زيارته لهم، أمّا في مكان عمله ـ أو عيادته، فكذلك رسم الأطباء العرب له **مجلساً يليق** به، ورسموا له كيفية يحتذي بها في لقائه للمرضى. ومن ذلك ما قاله **الرهاوي** أيضاً: أمّا بعد أن يستوفي العيادة لمرضاه، فيجب أن يعود إلى مجلسه المرسوم له، فيجلس لمن يجيئه من المرضى، ويحسن المساءلة. وعلى الطبيب أن يوسع خلقه، ويحتمل من المرضى ضجرهم، وأيَّ كلام سمعه منهم بغير تحصيل لم يحفل به، ولكن عليه أنْ يحصل من جميع ما يسمعه ما ينتفع به في برء المريض، وما سوى ذلك لا يفكر به، وليس للطبيب أن يمنع المريض من كثرة ما يشتكيه، فيظهر ضجراً من ذلك، لأنّه ربّما أورد في كلامه علاماتٍ يستدلُّ منها الطبيب على ما ينتفع به، ويستشهد بها على صحّة مرضه.[2]

وكذلك الأمر في مقابلة المريض مع الطبيب **في المستشفى** (البيمارستان)، فقد كان له أيضاً وصايا يجب أن يتّبعها الطبيب مع مريضه، وفي ذلك يقول **صاعد بن الحسن** في الآداب والوصايا في البيمارستانات: وإذا دخل إلى المريض فليقعد قريباً منه بحيث يرى وجهه ويقابله ويسمع كلامه، ويسأله عما يجب أن يسأل عنه، وينصت له، ولا يقنع بقوله حتى يستشهد عليه بقول من يخبر أمره وتدبيره، ويستقصي عنه في مواضع متفرقة، فإنّه ربّما استحى، أو فزع من يخبر بحال المريض، أن يكذّب قوله إن كان قد أخفى شيئاً عن أمره، أو كتم شيئاً ممّا قد استعمله أو نسيه، وربّما كان العليل لا يُحْسِنُ أن يعبّر عمّا يجد؛ إمّا لسوء تصرّفه

---

[1] أدب الطبيب ص160.

[2] المصدر السابق.

في العبارة، وإمّا لغموض العلّة. فإنْ ظهر للطبيب من المريض أو ممّن يليه، تلجلج أو بهرجة القول، أو أحسّ بمغالطة أو مخالفة لما يأمر به، فليهرب منهم، فإن الخطأ ينسب إليه لا إليهم.

وليبحث عمن دخل إليه من الأطباء، وما أشاروا به، ولينظر مع الصواب، ولا يحمله حبّ الغلبة أن لا يَدْخُلَ تحت الحقّ، فإنّ المنصف من كان الحقُّ صديقَه في أيّ وجه كان.[1]

ولا يطِل الجلوس عند المريض، ولا يتحدّث عنده بما لا يحتاج إليه ولا ينفعه، وإن سأله القعود عنده والمهلة عليه، فلا يقعد إلا لما يعلم أن فيه صلاحاً للمريض، وبالجملة فليطلب التخفيف فإنّه أحلى لموضعه في قلوب الناس. ولا يلزمه عَيْبٌ إن هرب من ظهور علامات مهلكة، فإنّ ذلك ممّا يدل على براعته في تقدمة المعرفة[2].

ويواظب على الدخول إلى البيمارستانات والخدمة فيها، والتصفّح لغرائب الأمراض التي يجدها، فكثيراً ما يشاهد في مثل هذه المواضع أمراضاً لم يسمع بها، ولا نظرها في المسطور، بل ربما كان يظن امتناع وجودها مع ما أن الأمراض ـ وإنْ تفنّنت واستقرئت ـ من تركيب الأسباب، فأنواعها وأجناسها محصورة في القوانين، محفوظة في الأصول. وإذا رأى شيئاً من هذه الغرائب فليكتبه في دستوره[3] ويحفظه لينتفع به هو وغيره.

---

[1] ما أجمل الطبيب الذي يبقي على ما وصفه غيره من الأطباء ـ إن كان صحيحاً ـ ويجنب المريض زيادة تكلفة في شراء غير دواء، لا بل يكبر الطبيب في عين المريض وذويه. وما أقبح أن يصف الطبيب نفس الدواء الذي كان قد وصفه زميل له قبل، ولكن بأسماء مشابهة، فقط ليظهر أنه الأفهم!!

[2] أي إنذار المرض.

[3] وهذا ما ندعوه حالياً بالحالات النادرة، والتي يجب تصويرها وعرضها في أحد المؤتمرات، أو نشرها في أحدى المجلات المختصة.



بيمارستان النوري بدمشق

وإذا أمكنه أن يعالجَ بالغذاء فلا يقرب الدواء، أو يعالجَ بالدواء فلا يقرب الحديد[1] إلا فيما لا بدّ منه، ويصفَ لكلّ مريض على قدر حاله وإمكانه، وليسهل ما قدر عليه، ولا يصف له دواء معدوماً، ولا يذكر اسماً مجهولاً أو غريباً.[2]

أما فيما يتعلق **بالرأفة والتلطّف** بالمريض، والبعد عن قسوة القلب، وعدم مقابلة ما يصدر عنه من سوء، بردود فعل تجلب الضرر له؛ فإن **أبقراط** يقول في الوصايا: إن كثيراً من المرضى هم أهلٌ لأنْ نتوانى عنهم، وخاصّة من لم يفعل ما يؤمر به، إلا أنه لا ينبغي أن نؤاخذهم لسوء صنعتهم إلينا، ولا نصرف وجوهنا عنهم، وخاصّة من كان منهم سيء الحال، وقال بعد ذلك: وليس ينبغي لنا أنْ نعاقبَ من كان على هذه الحال، فنصفَ له غيرَ ما يوافقُه، فإنَّ هذا جهلٌ في صناعة الطبّ، غير ملائم لها، بل ينبغي لنا، ويحقّ أن نحكمَ علاجهم، وأي امرئ أعطاه الله علماً يشفي به المرضى، وحباه ذلك، فبلغ من قساوة قلبه أن لا ينصحهم ولا يشفقَ عليهم، إنه لبعيدٌ من كلّ خير، بعيدٌ من الطبّ والتشبّه بأهله.[3]

وقال بعد هذا: ومن كان عزيقاً[4] في حومة قلّة العلم، لا يعرف شيئاً من هذا، ولا يحسنه، فلا ينبغي أن يُسَمَّى طبيباً، وإنّما يُوَفَّقُ أهلُ هذه الطبقة بجدودهم، وهم يظنّون أنّهم لا يعاقبون بذلك في المعاد.[5]

---

[1] أي الجراحة.

[2] صاعد: التشويق الطبي، 21/و ـ 23/ظ.

[3] لا أعتقد أن في بين الأطباء أحد يقابل الإساءة بمضرة للمريض في علاجه، ولا سمعت بمن فعل ذلك، أما إذا حصل فصانعه لا ينتمي إلى فئة الأطباء، بل إلى فئة هي أشد ظلماً من الحيوانات المفترسة.

[4] العزق: سيئ الأخلاق (المحيط).

[5] صاعد: التشويق الطبي، 23/و ـ 24/و.

واعلم أن هؤلاء الذين وصفتهم، منفعة للطبيب الماهر، وذلك أنهم إذا ما أساؤوا في أفعالهم ومخالفتهم الحق في صناعة الطب، مدح حينئذ الطبيبَ الماهر الناقدُ البصير، إذا قيس بالجاهل الذي هو طبيب بالاسم فقط.[1]

ويقول الرازي: لا تتخذن طبيباً غليظَ الطبع، ولا متهوراً أُمِّيّاً، ولا عجولاً، ولا قاسياً حَرِباً، ولا وقّاعاً بين الناس حسوداً لهم، بل تحرَّ أن يكون من أضداد هذه المعاني في الغاية.[2]

وللرهاوي من هذا القبيل أقوال في الرأفة، وصحّة استخدامها، وعدمه في حالات معيّنة، وتحذيره من مدح الأشرار والمخادعين، منها: وإذا كان الطبيب آخذاً لنفسه بهذه الأخلاق المحمودة، فإنه لا يَرَى أنْ يقابل جاهلاً؛ لئلا يكونا في الجهل بالسوية، ولا يرغب في الحرام من الأموال؛ لئلا يكون محتالاً، قال: فكم ممّن قد أرغبهم الأشرار من الرجال والنساء ببذل الأموال والمواعيد وأنواع الخدم، فَلِشَرِّهِهم وجهلهم أعطوا أدوية قتّالة، ومذرحات[3] أسقطت الأجنة، وأشباه ذلك من الأمور المهلكة. جميع ذلك جهلاً بالعواقب، وكفراً بالمنعم، فلو سعدوا بصحّة الفكر وجودة التمييز، لعلموا أنّ الخالق ـ تبارك ـ عادل، لا جورَ عنده، وأنّه يكافئ المرء بحسب دينه.

فإنْ لم تكن ـ أيها الحبيب ـ ممّن قد نصب بفهمه لهذه الأقاويل، ووهبت له السعادة فاقبل وصايا الجليل أبقراط، فإنّه قال: "إنّه لا ينبغي لك أن تُخدعَ بجزع امرأة تراها مكروبة فزعة من حملها فترحمها، وتعطيها دواء يسْقِط جنينها، فإنّه لم يفزع من الله تعالى". ولا وجه لقتل الجنين، بل يجب تربيته، ولتربيته أجرٌ عظيم، فأما أمّه الرديئة، فلا تستعملْ معها الرحمة، فإنّ فضيحَتَها سببٌ لصلاح غيرها من النساء، فاحذر أنْ تعطي مثلَ ذلك، اللهم إلا أن ترى أنت إعطاء ذلك

---

(1) صاعد: التشويق الطبي، 24/ظ.

(2) الرازي: المرشد، ص26.

(3) هي الذراريح؛ من الحشرات الطائرة، بنية اللون، تظهر في الربيع مع تفتح الشقائق، واحدتها ذروحة..

خشيةً على الحامل، وعلى الجنين من التلف، ولا فرق بين أن تعطَى الدواء أو تشتريه.

ولا ينفع الطبيبَ مدحُ الأشرار وأهلِ الخداع له، فلذلك لا ينبغي له أن يسرّ بذلك؛ لأنّهم مخادعوه بحمدهم، ومحتالون لاستعباده، واستقراض رجله بشكرهم.

ولا ينبغي للطبيب أن يحفل بذمّ ذامّ له على صواب أتاه، ولا يَنْتهِ عن الصواب، ولو ناله مكروه، ولا يلتفت إلى قول يسمعه من المريض، ولا يرضيه، فإنّ كثيراً من الأمراض يفسد التخيل والتمييز، بل ينبغي أن يعمل ما يجب.[1]

---

[1] الرهاوي: أدب الطبيب ص164.

الفصل التاسع
في تدبير أدوية المرضى
وما يحصل من خطأ

إنّ ما يعاقَب عليه الطبيب في الأنظمة والقوانين المرعيّة حاليّاً ؛ هو الخطأ الجسيم الذي يؤدّي بالمريض إلى الموت أو إلى عاهة مستديمة ، وفي تاريخ الطبّ فصّل الأطباءُ العرب أنواع الأخطاء التي قد تحصل في معالجة المريض إلى أسباب متعددة ، ولعلّ **صاعد بن الحسن** أسهبَ في هذا المجال فيما يفسد على الطبيب تدبيره ؛ فقال : قد يعرض للطبيب كثيراً ما يفسد عليه تدبيره ، وذلك إما لخطأ يعرض منه ، أو من المريض ، أو ممّن يدبّره ، أو من أمور تعرض من خارج.

ـ **أمّا من الطبيب** ؛ فكاستعماله الغذاء والدواء على غير ما ينبغي ، وذلك إمّا في الكمية ، وإمّا في الكيفية ، وإمّا في الوقت ، وإمّا في جهة استعماله ؛ كاستعماله دواء مجهولاً غير الدواء الذي يحتاج إليه ، أو دواء قد فسد ، وبطلت قوّته. فمن عرض له ذلك ، وكان عن تعمّد منه له ، أو لجهل به فهو ملعون به ، ومُبْعَدٌ لأجله من أهل هذه الصناعة ، بل يجب أن يؤدّب ويعزّر. وما كان عن سهو منه فهو معذور فيه ، إذ كان الإنسان غير معصوم من الغلط ، وهو أولى من حاسب نفسه على ذلك وعاد إلى الحقّ ؛ لأن سائر الصنّاع سوى الطبيب إذا أفسدوا شيئاً ممّا يعملونه تلافوا أمره ، وأمكن أن يصلحوه ، أما غلط الطبيب فبالأنفس والخطأ بالمهج ، ونحن نستعيذ بالله ، ونسترشده إلى سلوك سبيل الحقّ ، ونسأله العصمة عمّا لا يرضيه.

ـ **وأمّا ما يعرض من الخطأ من جهة المريض**، فإذا خالف الطبيب واتبع شهواته، ولم يمتثل ما يأمره، بل أطاع قول من لا يعلم، أو قتل نفسه بجهل، كما يفعل من اختلط عقله. أو لم يفهم ما وصفه له فحلّ به خطأ ينسب إلى الطبيب، وهو بريء منه.

ـ **وأمّا ما يعرض من الخطأ ممّن يتدبّر المريض**، فهو إمّا تعمّداً أو غير تعمّد، وهذا لا يلام فيه الطبيب.

ـ **وأمّا ما يعرض للمريض من الخطأ من خارج** فهو إمّا بسبب صيحة تقلقه، أو حدوث شيء يزعجه، كوقوع حريق أو غضب أو حركة عنيفة أو ما شاكل ذلك، فجميع هذه الأمور تبطئ بالبرء أو تؤدي إلى الهلاك.

ـ وكثيراً ما يُذَنَّبُ ويُذَمُّ إذا لَجَّ في **مداواة الأمراض العسرة البرء**، كالخوانيق والسكتة والصرع والفالج والاسترخاء.

ـ **وربّما كان الغلط ممّن يخبره ابتداء المرض**، وكثير من أهل زماننا هذا يجعلون اللوم في تطاول الأمراض وهلاك المرضى على الطبيب،[1] ويهملون جميع ما يتوجّه عليه من الخطأ، ممّا لا يلزمه لأنهم لا يعرفونه، وهذا لمقتهم الأطباء وتطيّرهم بهم.[2]

وأبو بكر الرازي يضع الأعذار للطبيب في الخطأ أحياناً، كقوله: ومن أعظم الخطأ كتمان السرّ عن الطبيب؛ فإذا فعل ذلك وكتمه عن الطبيب، مريد بذلك دفع اللائمة عن نفسه، فمن أخطأ خطأً، وكتمه، فقد جنى جنايتين، وارتكب خطيئتين. والطبيب لا يهتدي لعلاج من لم يفش إليه سرّه.[3]

---

(1) هذا ما ينطبق على الأمراض المزمنة، والأمراض الناكسة، والأمراض غير قابلة الشفاء، وهذا ما يتوجب على الطبيب توضيحه، وإلا وقع في اللوم.

(2) التشويق الطبي، الورقة 39/ظ.

(3) الرازي: أخلاق الطبيب ص68.

وللرازي أيضاً من هذا القبيل أقوال كثيرة، منها: الحقيقة في الطبّ غاية لا تدرك، والعلاج بما تنصّه الكتب دون أعمال الماهر الحكيم برأيه خطر.

وقال: الاستكثار من قراءة كتب الحكماء، والإشراف على أسرارهم، نافع لكل حكيم عظيم الخطر.

وقال: العمر يقصر عن الوقوف على فعل كلّ نبات الأرض، فعليك بالأشهر، ممّا أُجمع عليه، ودَعِ الشاذّ، واقتصر على ما جَرّبت.

وقال: الأطباء الأميّون والمقلدون، والأحداث الذين لا تجربة لهم، ومن قلّت عنايته وكثرت شهواته، قتّالون.

وقال: متى كان اقتصار الطبيب على التجارب دون القياس وقراءة الكتب خذل.

وقال: لا ينبغي أن يوثقَ بالحَسَنِ العنايةِ في الطبّ حتى يبلغَ الأشدَّ ويجرّب.[1]

وفي التحرّي عن الأدوية والخبرة في أشكالها واستخدامها وكمياتها، وواجب الطبيب في ذلك يقول صاعد بن الحسن أيضاً: ولا يغفل عن استقصاء الأدوية المفردة ومعرفة صورها وأسمائها وقواها، وتمييز جيّدها من رديئها، وسليمها من مغشوشها، فإنّه ربّما وصف أدوية ودلسها الصيادلة على من يشتريها منهم رغبة في أخذ ثمنها، ولا يبالون أنفعت المريض أم ضرّته أو قتلته.

وإذا وصف الطبيب دواء غريباً، فيجب أن يأمر مشتريه أن يعرضه عليه، ليسلم من حلول الخطأ بالمريض، وينسب ذلك إليه[2].[3]

هذا، وللدقّة والحيطة والحذر، فقد نبّه أكثر من طبيب من الأطباء العرب والمسلمين على ضرورة الإشراف الشخصي من الطبيب على صنع الدواء، أو من

---

[1] عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة ص420.

[2] أعتقد أن أكثر الناس يعلمون أن أغلب الأطباء ــ وحتى المرضى ــ يرغبون بالعودة إلى الطبيب للتأكد من صحة الدواء الذي يصفه بعد شرائه من الصيدلي.

[3] التشويق الطبي 18/ظ.

ينوب عنه ـ كالصيدلي الموثوق، ثم التأكيد على كتابة الجرعات، كما هو الحال في وقتنا الحاضر. وفي ذلك يقول **الرهاوي**: واعلم أن ممّالا يؤمن معه الاشتباه والنسيان، وتكون العاقبة فيه محمودة، ليستشيرَ الطبَّ والطبيب جميعاً، وأن يكتب عن الطبيب ما يشير به من الدواء، ثم أوثق من ذلك أن ينظر إلى ما أشار به، ويعاينه. وأشدّ ثقةً من الجميع أن يتولى هو إصلاح الدواء، أو يصلحه من يثق به بحضرته، وهو يقدّر كميته، ويشاهد دقّه ونخله أو عجْنه، أو طبْخه، أو غير ذلك من الإصلاح، فلست أحصي كم ضَرَرٍ دخل على الطبيب وعلى مرضاه ومن يدبرهم، من اتكاله في إصلاح الأدوية على حُرَمٍ في المنزل وخدمه، وذلك أنّ المريض يسوء حاله، والطبيب يسوء ذكره. فلذلك ليس ينبغي لأحد أن يثق على صنعتها بأحد ممّن في منزله، ولا من يخدمه غير طبيبه، أو من يرتضيه الطبيب من تلاميذه، أو الصيادنة الموثوق بهم عنده.[1]

أمّا موضوع فساد الأدوية، وما يحصل لها من تخرّب بأسباب متنوعة، فقد نبّه إليه الأطباء العرب، ومن ذلك قول إسحاق ابن علي الرهاوي في فساد الأدوية: إن ما يعرض للأدوية من فساد يكون لأسباب عدّة منها؛ جني النباتات قبل نضجها، أو بعد نضجها كثيراً بحيث يصيبها الفساد، أو لسوء حفظ الأدوية وتخزينها من ناحية المدّة الزمنية ومكان التخزين وصلاحيته لذلك من رطوبة وغيرها، أو من وجود أكثر من دواء في إناء واحد. فهذه الأشياء وأشباهها تفسد الأدوية بتقصير خُزّانها وتوانيهم، فتفسد بغير قصد منهم لفسادها، فيكون الضرر الداخل على المريض في علاجه، وعلى الطبيب في عمله عظيماً، لا يستهان به. فلذلك يجب على الطبيب أن يتيقّظ لذلك، ولا يعوِّل إذا وصف دواء على أن يأخذه من الصيدلاني من اتّفق ممّن يخدم المريض، بل يجب على الطبيب أن ينظر إليه قبل استعماله.[2]

---

(1) الرهاوي: أدب الطبيب، ص195.

(2) المصدر السابق ص174.

وفي ذلك يقول الرازي محذّراً من ترك العلاج الصعب، واستعمال الخطير: ينبغي أن لا يكون بالعليل من الفشل والرخاوة، ولا بالطبيب من الحذر والتوقّي في حدّ يترك به كلّ علاج بعده أدنى صعوبة، ولا أن يكون بالعليل من التصابر والحمل على نفسه، وبالطبيب من الجرأة والتهوّر ما يحمل العليل على العلاج الخطير جداً، لكن يحتمل من العلاج ما لم يَخَفْ معه أن تُهتك القوّة، وذاك من الحدّ الذي لا ينبغي أن يتجاوز.[1]

ويحذّر الرهاوي أخيراً من كتمان السر عن الطبيب، فيما يحدث من خطأ في الدواء، لأن معرفة ذلك قد يمكن تداركه بما يدرأ الضرر عن المريض، فيقول: أُحَذِّرُ من كتمان المرضى وخدمُهم عن الطبيب ما يحدث وما يقع من الخطأ، وفي كشف ذلك للطبيب فوائد ومنافع كثيرة، لأنّه يسارع إلى تلافي ما وقع فيه التفريط، وإصلاح ما حدث من الفساد، فيجب على كلّ عاقل ألا يكتم طبيبه شيئاً من الحوادث التي قد تحدث عن الطبع، ولا من فعلٍ أتاه هو بقصد، واتفق عليه بعرض.[2]

العمل باليد

بعد أن تحدّثنا عن التدابير اللازمة في المعالجة بالدواء، نأتي إلى التدابير اللازمة، والحيطة والحذر، في حال المعالجة بالحديد، وهو ما كان يسمّى **العمل باليد**، أي الجراحة، فلعل أهمّ من تحدّث في هذا المضمار، هو شيخ الجراحة والجرّاحين، **أبو القاسم خلف بن عبّاس الزهراوي** (المتوفى سنة 404هـ/ 936م)، الذي ورد عنه عدّة وصايا للجرّاحين، ما زالت تعدّ دستوراً، حريّ بنا أن نتمسّك به نحن الأطبّاء والجرّاحون على مرّ العصور، ومن ذلك قوله في مقدمة الباب الأول من المقالة الثلاثين من كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف: لمّا أكملت لكم ــ يا

---

[1] الرازي: المرشد، مخطوط نسخة الجامعة الأمريكية ببيروت، الورقة 16/ظ. وهي في نسخة مجلس شورى في الورقة 22/ظ ـ.

[2] الرهاوي: أدب الطبيب، ص195.

بَنيّ ـ هذا الكتابَ الذي هو جزءُ العلم في الطبّ بكماله، وبلغت الغايةَ فيه من وضوحه وبيانه، فرأيت أنْ أكمله لكم بهذه المقالة، التي هي جزءُ العملِ باليد، لأنّ العمل باليد محسِنه في بلدنا وفي زماننا معدومٌ البتّة، حتى كاد يدرس علمه، وينقطع أثره، وإنّما بقي منه رسوم يسيرة من كتب الأوائل، قد صحّفته الأيدي، وواقَعَهُ الخطأ والتشويش، حتى استغلقت معانيه، وبعدت فائدته، فرأيتُ أن أُحييَه، وأؤلف فيه هذه المقالة، على طريق الشرح والبيان والاختصار، وأن آتي بصورِ حدايد الكَيّ، وسائر آلات العمل باليد، إذ هو من زيادة البيان، ومن وكيد ما يُحتاج إليه، والسبب الذي له لا نجد صانعاً محسناً بيده في زماننا هذا، لأنّ صناعة الطبّ طويلة، وينبغي لصاحبها أن يرتاض قبل ذلك في علم التشريح، الذي وضعه **جالينوس**، حتى يقف على منافع الأعضاء، وهيئاتها ومزاجاتها واتصالها وانفصالها، ومعرفة العظام والأعصاب والعضلات، وعددها ومخارجها، والعروق النوابض والسواكن، ومعرفة مخارجها، ولذلك قال **أبقراط**: إنّ الأطباء بالاسم كثير، وبالفعل قليل، ولاسيّما في صناعة اليد. وقد ذكرنا نحن، من ذلك طرفاً في المدخل من هذا الكتاب، لأنّه من لم يكن عالماً بما ذكرنا من التشريح لم يخْلُ أن يقع في خطأ يقتل الناس به، كما قد شاهدت كثيراً ممن تصوّر في هذا العلم، وادّعاه بغير علمٍ ولا دُرْبَةٍ؛ وذلك أنّي رأيت طبيباً جاهلاً قد شقّ على ورم خنزيري[1] في عنق امرأةٍ، فأبرى[2] بعض شريانات العنق، فنزف دم المرأة، حتى سقطت ميّتة بين يديه.

ورأيت طبيباً آخر، قد تقدم في إخراج حصاة لرجل قد طعن في السنّ، وكانت الحصاة كبيرة، فتهوّر عليها، فأخرجها بقطعة من جرم المثانة، فمات الرجل إلى نحو ثلاثة أيام، وكنت قد دُعيت إلى إخراجها، فرأيت من عِظَمِ الحصاة، وحالِ العليل، ما قدّرت عليه ذلك.

---

(1) **الورم الخنزيري هو ضخامة العقد البلغمية الرقبية Lymphadenopathy. وغالباً كانت ضخامة سلّية.**

(2) **برى يبري: ينحت. فرى يفري: يشق.** (لسان العرب).

ورأيت طبيباً آخر، كان يرتزق عند بعض قوّاد بلدنا على الطبّ، فحدث لصقلّيّ أسود، كان عنده كسر في ساقه، بقرب العقب، مع جرح، فأسرع الطبيب بجهله، فشد الكسر على الجرح بالرفايد والجبائر شدّاً وثيقاً، ولم يترك للجرح تنفساً، ثم أطلقه على شهواته، ثم تركه أيّاماً، وأمره أن لا يحلّ الرباط، حتى تورّم ساقه وقدمه، وأشرفَ على الهلاك، فدُعيت إليه، فأسرعت في حلّ الرباط، فنال الراحة، واستقلّ من أوجاعه، إلا أنّ الفساد قد كان استحكم في العضو، ولم أستطع إرداعَه، فلم يزل الفساد يسعى في العضو حتى هلك.

ورأيت طبيباً آخر، بطَّ ورماً سرطانياً، فتقرَّح بعدَ أيّام، حتى عظمتْ بليّة صاحبه، وذلك أن السرطان إذا كان محضاً من خلط سوداوي، فإنّه لا ينبغي أن يُتعرض له بالحديد البتة، إلا أن يكون في عضو، يحتمل أن يُستأصَلَ جميعه.

ولهذا ـ يا بَنيّ ـ ينبغي لكم أنْ تعلموا، أنَّ العمل باليد، ينقسم قسمين؛ عمل تصحبه السلامة، وعمل يكون معه العطب في أكثر الحالات، وقد نبّهت في كلّ مكان يأتي من هذا الكتاب، على العمل الذي فيه الغَرَر[1] والخوف، فينبغي لكم أن تحذروه، وترفضوه، لئلا يجد الجهّال السبيل إلى القول والطعن، فخذوا لأنفسكم بالحزم والحياطة، ولمرضاكم بالرفق والتثبت، واستعملوا الطريق الأفضل المؤدّي إلى السلامة والعاقبة المحمودة، وتنكّبوا للأمراض الخطرة العسرة البرء، ونزّهوا أنفسكم عمّا تخافون أن يدخل عليكم الشبهة في دينكم ودنياكم، فهو أبقى لجاهكم، وأرفع في الدنيا والآخرة لأقداركم، فقد قال **جالينوس** في بعض وصاياه: لا تداووا مرض سُوْءٍ فتسمَّوا أطبّاءَ سوء.[2]

---

[1] الغرر: التعرض للهَلَكَة. (القاموس المحيط).

[2] الزهراوي في الطب لعمل الجراحين، تحقيق الدكتور محمد ياسر زكور، طبعة وزارة الثقافة السورية ـ دمشق 2009م، ص59 .

اللهم صل على سيدنا محمد وآله

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله



رب العالمين والعاقبة للمتقـ
للمتقين وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين
العاملين وعلينا وعليهم السلام بما أكملت
لكم بانتهاء هذا الكتاب الذي جزء العلم في
الطب بكماله وبلغت الغاية فيه وتوضيحه
وبيانه وأردت أن أكمله لكم بهذه المقالة
التي هي جزء العمل باليد في بلدنا وفي زماننا معدوم

البنية

فاتحة المقالة الثلاثين من التصريف لمن عجز عن التأليف لأبي القاسم الزهراوي، الرباط – الخزانة الحسنية VII /134

ويقول في مقدمة الباب الثاني من المقالة الثلاثين، وهو باب الجراحة ــ محذّراً فيه أكثر ممّا في الباب الأوّل: وقبل أنْ أبدأ بذلك فينبغي أنْ تعلموا ــ يا بَنيّ ــ ، أنّ هذا الباب فيه من الغَرَر فوق ما في الباب الأول في الكَيّ، ومن أجل ذلك ينبغي أن يكون التحذير منه أشدّ، لأنّ العمل في هذا الباب كثيراً ما يقع فيه الاستفراغ من الدم، الذي به تقوم الحياة، عند فتح عِرق، أو شقٍّ على ورم، أو بطِّ خُرَاج، أو علاجِ جراحة، أو إخراجِ سهم، أو شقٍّ على حصاة، ونحو ذلك ممّا يصحب كلَّها الغَرَرُ والخوف، ويقع في أكثرها الموت.

وأنا أوصيكم عن الوقوع فيما فيه الشبهة عليكم، فإنّه قد يقع إليكم في هذه الصناعة ضروب من الناس بضروب من الأسقام، فمنهم من قد ضجر بمرضه، وهان عليه الموت لشدّة ما يجد من سقمه وطول بليته، وبالمرض من الغَرَر ما يدلّ على الموت، ومنهم من يبذل لكم ماله، ويغنيكم به رجاء الصحة، ومرضُه قتّال، فلا ينبغي لكم أن تساعدوا من أتاكم ممّن هذه صفته البتة، وليكن حذركم أشدّ من رغبتكم وحرصكم، ولا تقدموا على شيء من ذلك إلا بعد علم يقين، يصحّ عندكم، بما تصير إليه العاقبة المحمودة، واستعملوا في علاج جميع مرضاكم تقدمةَ المعرفة والإنذارَ لما تؤول إليه السلامة، فإنّ لكم في ذلك عوناً على اكتساب الثناء والمجد والذكر والحمد. ألهمكم الله ــ يا بَنيّ ــ رشده، ولا حرمكم الصوابَ والتوفيق، إن ذلك بيده لا إله إلا هو.[1]

وقال في مقدمة الباب الثالث من المقالة الثلاثين وهو باب الكسور والخلوع: اعلموا ـ يا بَنيّ ـ أنّه قد تدّعي هذا البابَ الجهّالُ من الأطباء والعوامّ، ومن لم يتصفّح قطّ فيه للقدماء كتاباً، ولا قرأ منه حرفاً، ولهذه العلّة صار هذا الفنّ من العلوم في بلدنا معدوماً، فإنّي لم ألقَ فيه قطّ محسناً البتّة، وأنا استفدت منه ما استفدت بطول قراءتي لكتب الأوائل وحرصي على فهمها، حتى استخرجت علم ذلك منها، ثم لزمت التجربةَ والدُّرْبَة طولَ عمري، وقد رسمت لكم من ذلك في هذا الباب جميع ما أحاط به علمي، ومَضَتْ عليه تجربتي، بعد أن قرّبته لكم،

---

[1] الزهراوي في الطب لعمل الجراحين، ص187.

وخلّصته من شعب، التطويل واختصرتُه غايةَ الاختصار وبينتُه غايةَ البيان، وصوّرت لكم فيه صوراً كثيرة من صور الآلات التي تستعمل فيه، إذ هو من زيادة البيان كما فعلت في البابين المتقدمين، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.[1]

ويقول في نهاية المقالة الثلاثين من التصريف: وتحرّى جهدك، ونزّه نفسك عن الدخول في طريق الغَرَر، على ما تقدمتْ وصيّتي لك، فذلك أبقى لجاهك، وأسلمُ لعرضك، إن شاء الله، تعالى.[2]

المعالجة دون حضور المريض

قد يلجأ بعض الناس، حتى في وقتنا الحاضر، إلى إرسال صورة شعاعيّة، أو تحليل، إلى الطبيب ليشخّص لهم المرض ويعطي العلاج، وهذا مرفوض في علم الطب، لأن هذه الفحوص تعدّ من مكمّلات الفحص السريري، ومن الأشياء المساعدة في التشخيص، وينظر إليها الطبيب بعد فحص المريض، ولا يتم التشخيص من خلالها فقط إلا بعد فحص المريض سريرياً. والمعاناة من هذا الأمر موجودة قديماً وحديثاً، وقد تحدّث عنها **إسحاق الرهاوي** قائلاً:

قال أبقراط: "وقد ينبغي لك ألا تقتصر على توخّي فِعْلِ ما ينبغي دون أن يكون المريضُ ومن يحضره كذلك".

من ذلك ما نشاهده من مشورة الأطباء بغير توقّف، ولا بحث، ولا قانون صناعي على كلّ من جاءهم من أيّ أصناف الناس كان، قد جرت عادات كثير من الناس أن يوجّهوا بقارورة[3] الماء إلى الطبيب مع أدْوَن خدم المنزل، إمّا صبي أو عجوز أو مملوك أعجمي، وقصدهم بذلك أنْ يفهم عن الطبيب كلّ ما يحتاج إليه المريض. بغير شك إنّ الطبيب لا يمكنه أن يشير بشيء أو يفهم جميع حالات

---

[1] الزهراوي في الطب لعمل الجراحين، ص610.

[2] الزهراوي في الطب لعمل الجراحين، ص723.

[3] هي قارورة فحص البول.

المريض، أفترى ــ ليت شعري ــ من يفهم ذلك: الصبيّ، أم العجوز، أم الأعجمي؟ فما يتمالك الطبيبُ أن ينظر إلى القارورة حتى قد بادر بالصفة[1]، وأمر أيضاً غلامه بدفعها إلى الرسول إن كان ممّن يرجى أخذ فضّته. فأقسمُ بالله، إنّ كثيراً من هؤلاء الأطبّاء لو سأله سائل: ما الذي علمته من العلامات من هذا الماء الذي رأيتَه؟ ولم وصفت ما وصفْتَه؟ لما وجد عنده جواباً يقنع به السائل له. ولا فيهم أيضاً من يتوقّف إلى أن يجد من فيه تحصيل؛ لئلا تفوته الفضّة، ولا من يخشى من عتب عاتب، ولا من يخاف من لوم لائم، ولذلك قد فشا فيهم الكسل، وسهل عليهم التواني، فلا ناظر في علم، ولا قارئ لكتاب، ولا تجد منهم من يَسألُ عن تعلّم شيء من الصناعة، ولا من يذاكرُ صاحبَه في مسألة، أو في أمرِ دواء أو غيره، لكنّه متى يفرغ من كسب الدراهم يتشاغل بشرب الأقداح الكبار، واللعب بالشطرنج، وأشباه ذلك.

وهؤلاء يخدمون ألوفاً من الناس، الذين لا يعرفون من خطئهم شيئاً يتصورونه بصورة الصواب، ويعتقدون في أطبائهم أنّهم حذّاق، والسبب في قلّة انتقادهم أنّهم يجدونهم يتولّون لهم، ويكثرون التردد إلى منازلهم، ويرخصون عليهم الأدوية، وكثير منها يأخذونها بغير ثمن[2]، فهم لذلك أفاضل عندهم، ولا يفكرون في أن يهلكوا عند أمراضهم بتدبير هؤلاء الأطباء لهم.[3]

---

[1] هي الوصفة حالياً.

[2] وهذا لعمري ما يحصل في زماننا؛ فالطبيب الجيد هو الذي لا يأخذ أجور أتعاب من المريض، فإذا غلط وأخذ مرة، صار عنده من المذمومين، نسأل الله العافية.

[3] الرهاوي: أدب الطبيب ص230.



قارورة البول

الفصل العاشر
في تعليم الطبّ

لقد وضع الأطبّاء العرب والمسلمون شروطاً وصفاتٍ يجب توفرّها في متعلّم الطبّ ومعلّمه، فأسهبوا في ذلك، ودقّقوا كثيراً، وأكّدوا على وجوب توفر تلك الشروط فيهما، وصنّفوا الكتب المخصصة للحديث عن تعليم الطبّ، فمنهم **علي بن رضوان** الذي صنّف كتاباً أسماه " النافع في تعليم صناعة الطبّ" ويقول فيه:

" صناعة الطبّ ضربان؛ **ضَرْبٌ** رغبتهم منها اكتسابُ المال بها، وهذا الضربُ لا يصلحون لتعليمها، من قِبَل أنهم إذا صادفوا اكتساب المال بأيّ وجه كان، صاروا إلى الراحة، فمنهم من يخالط ذوي الأموال، فيقفُ بالغدوات على أبوابهم للسلام عليهم، ويروح بالعشي إليهم، فيتعشّى معهم، وينادمهم بالمضحكات، ويشاركُهم بشرب الأقداح، ونحو هذا. ومنهم من يدور النهارَ كلّه وبعضَ الليل على العوامّ، فيتفقد مرضاهم، وإن لم يدعوه إليهم. ومنهم من يتزيّا بلباس الأطباء المتعارف، ويجلس في الحوانيت على الطرق، ومنهم من يحتال بحيلة أخرى، أي حيلة كانت بما يكتسب بها ما يحتاج إليه.

والضربُ الآخر؛ رغبتهم فيها لاكتساب محاسن الصنعة، فهذا الضرب يصلحون لتعليمها، ولا يفوتهم بها اكتساب ما يُحتاجُ إليه من المال. وإذا خُوطب الضربُ الأوّلُ فسئلوا عن رغبتهم في صناعة الطب؛ أوهموا الناس أنَّ مقصدَهم محاسنُ الصناعة.

وأنت فاختر لنفسك أيَّ الأمرين شئت أنْ تكون طبيباً محقّاً، أو طبيبَ زور مبهرج على الناس، فإن كنت تروم أنْ تكون محقّاً فامتحنْ نفسك؛ فإنْ كنت تصلح للتعليم فاشرعْ فيه، وإن كنت لا تصلح فلا تتعب فيما لا تبلغه، وأوّلُ ما تُمتحَن به هو عقلك وفهمك وتواضعك، ولزومُك العفاف، وصبرُك على تعب النسخ".[1]



لوحة تمثل ديسقوريدس مع تلميذه

يظهر لنا مما أورده ابنُ رضوان في نوعيّ الراغبين بتعلّم الطبّ كونه مهنةً كباقي المهن في التعلّم، والراغبين في تعلّم أيِّ مهنة – كما قال ـ نوعان؛ فصناعة الطبّ كما باقي المهن ثمّة من يرغب في تعلّمها لخدمة تلك المهنة، مع ما يتمتّع به من شغف وحبّ لتلك المهنة وخدمتها، والتعرف إلى تفاصيل كنهها، وثمّة من يرغب بجمع المال؛ فقد يسهل عليه ذلك من طريق آخر أسرع وأسهل فلا يلتفت إلى

---

[1] ابن رضوان: النافع في تعليم صناعة الطب، مخطوط تشستربتي 5019، الورقة 18/و.

خدمة مهنته. وفي عصرنا هذا العديد من الأطباء ممن ينشغلون بجمع المال سريعاً بالطبّ وبأبواب أخرى ـ كالتجارة وغيرها ـ فيهملون مهنتهم، ولا يخدمونها حقّ خدمتها. ولهذا فقد نصّت القوانين الناظمة لمهنة الطبّ عندنا: بأنّه يحظر على الطبيب الجمع بين مهنته، وبين أيّ مهنة أخرى ـ عدا مهنة التعليم.

وقال ابن المطران نقلاً عن كتاب رسوم التعاليم لأبي محمد **عبيد الله بن أحمد الرازي**، قال: " التعلّم ضربان؛ أحدُهما يصير به المتعلّم ماهراً حاذقاً، فالأول تعليم الكلّيات في العلوم والصنائع، والثاني مزاولة الجزئيات في كلّ واحد منهما، ومتى لم يصحّ للمتعلم هذان الأمران، لا يصير عالماً أبداً، لأنه من استعمل أحدهما، ولم يستكمل الآخر، بقي عليه أمر لم يتمّه ولم يكمله".[1]

وهذا القول يشير إلى ما هو قائم حالياً في تعليم مهنة الطبّ، ففي البداية يكون تعليم المناسب من كلّيات العلوم وتعليم الطبّ العام، ثم التخصّص في مجال معيّن فيكون في جزئياته.

وإذا عدنا بالزمن إلى **أبقراط** نرى أنّه لم يكتفِ بوضع القَسَم والناموس، بل وضع شروطاً يجب توفرها في متعلّم الطبّ، وله الوصايا العديدة التي تنفع أن تكون منهاجاً يسير عليه متعلّم الطبّ وممارسه معاً، والتي تعرف **بترتيب الطبّ**، ومن هذه الوصايا يقول:

" ينبغي أن يكون المتعلّم للطبّ، في نفسه حرّاً، وفي طبعه جيّداً، حديث السنّ، معتدل القامة، متناسب الأعضاء، جيّد الفهم، حسن الحديث، صحيح

---

[1] أسعد بن المطران: بستان الأطبا وروضة الألبا 41/و. والكتاب (رسوم التعاليم لأبي محمد عبيد الله بن أحمد الرازي): ذكره الطهراني في الذريعة إلى تصانيف الشيعة تحت رقم 1419، قال: رأيت النقل عنه في مجموعة مؤلفة في حدود المائة الرابعة، فيها حكاية حدوث المرض في 301 وتعداد ما تلف به. والمجموعة كانت ناقصة، تمم نقصها في 577 هـ، رأيتها في الخزانة الغروية، وفيها تراجم كثير من الأطباء والنقل عن جملة من الكتب الطبية القديمة، ومنها .... (ج11/ 228). والجدير بالذكر أن هذا الكتاب لم يذكر في غير ما أوردنا من كتب التراجم، ولم نجد ترجمة لمؤلفه أيضاً غير ما ذكرنا.

الرأي عند المشورة، عفيفاً شجاعاً، غير محبّ للفضّة، مالكاً لنفسه عند الغضب، ولا يكون تاركاً له في الغاية، ولا يكون بليداً ".[1]

نلحظ في الوصية السابقة أمرَيْن مهمَّيْن؛ الأمر الأول السن الواجب أن يبدأ فيها متعلّم الطبّ، بأن يكون حديث السنّ، فبعض من الأطباء يبدؤون في سنّ متأخرة فيكون التحصيل لديهم ليس بمستوى من بدأ في سنّ مبكرة، وهو ما ينطبق على كافّة العلوم، والمثل القائل " العلم في الصغر كالنقش على الحجر". والأمر الآخر ـ فضلاً عن جميع الصفات الواجب توفرها في متعلّم الطبّ ـ بأن يكون مالكاً لنفسه عند الغضب، ولا يكون بليداً، فلا يحزم الأمور التي هي من مصلحة المريض في السيطرة عليه من الناحية الطبّيّة حتى لا تضيع الثقة التي وضعها المريض في طبيبه.

وكذلك يضع **علي بن رضوان** شروطاً يجب توفرها في معلّم الطب ومتعلّمه، فيقول: " ومعلّم هذه الصناعة ينبغي أن يكون قد تقدّم، فارتاض في مجالس العلم، ودخول البيمارستانات، ويكون شعاره في الناس اشتهاره بالحذق فيها، وبالعفاف والصيانة والصدق والأمانة، ويكون في زيّ الزهّاد والنسّاك، أو زيّ الملوك والسلاطين، على ما كان عليه من تقدّم عمره من الأطباء.

وسبيل متعلّم هذه الصناعة أن يتقيّد بهذه الخصال ويدمن اعتيادها إلى أن يتخلّق بها، وتصيرَ فيه ملكةً عسرة الزوال، وإذا تيقّن أنه قد علمها وعمل أعمالها فليكن غرضُه في ذلك كشفَ الكرب عن المرضى، فإنّه إذا فعل ذلك لم يعدم فائدة من المال، فإنّ جالينوس يقول: إنّ حاله كحال الأرض، إذا غُرس فيها غرسٌ أو بُذر فيها بذرٌ، فلا بدّ أن يخرج معه أشياء أخر، لم تكن مقصودة منه أوّل الأمر".[2]

هذا، **ولابن رضوان آراء شخصية في تعلّم الطبّ** ـ فهو الذي تعلّم الطبّ

---

[1] ينظر عيون الأنباء ص 47 ـ 53.

[2] ابن رضوان: النافع في صناعة الطب، الورقة 19/ظ ـ 21/ظ، نسخة تشستربتي 5019 و4026.

بنفسه، ولم يتعلّمه على معلّم، فيقول في الباب الأوّل من كتاب التطرّق إلى السعادة: " إمّا أن يجد المتعلّم معلّماً فاضلاً يتفهّم ما في كتب أبقراط، فيسرع بذلك تعليمه كما أسرع تعليم جالينوس، وإمّا أنْ يُعْدَمَ المعلّم الحاذق، فيحتاجَ أنْ يتعلّم لنفسه من كتب جالينوس، فيطولُ زمانُ تعليمه، ولأنّ صناعة الطب صناعة فاعلة لم يكن تعليمها خلواً من منازلة أعمالها الجزئية، فالمتعلّم لصناعة الطبّ ـ مع قراءته كتب أبقراط ـ تلزمه ضرورة أن ينازل بنفسه أعمالها الجزئية، وذلك يتمّ بمعاينة هذه الأعمال الجزئية بين يدي أفضل من تعلّم عليه من أهلها".[1]

ويقول أيضاً: المعلّم لصناعة الطبّ هو الذي اجتمعت فيه الخصال بعد استكماله صناعة الطبّ. والمتعلّم هو الذي فراسته تدلّ على أنّه ذو طبع خيّر، ونفس زكيّة، وأنْ يكون حريصاً على التعليم، ذكيّاً، ذكوراً لما قد تعلمه.[2]

ويروي ابنُ أصيبعة عن **عبد اللطيف البغدادي** قوله في سيرته: وكانت سيرتي في هذه المدّة أنني أقرئ الناسَ بالجامع الأزهر[3] من أوّل النهار إلى نحو الساعة الرابعة وسط النهار، يأتي من يقرأ الطبّ وغيره، وآخر النهار أرجع إلى الجامع الأزهر، فيقرأ قومٌ آخرون، وفي الليل أشتغل مع نفسي.[4]

الحضّ على نشر علم الطبّ لمستحقّيه

لم يكن أحد من الأطبّاء العرب والمسلمين ليمنع العلم عن مستحقّيه، أو أن يأخذه أنّى وجده، والقصص التي تُروى في ذلك كثيرة، منها ما ورد أنّ أبي البركات **هبة الله بن علي ملكا** (454 ـ 547هـ) الذي كان يهودياً قبل أن يُسْلِم؛ كان مبدأ تعلّمه صناعة الطبّ، أنّ أبا الحسن **سعيد بن هبة الله** (436 ـ 495هـ) شيخ أطبّاء العراق ـ كان من المتميّزين في صناعة الطبّ، وكان له تلاميذ عدّة

---

(1) عيون الأنباء ص564.

(2) المصدر السابق.

(3) بناه القائد جوهر الصقلي سنة 972م في أول عهد الفاطميين.

(4) عيون الأنباء ص689.

يتناوبونه في كلّ يوم للقراءة عليه، ولم يكن يقرئ يهودياً أصلاً، وكان أبو البركات يشتهي أن يجتمع به، وأن يتعلّم منه، وثقل عليه بكلّ طريق فلم يقدر على ذلك، فكان يتخادم للبوّاب الذي له، ويجلس في دهليز الشيخ؛ بحيث يسمع جميع ما يُقرأ عليه وما يجري معه من البحث. وهو كلّما سمع شيئاً تفهّمه وعلّقه عنده. فلما كان بعد مدّة سنة أو نحوها، جرت مسألة عند الشيخ، وبحثوا فيها فلم يتّجه لهم عنها جواب، وبقوا متطلّعين إلى حلّها، فلمّا تحقّق ذلك منهم أبو البركات، دخل وخدم الشيخ وقال: يا سيّدنا، عن أمر مولانا أتكلّم في هذه المسألة؟ فقال: قُلْ إنْ كان عندك فيها شيء! فأجاب عنها بشيء من كلام جالينوس، وقال: يا سيّدنا، هذا جرى في اليوم الفلاني من الشهر الفلاني، في ميعاد فلان، وعلق بخاطري من ذلك اليوم. فبقي الشيخ متعجّباً من ذكائه وحِرصه! واستخبره عن الموضع الذي كان يجلس فيه، فأعْلَمَه به. فقال: من يكون بهذه المثابة، ما نستحلّ أن نمنعه من العلم، وقرّبه من ذلك الوقت، وصار من أجلّ تلاميذه.[1]

وقال داود الأنطاكي في العلم: " لا تمنعه مستحقّاً لما فيه من إضاعته، ولا تمنحه جاهلاً بقدره لما فيه من إهانته، ولا تستنكف عن طلبه من وضيع في نفسه، لقوله عليه الصلاة والسلام: "الحكمة ضالّة المؤمن، يطلبها، ولو في أهل الشرك"[2]، ولا تخرجه عن قدره بأن تبذله لوضيع كما وقع في الطبّ، فإنّه كان من علم الملوك يتوارث فيهم، ولم يخرج عنهم خوفاً على مرتبته، حتى جاء أبقراط فبذله للأغراب، فحين خرج عن آل أسقليبيوس توسّع فيه الناس، حتى تعاطاه أراذل العالم كجهلة اليهود، فرذل بهم، ولم يشرفوا به، وهذا ـ لعمري ـ قول الحكيم أفلاطون حيث قال: الفضائل تستحيلُ في النفوس الرذلة رذائلَ كما يستحيل الغذاءُ الصالح في البدن الفاسد إلى الفساد.

---

[1] عيون الأنباء ص374. المغني في تدبير الأمراض ص17 ـ 18.

[2] الحديث في كشف الخفاء ج1 ص363 ــ (الحكمة ضالة المؤمن) وفيه زيادات متعددة فلتراجع.

ولعَمْري، قد وقع لنا مثل هذا؛ فإنّي حين دخلت مصرَ، ورأيت الفقيهَ، الذي هو مرجعُ الأمور الدينية، يمشي إلى أوضع يهوديّ للتطبب به، فعزمتُ على أنْ أجعله كسائر العلوم، يدرس ليستفيدَه المسلمون. فكان في ذلك وبالي ونكدُ نفسي وعدمُ راحتي من سفهاء لازموني قليلاً، ثم تعاطوا التطبّب فضرّوا الناس في أبدانهم وأموالهم وأنكروا الانتفاع بي ". [1]

كيف أذاع أبقراطُ الطبَّ بين اليونانيين وإنْ لم يكونوا من نسل أسقليبيوس:

أبقراط[2] هو السابع من الأطباء الكبار المذكورين، وأوّلهم أسقليبيوس. وأبقراط هو من أشرف أهل بيت أسقليبيوس، وأعلاهم نسباً، وكانت مدّة حياة أبقراط خمساً وتسعين سنة؛ منها ستُّ عشرة سنة كان فيها صبيّاً متعلّماً، وتسعٌ وسبعون سنة كان فيها عالماً معلّماً.

ولما نظر أبقراط في صناعة الطبّ خافَ عليها أن تنقرض، وذلك عندما رأى أنها قد بادت من أكثر المواضع التي كان أسقليبيوس الأول أسّس فيها التعليم. وكانت المواضعُ التي يُتعلّم فيها الطبُّ ثلاثةً: أحدها في مدينة رودس (جزيرة في البحر من الثغور الشامية)، والآخر بمدينة "قو" (Cos جزيرة صغيرة تقع في الجنوب الغربي من الأناضول، في بحر إيجة أشهر رجالها أبقراط)، والثالث بمدينة "قنيدس" (Cnidus مدينة قديمة تقع في منطقة يقال لها Caria تقع في الجنوب الغربي من الأناضول).

---

(1) تذكرة داود ص11 ـ 17.

(2) تفسير اسم ابقراط معناه ضابط الخيل، وقيل معناه ماسك الصحة، وقيل ماسك الأرواح. وأصل اسمه باليونانية إيفوقراطيس، ويقال هوبقراطيس، وإنما العرب عادتها تخفيف الأسماء واختصار المعني، فخففت هذا الاسم فقالوا أبقراط وبقراط أيضاً. وقد جرى ذلك كثيراً في الشعر ويقال أيضاً بالتاء أبقرات وبقرات. وهو الفاضل من أهل أسقليبيوس، كان مسكنه **مدينة قُوْ، وهي مدينة حمص من أرض الشامات**. (ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص48، ابن جلجل: طبقات الأطباء ص16. وهنا يؤكد جلياً أن أبقراط هو السابع هو من نسل أسقليبيوس، وبذلك **يكون أسقليبيوس تلميذ هرمس الثالث المصري**.

فأمّا التعليم الذي كان بمدينة رودس فإنّه باد بسرعة لأنّه لم يكن لأربابه وارث. وأمّا الذي كان منه بمدينة قنيدس فطُفئ، لأنَّ الوارثين له كانوا نفراً يسيراً. وأمّا الذي كان بمدينة قو، وهي التي كان يسكنها أبقراط، فثبت، وبقي منه بقايا يسيرة لقلّة الوارثين له.

ثم وضع أبقراط كتاب "العهود والأيمان" لعدّة أسباب، منها هذا القول، قال جالينوس: "إن الذي قد كان فيما تقدّم من معلمي الطبّ آل أسقليبيوس عهود وأيمان تمنعهم من تعليم صناعة الطبّ إلا لأحد أجلاّء أولادهم".

فلما أحبّ أبقراط أن يذيعها في جميع الناس، كيلا تبيد، ولئلا يُظَنّ أنّه قد أخطأ فيما بينه وبين ربّه جعل المتعلّمين للطبّ أبناء له بما عقد في رقابهم من الأيمان". وبيان ذلك في قوله: "وأرى أن المعلم لي هذه الصناعة بمنزلة آبائي والجنس المتناسل منه مساوٍ لإخوتي". قال جالينوس: "فبعد أن **جعل المتعلمين للصناعة أبناء**،[1] علّمهم إيّاها من غير أن يكون في ذلك على ذمّ وخطأ فيما بينه وبين الله تعالى".

وكانت صناعة الطبّ قبل أبقراط كنزاً وذخيرة يكنزها الآباء ويدخرونها للأبناء، وكانت في أهل بيت واحد منسوب إلى أسقليبيوس، وهو أوّل من علّم صناعة الطبّ، ونسب المتعلم الأول إليه على عادة القدماء في تسمية المعلّم أباً للمتعلم. وتناسل من المتعلّم الأول أهلُ هذا البيت، المنسوبون إلى أسقليبيوس. وكان ملوك اليونانيين والعظماء منهم، ولم يكونوا يمكّنوا غيرَهم من تعليم صناعة الطبّ، بل كانت الصناعة فيهم خاصّة، يعلّم الرجلُ منهم ولدَه أو ولدَ ولدِه فقط، وكان تعليمهم بالمخاطبة، ولم يكونوا يدوّنوها في الكتب، وما احتاجوا إلى تدوينه في الكتب دوّنوه بلغز حتى لا يفهمه أحدٌ سواهم، فيفسر ذلك اللغز الأبُ للابن. وكان الطبّ في الملوك والزهّاد فقط، يقصدون به الإحسان إلى الناس من غير أجرة ولا شرط.

---

[1] وهذا ما يجب أن يتميز به كل معلم، بحيث يكون كل تلميذ كأحد أبنائه، فيكون تعليمه صادقاً.

ولم يزل كذلك إلى أن نشأ أبقراط من أهل قو، ودمقراط من أهل أبديرا، وكانا متعاصرين، فأمّا دمقراط فتزهّد، وترك تدبير مدينته، وأمّا أبقراط فرأى أهلَ بيته قد اختلفوا في صناعة الطب، وتخوّف أن يكون ذلك سبباً لفساد الطبّ، فعمد إلى أن دونّه بإغماضٍ في الكتب. وكان له ولدان فاضلان، وهما ثاسلس وذراقن، وتلميذٌ فاضل وهو فولوبس، فعلّمهم هذه الصناعة، وشعر أنّها قد تخرج عن أهل أسقليبيوس إلى غيرهم، لّما وجدها قد كادت تبيد لقلّة الأبناء المتوارثين لها من آل أسقليبيوس، فرأى أن يذيعها في جميع الأرض، وينقلها إلى سائر الناس، ويعلّمها المستحقّين لها حتى لا تبيد، وقال: "إن الجود بالخير يجب أنْ يكون على كلّ أحد يستحقه قريباً كان أو بعيداً". واتخذ الغرباء، وعلّمهم هذه الصناعة الجليلة، وعهد إليهم العهد الذي كتبه، وأحلفهم الأيمان المذكورة فيه أن لا يخالفوا ما شرطه عليهم، وأن يكون لازماً للطهارة والفضيلة، وأن لا يعلّموا هذا العلم أحداً إلا بعد أخذ هذا العهد عليه. ثم وضع ناموساً عرّف فيه من الذي ينبغي له أن يتعلّم صناعة الطبّ، ثمَّ وضع وصيَّةً عرّف فيها جميع ما يحتاج إليه الطبيب في نفسه.(1)

ومع هذا فقد بقي بعضٌ مِمَّن له رأي بأن يكون متعلّم الطبّ من عائلة فيها أحد أبويه كان طبيباً، وفي ذلك يدافع عن هذا الرأي **إسحاق بن علي الرهاوي** بقوله في صفات متعلّم الطبّ في خَلقه وأخلاقه: " من المشهور أن اليسير من علم صناعة الطبّ تضرّ، ولا تنفع، وذلك لأنّ أصغر فروعها متشبث بأعظم أصولها، بل مشتبك بجملة أصولها، وليست كسائر الصنائع التي من تَعلّق منها بأصل أو فرع لم يتعلق ذلك بغيره، فهو لذلك ينتفع، وينفع الناس بما يعلمه، ولا يلحقهم ممّا جهله ضررٌ. ومثال ذلك صائغٌ عَلِمَ من الصياغة عَمَلَ خاتم، فهو دائماً يعملُ خواتيم، ولا يضرّه ولا يضرّ غيره جهله بعمل الإسورة مثلاً، فلذلك قال أبقراط: "الصناعة طويلة". ولذلك يجبُ أن يكونَ ملتمسُ هذه الصناعة من أولاد أهلها، قد عني أبواه بتقويم مزاجه، وأخذاه بالعادات المحمودة في تدابيره وإصلاح أخلاقه،

(1) عيون الأنباء ص43 ـ 61. الرهاوي: أدب الطبيب ص237.

وبتلقينه وتبصره، ليكون بذلك معدّاً للتعليم بأيسر سعي. فأما ملتمسُ هذه الصناعة من أبناء أهلِ الصنائعِ الأخرى فيكدّ، وما ينجح في تعلّمها، لأن النجّار والحدّاد والدبّاغ والحائك مثلاً كلّ واحد منهم منصرف إلى صناعته، لا خبرةَ له بصناعة الطبّ، فيلقن ولده من أصولها ما يلَقّنه الطبيب لولده ليله ونهاره، فإذَنْ المقوَّمون الذين قد راضهم آباؤهم من أهل صناعة الطبّ هم الذين يصلحون لتعلّمها، لا كلّ من التمس تعلّمها، كما قال جالينوس: "كما لا يصلح اتخاذ التمثال من كلّ حجر، ولا يُنتفع بكلّ كَلْبٍ في محاربة السباع، كذلك أيضاً لا تجدُ كلَّ إنسان يصلحُ لقبول صناعة الطبّ، لكنّه ينبغي أنْ يكون البدن والنفس ملائمين لقبولها"[1]

هذا، وإن **قول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ** : " إنّ الله لم ينزل داءً إلا وله دواء"، يقتضي تحريك الهمم وحثّ العزائم على تعلّم الطبّ. وقال الشافعي: لا أعلم علماً بعد الحلال والحرام أنبلَ من الطب، وكان يتلهّف على ما ضيّع المسلمون من الطبّ، ويقول: ضيّعوا ثلثَ العلم، ووكلوه إلى اليهود والنصارى، وكان يقول: إن أهلَ الكتاب قد غلبونا على الطبّ، وكان الشافعي مع عظمته في علم الشريعة وبراعته في العربية بصيراً بالطبّ.[2]

فضل الخليفة عمر بن عبد العزيز في نشر علوم الطبّ

تفخر محافظة إدلب في شمال سورية بأن تضمّ بين حناياها ضريح خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ في قرية دير شرقي التي تبعد عن مدينة إدلب حوالي أربعين كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي قرب معرة النعمان، هذا الخليفة الذي شمل عدله البلاد، ودام بين (99 ـ 101هـ).

---

[1] الرهاوي: أدب الطبيب ص236.

[2] الذهبي: الطب النبوي ص125.



مدخل وقبة الضريح[1]

أما فضله في نشر علم الطبّ فيعود إلى أمرين ؛ أولهما من خلال إخراجه أوّل كتاب عربيّ في الطب ، وثانيهما نشر العلوم كافّة حين نقل التدريس من الإسكندرية إلى أنطاكية وحرّان.

---

[1] نقش على هذا الحجر في مدخل الضريح : هنا ضريح الإمام العادل والخليفة الراشد والحاكم الزاهد أمير المؤمنين أبو حفص عمر بن عبد العزيز ـ رضوان الله عليه ـ توفي سنة 101هـ. ... زاره هنا السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة 584هـ.

أما أول كتاب عربيّ في الطب؛ فهو بالأصل كنّاش[1] في الطبّ يتألّف من ثلاثين مقالة باللغة السريانية، كان قد كتبه أهرُن القسّ، من أهل الإسكندرية، الذي امتد به العمر إلى صدر الدولة العباسية.[2] ثم أمر الخليفةُ الأموي مروان بن الحكم (64 ـ 65هـ) الطبيبَ ماسرجويه البصري[3] ـ الذي كان معاصراً له ـ بترجمة الكتاب من السريانية إلى العربية، فترجمه وزاد عليه مقالتين.[4] [5]

ولمّا تولّى الخلافة عمر بن عبد العزيز سنة (99/هـ/717م) وجد هذا الكتاب في خزانته ـ وهو أوّل كتاب في الطب نُقل إلى العربية ـ أمر بإخراجه، وبثّه في أيدي الناس لينتفعوا به بعد استخارة لأربعين يوماً. ويُعَدُّ ابن جلجل أوّلَ من دوّن هذا الفضل للخليفة عمر بن عبد العزيز من خلال النصّ الذي تلقّاه سنة 359هـ شفاهاً، من أحد أحفاد عيسى بن مزاحم الذي كان مولى الخليفة عمر بن عبد العزيز، وهذا الحفيد هو " أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز[6] بن إبراهيم بن عيسى بن مزاحم" ـ وذلك في مسجد القرموني[7] ـ المعروف بابن القوطية (توفي 367هـ) من أهل قرطبة، وأصله من إشبيلية، ثم انتقل إلى الأندلس وأنسل بها، ومنه عرف أبناؤه وأحفاده هذا الخبر، وعن ابن جلجل نقله المؤرخون وأثبتوا أنه مصدره.

---

[1] كناش: الأوراق تجعل كالدفتر تقيد فيها الفوائد والشوارد.

[2] الفهرست ص466.

[3] ماسرجيس (كان حيّاً سنة 99هـ) ينظر أعلام الحضارة ج1 ص40.

[4] عيون الأنباء ص 232.

[5] وثمة رواية أخرى للقفطي (ت646هـ) في "إخبار العلماء بأخبار الحكماء" تقول: إن ماسرجويه البصري تولى لعمر بن عبد العزيز ترجمة كتاب أهرن القسّ في الطبّ، بيد أن الرواية الأولى هي الأصحّ، وهي رواية ابن جلجل؛ سليمان بن حسان سنة 377هـ، والتي أوردها القفطي أيضاً. ينظر القفطي: إخبار العلماء ص213.

[6] هو غير عمر بن عبد العزيز الخليفة، بل هو من أحفاد مولى الخليفة عمر بن عبد العزيز ـ عيسى بن مزاحم.. ينظر الأعلام ج6 ص311، وطبقات الأطباء ص62.

[7] نسبة إلى قرمونة مدينة بالأندلس في الشرق من إشبيلية.

وهذا نصّ ما أورده سليمان بن حسان الأندلسي المعروف بابن جلجل في كتابه "طبقات الأطباء والحكماء" الذي ألّفه سنة 377هـ، وذلك في معرض ترجمته لماسرجويه، قائلاً: " **ماسَرجويه كان يهوديَّ المذهبِ سريانياً، وهو تولّى في الدولة المروانية تفسير كتاب أهرُن بن أعين القسّ إلى العربية، ووجده عمر بن عبد العزيز في خزائن الكتب، فأمر بإخراجه ووضعه في مُصَلّاه، فاستخار الله في إخراجه إلى المسلمين للانتفاع به، فلما تمّ له في ذلك أربعون صباحاً أخرجه إلى الناس، وبثّه في أيديهم. حدّثني أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز[1] بهذه الحكاية في مسجد القرموني سنة تسع وخمسين وثلاثمائة**".[2]

وقد اهتم العلماء والمشتغلون بتاريخ العلوم بهذا النصّ، لأهميته في تاريخ العلم، ولدلالته على قدم الترجمة، ووجود خزائن للكتب في صدر الدولة الإسلامية.

فضلُه أيضاً في نقل التدريس إلى أنطاكية وحرّان

لم ينته فضلُ الخليفة عمر بن عبد العزيز عند إخراج كتاب الطبّ وبثّه في أيدي الناس، بل طال فضله أيضاً بأن نقل التدريس من مدرسة الإسكندرية إلى أنطاكية وحرّان، وتفرّق في البلاد. وفي مدرسة الإسكندرية هذه كان الطبيب العالم عبد الملك بن أبجر الكناني (كان حياً سنة 99هـ) المتولي التدريس في هذه المدرسة في عصرها الأخير قبل الفتح الإسلامي سنة (19هـ) وكان في أول عهده يقوم بتدريس الطبّ فيها على أساس ملخصّات كتب جالينوس. وابن أبجر كان عالماً نحريراً، وكان في أيام بني مروان، وكان مسيحياً، وأسلم على يد عمر بن عبد العزيز، وهو أمير قبل الخلافة، ثم أصبح طبيبه عندما تولى الخلافة من سنة (99 ـ 101هـ)،

---

(1) هو ليس ابن عمر بن عبد العزيز الخليفة، بل هو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم بن عيسى بن مزاحم ـ كما أوردنا سابقاً. ونكرر ذلك منعاً للالتباس.

(2) ابن جلجل: طبقات الأطباء ص61.

وعن ابن أبجر هذا أخذ مريانوس الراهب علم الكيمياء الذي أخذه عنه بدوره خالد بن يزيد بن معاوية.[1]

إنّ النصّ الذي ورد عن انتقال التدريس من مدرسة الإسكندرية إلى أنطاكية وحرّان وتفرّقه في البلاد مهمّ جدّاً أيضاً، وكان ذلك بفضل الخليفة عمر بن عبد العزيز، وقد ذكره العديد من المؤرّخين، منهم؛ الفارابي (المتوفى سنة 339هـ) والمسعودي (المتوفى سنة 345هـ)، وابن أبي أصيبعة (المتوفى سنة 668هـ) وابن فضل الله العمري (المتوفى سنة 749هـ).[2]

ومن المخطوطات النادرة التي وجد فيها هذا النصّ أيضاً مخطوط للطبيب **علي بن رضوان** (388 ـ 460هـ) بعنوان "النافع في تعليم صناعة الطب" ـ ولعله أول كتاب في تعليم الطب عند العرب، حيث ورد في معرض حديثه عن مدرسة الإسكندرية ما نصّه:[3]

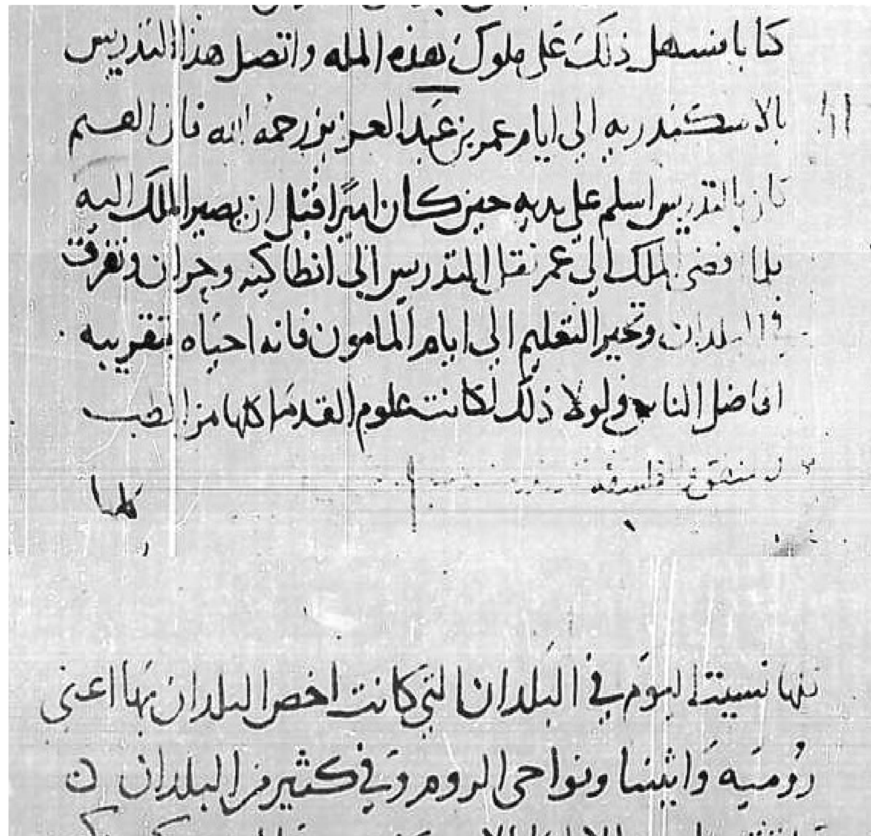
"... واتصل هذا التدريس بالإسكندرية إلى أيام عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله، فإنّ القيّم بالتدريس كان أَسْلَمَ على يديه حين كان أميراً قبل أن يصير المُلْكُ إليه، فلما أفضى المُلْكُ إلى عُمَرَ نقل التدريس إلى أنطاكية وحرّان، وتفرّق في البلدان، وتحيّر التعليمُ إلى أيّام المأمون فإنّه أحياه بتقريبه أفاضل الناس، ولولا ذلك لكانت علومُ القدماء كلّها من الطبّ والمنطق والفلسفة قد اندرست، وفيها الناس كلّها نسيت اليوم في البلدان التي كانت أخص البلدان بها ـ أعني رومية وأثينا ونواحي الروم وفي كثير من البلدان...".

---

[1] عيون الأنباء ص171. ابن جلجل: طبقات الأطباء ص59.

[2] ينظر عيون الأنباء ص 171، 604. طبقات الأطباء ص59. والمسعودي: التنبيه والإشراف طبعة القاهرة 1938 ص105. والعمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، طبعة مركز زايد في الإمارات سنة 2001م، ج9 ص233.

[3] النافع في تعليم صناعة الطب، الورقة 22/ظ ـ 23/و.



كما باتسهل ذلك على ملوك هذه الملة واتصل هذا التدريس
بالاسكندرية الى ايام عمر بن عبد العزيز رحمه الله فان القيم
كان بالتدريس اسلم على يديه حين كان اميرا قبل ان يصير الملك اليه
فلما فضى الملك الى عمر نقل التدريس الى انطاكية وحران وتفرق
في البلدان وتحير التعليم الى ايام المامون فانه احياه بتقريبه
افاضل الناس ولولا ذلك لكانت علوم القدماء كلها من الطب
كلها

كلها نسيتها اليوم في البلدان التي كانت اخص البلدان بها اعني
رومية واثينا ونواحي الروم وفي كثير من البلدان

صورة النص في مخطوط النافع في تعليم صناعة الطب

الفصل الحادي عشر
علاقة الطبيب بذوي المريض وعوّاده
والتعامل مع الأطفال

إنّ من أهم خطوات المعالجة هو التمريض، ومعلوم في عصرنا أن الكادر التمريضي له أهمية كبرى في متابعة علاج المريض، ومتابعة التعليمات التي يرسمها الطبيب في معالجة المريض، وبعد العمليات الجراحية، وهو ما كان في الزمن القديم يقوم به خدمُ المريض، وممّا يجبُ على الطبيب أن يوصي به خدم المريض ما قاله الرهاوي في ذلك: " إذا كانت الضرورة تدعو في معالجة المرضى إلى من يخدمهم، لعجزهم عن خدمة نفوسهم، ولأنّ الطبيب لا يمكنه خدمتهم على الكمال، فقد يجبُ أنْ يكون لهم من يقومُ بمصالحهم الموافقة لعلاج الطبيب، وتدبيره للمريض، ولأنّ خادم المريض لا يمكنه علم ذلك إلا من الطبيب، فلذلك يجبُ على الطبيب أنْ يتقدّم إلى الخادم بما يحتاج إليه وقتاً بوقت[1]، ويجبُ أيضاً على الطبيب أن يتفقّدَ على الخادم حسن طاعته له.

والخادم يحتاجُ أن يكون عاقلاً أديباً شفيقاً، له دُرْبة وتبحّر بالأعمال الموافقة للمريض، ويحتاجُ أن يكون له هيبة على المريض، ومتى لم تكن هذه أوصافه دخل الضرر على المريض في نفسه، وعلى الطبيب في صناعته من المرضى، وأما ما

---

[1] وهذا ما يدون حالياً في إضبارة المريض.

يدخل من الضرر من جهة رداءة الأمانة والدين فهو عظيم أيضاً، لأنّ القليل الأمانة من الخدم قد يدعوه شرهه ورغبته إلى هلاك المريض، إما بما يبذله له المريض نفسه ليبلغ شهوته، أو بما يبذله له أعداؤه.

ومن المرضى من لا يمكنهم تعريفُ الطبيب ما يجدونه، إمّا لأجل المرض في نفسه، كأصحاب السكتة والسرُسْام (التهاب السحايا والدماغ) ونظائرهم، أو لأن المريض طفل لا يعقل، أو أعجمي، أو أخرس، وأمثال هذه الموانع، فلذلك يحتاج الطبيب إلى معرفة حالات هؤلاء ممن يخدمهم ".[1]

وفي ذلك قال الرازي: إنّه ربما يقع بالإنسان من العلل المستحى منها ما يحتاج الطبيب أن يأمر بعلاج في ذكره كراهة ــ مثل الشيافات والحقن، فإذا لم يكن الطبيب مُقَرّباً تمنعه الحشمة أو الجبن أن يشير عليه بذلك العلاج.[2]

ولصاعد بن الحسن تعليمٌ في ذلك أيضاً، وهو قوله: ويقابله ويسمع كلامه، وينصت له، ولا يقنع بقوله حتى يستشهد عليه بقول من يخبر أمره وتدبيره، فإنّه ربما استحى أو فزع، وربما كان العليل لا يحسن أن يعبّر عمّا يجد، إمّا لسوء تصرّفه في العبارة، أو لغموض العلّة.

ويجب على الطبيب أن يوصي المتولّي لخدمة المريض كيف يعطيه دواءه وغذاءه، ومقدار كلّ واحد منهما، وزمانه، وغير ذلك من سائر تدابيره. كما يجب على الطبيب أنْ يأمر بوضع المريض في المكان المناسب أكثر لعلاجه، من نظافة وهواء نقي وغيرها.[3]

أمّا في آداب عوّاد المريض، فمن هدي النبي محمد ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ قوله: " تمام عيادة المريض أن يضع أحدُكم يده على جبهته، ويسأله كيف هو"[4]

---

[1] الرهاوي: أدب الطبيب، ص168.

[2] الرازي: أخلاق الطبيب ص47 ـ 48.

[3] صاعد: التشويق الطبي، الورقة 21/ظ.

[4] الذهبي: الطب النبوي ص176.

ومن هديه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أيضاً قوله : " ثلاثة لا يُعادون ؛ صاحبُ الرمد ، وصاحبُ الضرس ، وصاحبُ الدمامل ".[1]

وقد ذكر الأطباءُ العرب والمسلمون العديدَ من الأمراض التي يجب أنْ لا يُعاد فيها المريض ، مع شرحهم للأسباب الداعية لذلك ، فمنهم الرهاوي الذي قال : يجب أن لا يعاد من أصابه الوسواس والسكتة وما جانسهما ، بل يسأل عن حالاتهم فقط.

ومن الأمراض التي تقلقُ المريضَ ، ولا يمكن معها عيادته ، كتواتر خروجهم ، أو تغير روائح قد تصدر عنهم ، فهؤلاء قد يلحقهم مكروه من صبرهم على ما يحركهم على الخروج ، من براز وقذف وغير ذلك.

ومن الأمراض الحادة السريعة التي تستوجب مبادرة في التدابير من الطبيب ومن خدم المريض ، فيجب أن لا يعود المريض أحدٌ إلا من يخدمه فقط.

ومن الأمراض أيضاً ما يبعث المريض على قول ما لا يريده ، وأيضاً على أفعال لا تصلح ، كالذي يعرضُ كثيراً لكثير من أصحاب السوداء ، ومن حدث بهم ضروبٌ من المالنخوليا ، فلا وجه لعيادة هؤلاء[2]. فكم عائدٍ قد خرقت ثيابه فضلاً عن الشتيمة.[3]

هذا ، وقد وضع الأطباء القدامى شروطاً يجب اتّباعها في عيادة المريض ؛ من الملبس ، وطريقة الجلوس ، إلى غير ذلك من التوصيات التي نراها في قول الرهاوي أيضاً : " وأما في حال عيادة المريض فينبغي على العائد أولاً ألا يطيلَ الجلوس عند المريض ، ولا يدخلَ إليه إلا بثوب نقيّ ، ورائحةٍ طيّبة ، لتقوى بذلك نفسُه وتحرّكه وتسوقُه إلى التشبه به ، ولا ينبغي لأهل الصنائع الرديئة أن يعودوا المرضى ، لئلا

---

[1] الذهبي : الطب النبوي ص176. العجلوني : كشف الخفاء ج1 ص323.

[2] وهذا ما ينطبق أيضاً على المرضى بعد العمليات الجراحية ، وهم ما يزالون تحت تأثير المخدر ، أي أنهم في حالة اللاوعي.

[3] الرهاوي : أدب الطبيب ، ص171.

يضرّوهم بروائحهم، ويفسدوا عليهم الهواء، كبائعي الكبريت والقطران، والدباغ والقصاب وغيرهم، ولا ممّن تَعْلَقُ بهم الروائح الرديئة، فالأنفع للمريض ألا يعوده هؤلاء وأمثالهم.

وقال جالينوس: إنّه ينبغي أن يطيل اللبث عند المريض من عواده أصدقهم إليه، وأقربهم إلى قلبه، فأما غيرهم فالتدبير فيهم أحد أمرين؛ إما ألاّ يدخلوا إليه أصلاً، أو أن لا يراهم طويلاً.

وينبغي للطبيب أن يسأل أهل بيت المريض عن الأشياء التي كان يلتذّ بها، فيأمر بإدخالها عليه إلى البيت الذي فيه المريض، ولا يخبره بما يغمّه من خبر تجارة خسرت، له منها سبب، ولا يَذكرُ بحضرته ذِكْرَ ميت ولا خبراً رديئاً لمريض آخر.

ولا ينبغي للعائد أن يستخبرَ عن مرضه استخبار متقصٍّ، فإنّ ذلك لا ينفع المريضَ من العائد إلا أنْ يكون طبيباً، ولا ينبغي له أيضاً أن يشيرَ عليه بدواء ولا بغذاء، فيضرّ به، ويفسد على الطبيب عمله، وربما كان ذلك سبباً لهلاك المريض". [1]

قال الذهبي في الطبّ النبوي: [2] " ويجوز لأهل المريض أن يسألوا عنه الطبيب، وكان عليٌّ حين خرجَ من عند النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في مرضه، يُسأل عنه فيقول: أصبح بحمد الله بارئاً".

وثمة خطأ يقع فيه كثير ممن يتوهّمون أنهم يعرفون شيئاً عن علم الطب، فيعارضون الطبيب بوجود المريض، أو يبدون رأياً في العلاج ـ بدون دراية ـ وهذا مما يوقع الشكّ في نفس المريض، وقد حذّر منه الرهاوي أيضاً بقوله: " ولا ينبغي للعائد أن يعارضَ الطبيب بحضرة المريض متى لم يكن من أهل العلم، فيوقع له الشكّ فيما وصفه الطبيب، كالذي رأيته من بعض المشايخ وذوي النبل عند نفوسهم، وقد حضر عند مريض كنت أدبّره، فبدأ يسائل المريضَ عن حالاته،

(1) الرهاوي: أدب الطبيب، ص172.

(2) الذهبي: الطب النبوي ص177.

وحال دوائه وغذائه في مساءِ يومه الذي كنّا فيه، ثم حضرتْ قارورتُه، فتكلّم، وأنا في جميع ذلك ساكت، ليحسَّ بسوء أدبه، فما انتبه لذلك، بل وصفَ دواءً، فلما فرغ من وصفته، قمتُ منصرفاً، فقال لي المريض: تقوم وما وصفتَ لي شيئاً، ولا سمعتُ منك يومي هذا كلّه، قلت: صدقتَ وكذا يجب، قال: ولم؟ قلت: أولاً فلأنَّ هذا الشيخ قد ناب عني، وما بقي لي شيء أقوله، والثانية: لأنّك قنعت بذلك، وأصغيت إليه فلا وجه لكلامي. فأمّا الشيخ فإنّه خجِل، وما عاد إلى مثل ذلك، وكذلك المريض اعتذر، فتأدّبا جميعاً بذلك وجميع من كان بالحضرة ومن سمع أيضاً.[1]

ولهذا، فقد حذّر الرهاوي المريضَ من هؤلاء العوّاد، وما ينبغي أن يعمله المريض معهم، فقال: من العادات المذمومة ما قد جرت عليه عادات كثير من الناس عند مساءلتهم للمرضى، إذا عادوهم، عن أحوالهم، أن يتبعوا ذلك بالمساءلة عن أمراضهم، حتى إن من العوّاد للمريض من يبحث، ويستخبر عن علامات المرض وأسبابه، كأنه طبيب ذلك المريض، وليس ذلك لأنّه طبيب، ولا لأنّه يعلم من الطبّ شيئاً، ولكن ليوهم من حضر أنّه عالم، لا يخفى عليه شيء، ولعمري، إنَّ من حضر من العقلاء بذلك يستدلّ على جهله، وسوء عقله، إذ يسأل عمّا لا يعنيه أمره، ويبحث عمّا لا يصل إليه بفكره.

وأقبح من هذه المساءلة للمريض، والبحث عن مرضه من عائده، ما رأيته من مسارعة كثير من العوّاد إلى وصف أدوية للمرضى وأغذية، وأنواع من التدابير يرسمونها ويرتّبونها لهم، حتى لا يكون بينهم في ذلك وبين الطبيب في الظاهر فرق البتة.

وفي ذلك يجب على المريض إذا عاده عائد ألا يجيبه عن كلّ سؤال يسأله، كما لا يجب أن يجيب كلّ سائل عن كلّ سؤال، وذلك أن من سأل عن مسألة هي محال فإنّه لا جواب له غير إفساد السؤال.

---

[1] الرهاوي: أدب الطبيب، ص173.

فلذلك وما أشبهه وجب ألا يجيب المريض عُوّادَه عن كل سؤال يسألونه عنه، ولا يشرح حال مرضه، ولا شيئاً من شكايته إلا لطبيبه، لأنه لا يرجو دفع ضرر، ولا اجتلاب نفع إلا من جهته. وكذلك يجب أن يفعل خدمُ المريض وأهله، ولذلك ينبغي للمريض إن أحسَّ من نفسه باضطراب، وخشي سوء تميزه، أن يوصي خدمه بكتمان حالاته إلا عن طبيبه، لأن كشفها لمن لا يعلم حالات مرضه، ومع ما ذكر من عادات العوّاد والعوام من الناس، التي قد جرت بغير احتشام، وهي مبادرة كلّ واحد منهم بوصف دواء أو تدبير يفسد على الطبيب تدبيره، وكثيراً ما يضرّ بالمريض، وربّما كان ذلك يسبب هلاكه.[1]

وقد يحتاج الطبيب أحياناً إلى استفسارات عمّا يتعلّق بالمريض، وذلك من ذوي المريض أو من يتولّى خدمته، لأنَّ كثيراً من المرضى غير قادرين على إخبار الطبيب بحالتهم، وذلك لعدّة أسباب تنضمّ في جنسين هما: جهل المريض بما يسأله عنه الطبيب، والآخر بما يعوقه عن الجواب.

وقد يحتاج الطبيب في أوقات إلى معرفة أشياء يضطر إلى معرفتها في علاج المريض، من غير أهل المريض، وذلك كطبيب غريب دخل إلى بلد لم يكن عنده معرفة بوضع ذلك البلد، ولا بهوائه، ولا بمياهه وأشباه هذه الأمور، فدعي لعلاج مريض، فبغير شكّ أن الضرورة تدعو إلى تعرّف هذه الأشياء من أطبّاء البلد وأهل الخبرة بها، إذ كان علمها لا يصحّ ولا يمكنه إلا بعد زمان طويل، وتقصّ شافٍ، إذ كان من الأمراض أمراض بلدية، وأمراض وافدة، وأمراض شخصية[2].[3]

وفي ذلك يقول الرازي: وإذا كان ممّن يقرأُ الكتبَ ويفهمها فينبغي أن ينظر هل شاهد المرضى وقلبهم، وهل كان ذلك منه في المواضع المشهورة بكثرة الأطباء والمرضى أو لا، فمن اجتمعت له هاتان الخُلّتان فهو فاضل.

---

[1] الرهاوي: أدب الطبيب، ص204.

[2] وهذا يدخل في مضمار علاقة الطبيب بالطبيب والتعاون معه في مصلحة المريض. ينظر الفصل الخاص بعلاقة الطبيب بالطبيب.

[3] عن الرهاوي: أدب الطبيب، ص184.

ويضطرّ الطبيبُ إلى مساءلة من هم أبعد من أهل البلد في بعض الأحايين، كمن أصابه في حرب سهم مثلاً، أو من استأمن، أو غيرهم ممن يخبر: هل سهامهم مسمومة أم لا؟ فيعمل بحسب ذلك.[1]

هذا ما كان من ضرر قد يجلبه عوّاد المريض عليه، بجهلهم، أمّا **الضرر الحاصل من بعض ذوي المريض كرهاً له**، فيروي لنا الرهاوي أحد القصص عن ذلك قائلاً: مريض كان بدأ بالتماثل إلى الشفاء من ذات الجنب، ثم فجأة أصابته حمى، وكان ذلك أنَّ أمَّ ولده أطعمته ما نهيتُه عنه، وعند إنكاري ذلك قالت: كأنكم تريدون من هذا — وهو رجل شيخ ـ أن يعيش؟ هذا لا يبرأ، وبان من كلامها أنها تريد الراحة منه.

فهذا وأمثالُه، كان أهلهم وخدمهم يتمنون موتهم، ويسرّون بأمراضهم، لما كانوا عليه من الشحّ وقبح المعاملة لهم، حتى إن بعض خدم هؤلاء وأهلهم كانوا يتعمدون بالمكاره، ولا يطيعون أطباءهم، بل يعملون بضد ما يقوله الطبيب، ويشير به.

وبغير شك أنه قد يخفى كثير من ذلك فيؤول الأمر إلى هلاك المريض، وسوء ذكر الطبيب، ولأجل ذلك ينبغي للطبيب ألا يهمل ذلك، بل يهتم بتفقده، وينبه عليه.[2]

ومما يخصّ الأطفال في هذا الفصل، ويجب على الطبيب أخذه بعين الاعتبار حين معالجتهم أن يتبع الوسائل النفسية في تدبيرهم، وأن يتودّد إليهم ويلاطفهم بكل حيلة يستطيعها ـ خاصّة في العمليات الجراحية؛ كما هو الحال في الختان مثلاً، ففي ذلك يستخدم الزهراوي الوسائل النفسية حين مباشرته العمل ـ خاصّة في الأطفال الأكبر سنّاً ـ حيث يقول في تطهير الصبيان: " ووجه العمل أولاً أن تُوْهِمَ الصبيّ، ولاسيّما إنْ كان ممّن يفهم قليلاً، أنّك إنّما تربط الخيط في إحليله فقط،

---

[1] مجلة المشرق ـ 54، سنة 1960م، الرازي ومحنة الطبيب، تحقيق أ.ز. إسكندر، ص495.

[2] عن الرهاوي: أدب الطبيب، ص202.

وتدعه إلى يوم آخر، ثم فرّحْهُ، وسرَّهُ بكلّ وجه يمكّنك ذلك منه، وبما يقبله بعقله، ثم تُوْقِفُه بين يديك منتصبَ القامة، ولا يكون جالساً، واخف المقص في كمّك أو تحتَ قدمك، لا تقعُ عين الصبي عليه البتّة، ولا على شيء من الآلات، ثم تدخل يدك إلى إحليله...". [1]



صورة المقص الذي كان يستخدمه الزهراوي في تطهير الصبيان

---

[1] الزهراوي في الطب لعمل الجراحين ص377. وبقية مراحل العمل هي تقنية جراحية، تراجع في الأصل.

الفصل الثاني عشر
اختيار الطبيب
والواجب تجاهه

إنّ أوّل ما يخطرُ ببال المريض وذويه ـ حين يصيبه أيّ مرض، هو السؤال عن الطبيب المناسب، وهو سؤال كثيراً ما يُسألُ عنه الأطباء من ذويهم وأصحابهم حين حاجتهم لطبيب في اختصاص معيّن، والجوابُ يكون بالتوجيه نحو الطبيب الأجدر والأحسن سمعة وخُلقاً. ولكن يبقى الطبيب الذي ينشرح إليه صدر المريض، وتطمئن إليه نفسه، وترتاح وتتوجه إليه هو الطبيب الأفضل. وبالمقابل فثمّة واجب يترتّب على العاقل من الناس، تجاه الطبيب الذي يعتقده ويثق به، وكتب الأطباء العرب زخرت قديماً في الإشارة إلى هذا الأمر.

فمن ذلك ما جاء على لسان **إسحاق بن علي الرهاوي** قائلاً: ينبغي أنْ يُتَفَقَّدَ من الطبيب ما يحسنُه وما منزلته من صناعة الطبّ، وينظر في ماذا أفنى عمره، وكيف سيرته. فإذا رآه من أهل صناعة الطبّ بالحقيقة فليعتقدْ فيه أنّه من أولياء الله، ومن المكرمين عنده، ولذلك وهب له هذه الصناعة، وخصّه بفضيلة سياسة أبناء نوعه، وجعله مصلحاً لنفوسهم، ومقوّماً لأخلاقهم، ومعدِّلاً لأبدانهم، وحافظاً عليهم صحتهم. هذا إذا كان طبيباً بالحقيقة أعني فيلسوفاً، وإذا اعتقد العاقل في الطبيب الفاضل أنّه من خواصّ البارئ ـ تبارك وتعالى ـ فقد وجبَ عليه إكرامُه في الظاهر، والمحبّةُ في الباطن، وإشراكُه في نعمه، والمسارعةُ لقضاء حوائجه، إذ كان بصلاح حالاته تصفو نفسه، وتصحّ له أفكاره، ويتوفر على

درس علم الطبّ، ويواظبُ على خدمتك في صحتك ومرضك، ولأنك ـ أيّها العاقل من الناس ـ دائماً تحتاج إلى حفظ صحّتك، إذ كانت الأسباب المغيّرة لها دائمة التأثير فيك، وأنت أيضاً غير آمن من حدوث الأمراض بك، فأنت دائماً تحتاج إلى من يعرفك كيف تحفظ صحّتك، وبماذا تحفظها، وكيف تتدبر في مرضك، وبماذا تعالجه، فإذن واجب ضرورة عليك أن تجعل أفضلَ أطبّاءِ بلدك لك، وإنك لتوجِبَ على نفسك بذلك قبولَ أوامره، وصديقاً لتلزم نفسَكَ الحياءَ منه، والإنصافَ له، ومعلّماً لتستفيدَ منه، وتحفظَ عندئذٍ صناعةَ الطبّ، والنافع لك من علمها، ويوجب عليه لك حقاً يخصّ التلميذ من معلّمه، وصلته أعظم من وُصْلة النسب والصداقة، وهي وصلة العلم والأدب اللذين بهما يصير الإنسان بالحقيقة إنساناً. فأعدّ لنفسك طبيباً موافقاً، واحفظه على نفسك بحسن العشرة والسيرة والكرم، ليكون لك عدّة للأوقات الصعبة.[1]

ويأتي بعده **محمود بن مسعود الشيرازي** ليُجْمِل شروط اختيار الطبيب في سطور تحمل زبدة الكلام في ذلك، بقوله: فإذا أردتَ أن تُخبَرَ طبيباً فاخبَر أولاً سيرته، وتأمّل طريقته، فإن وجدته فيهما مرضياً فاتخذه ولياً، وإن كان بخلاف ذلك ما تهواه فمِلْ عنه إلى ما سواه، وينبغي أن تعتمد على ممارسِ الأعلاّء، وصاحبِ الأطبّاء في زمان حداثته وسنّ شبيبته إلى وقت شيخوخته. وإذا وجدت من الأطباء من طالت حنكته، وكثرت تجربته، فقدّمه على من كان دونه. وإذا رأيت طبيباً أجمع أطباء العصر على تفضيله، واتّفقوا على تعظيمه وتبجيله، فلا تتخيّر عليه.[2]

ويستخلص داود الأنطاكي من قسم أبقراط ما جاء على لسان بعض شرّاح هذا العهد، في اختيار الطبيب، فيقول: ويجبُ اختيارُ الطبيبِ حسنِ الهيئة، كاملِ الخلقة، صحيحِ البنية، نظيفِ الثياب، طيّبِ الرائحة، يُسِرُّ من نظرَ إليه، وتُقبلُ

---

[1] الرهاوي: أدب الطبيب، ص190.

[2] الشيرازي: بيان الحاجة إلى الطب، ص80 ــ 84، عن حاشية أدب الطبيب للرهاوي، ص196.

النفسُ على تناول الدواء من يديه، وأنْ يُتقنَ بقلبه العلوم التي تَوَقُّفُ الإصابةِ في العلاج عليها، وأن يكون متيناً في دينه، متمسّكاً بشريعته، دائراً معها حيث دارت، واقفاً عند حدود الله ـ تعالى ـ ورسوله نسبته إلى الناس بالسواء، خلي القلب من الهوى، لا يقبل الارتشاء، ولا يفعل ما يشاء، ليؤمنَ معه الخطأ، وتستريحَ إليه النفوسُ من العناء. قال جالينوس: وهذه الزيادة منه بلا شكّ، ولا ريبة، فمن اتصف بهذه الأوصاف فقد صَلُحَ لهذا العلم، إذ هو صناعةُ الملوك وأهلِ العفاف.[1]

ومما يجب للمرضى والأصحّاء أن يعتقدوه بالطبيب، فضلاً عما ذكرناه في الواجب على العاقل من الناس تجاهه، هو ما يجب على جميع الناس ـ باختلاف طبقاتهم ـ تجاه الطبيب الذي يعتقدونه، وبعد أن تتحقّقَ الصفات المطلوبة في الطبيب، ويقنعَ به المريضُ وذووه، فالصحيح والمريض يجب عليهما القبول منه، وفي ذلك يقول الرهاوي: لّما كانت ذات الإنسان يجب أن تكون عنده أشرف أملاكه، وأشرف ما يملكه ويقتنيه لذاته هي الصحّة، والصحّة لا تثبت وتحفظ إلا بصناعة الطبّ، وجب لذلك أن يكون مقتني صناعة الطبّ عند العقلاء الأفاضل مؤثري الصلاح لذواتهم هو أشدّ الناس عندهم تقدّماً، وأرفعهم منزلة، وأجلّهم قدراً، وأصدقهم قولاً.

وأقول لمن قد اختبر طبيبه، وصحّ عنده فضله في صناعته، وثقته في أمانته، وإخلاصه الودّ والنصيحة لمن يريد تدبيره: إنّه يجب أن يستسلم في يديه، ويثقَ بقوله وعمله، ويتجنّبَ مخالفته، إذ كان قصوره عن فضله في صناعته دليلاً على بعده عن الصواب، ومَنْ عَجزَ عن الصواب فيجب أن يلتمسه من القادر عليه، ولا يعدل عن ذلك.

وإذا كان ذلك ممتنعاً على عامّة الناس فإنّ من أحمد الأمر للعوامّ والمتوسطين إذ كانت حاجتهم إلى الأطباء كحاجة الخواصّ إليهم، أن يسلكوا في اختيارهم هذا

---

[1] تذكرة داود ص17.

الطريق، وهو أن ينظروا إلى أفاضل زمانهم وأهل الثقة والعلم من أهل بلدهم، بمن يثقون، ولمن يمدحون، وعلى من يعتمدون، فيعتمدوا هم أيضاً عليهم، فيطيعوهم ولا يخالفوهم، ويتبع ذلك أيضاً أمرٌ هو أشهر وأبين لهم ممّا يختبرون به الأطباء، وذلك بأن يتفقّدوا ما يحكيه الثقات عن ذلك الطبيب في كثرة من عوفي على يديه، وحسن الثناء عليه، فإنّ في ذلك ما يدلّ على سعادته في نفسه، وبركته على المرضى، وعلمه بما يعمله، وإذا بانَ ذلك بعد الزمان الطويل فقد وجب ألا يُخالف ذلك الطبيبُ، ولأجل ما يقع من الأغاليط أو سوء الفهم والتحصيل من المرضى ومن يخدمهم فيهلك بذلك كثير من المرضى، فلذلك يجب أن يحذر الكلّ من ذلك، أعني الطبيب والمشاور له.

وكذلك أقول أيضاً لمن يريد الطاعة للطبيب أنّه يلزمه أن يتفقّد تحصيلَ الطبيب، لأنّ الرغبة والرهبة قد تغيرانه، وأيضاً: هل الطبيب آخذ نفسه بالقبول من أفاضل صناعته، وملتزم بواجباته، ومنتَهٍ عمّا يُنْهَى عنه؟ فإنْ وجد كذلك فليطعه، ويسلّمْ نفسه وجسمه في يديه، وإنْ وجده يأمرُ بما لا يفعله، فلستُ أشيرُ عليه بالاستسلام إليه، ولا بالطاعة له، إذ كَرِهَ طاعةَ الحقِّ، وأطاع لذّاتِه وهواه، فلذلك سقطت طاعتُه عنه.

ومن الوصايا التي ينبغي أن يتحفّظها، ويعملَ بها من وثقَ بطبيب، واعتمد على عمل لا يجوز في رأيه، وذلك بأن يشاور طبيباً غيره سرّاً منه، لأنّه لا يخلو الطبيبان من أن يكونا في صناعتيهما بمنزلة واحدة، أو أحدهما أفضل من الآخر، فإن اعتمد على الأدون فقد أخطأ إذ ترك الاعتماد على الأفضل، وإن اعتمد عليه ثم أراد رأياً مع رأيه ممّن هو دونه فذلك أشنع وأقبح، إذ جعل الناقص عياراً للتمام، ولست أمنع من مشاورة طبيبين، وثلاثة، وما فوق ذلك لمن أحبَّ مشاورتهم، ولكن يفعل ذلك من حيث يجمع بينهم، ليبحثوا عن الحقّ بعضهم مع بعض، ويشيروا بما يرونه صواباً على اتفاق منهم، فبذلك يسهل دركُ الحقِّ.[1]

---

[1] الرهاوي: أدب الطبيب، ص190 ـ 195.

وللرازي قولٌ من هذا القبيل، وهو: ينبغي للمريض أن يقتصر على واحد ممّن يوثقُ به من الأطباء، فخطؤه في جنب صوابه يسيرٌ جدّاً.

وقال: من تطبَّب عند كثيرين من الأطبّاء يوشكُ أن يقع في خطأ كلِّ واحد منهم.[1]

[1] عيون الأنباء ص420.

الفصل الثالث عشر
علاقة الطبيب والصيدلي

كما أنه لا غنى للناس عن الطب، فلا غنى للطبيب عن الصيدلي، ومسؤوليته لا تقلّ عن مسؤولية الطبيب، لا بل وأكثر؛ مثال ذلك إذا وردت وصفةٌ لصيدلي، وشكَّ بخطأ فيها، فعليه إعلام الطبيب بذلك، لتصحيحها، إلا إذا أصرّ، فلا مندوحة، أما أن يصرف الدواء، وفيه شكٌّ فهو المسؤول الأول، إذا لم يُعْلِم الطبيبَ بهذا الشكّ، كذا في القوانين والأنظمة النافذة عندنا حاليّاً.

هذا وللعلاقة الوثيقة بين الصيدلي والطبيب فلا تجعل أحدَهما يتجاوزُ إلى عمل الآخر؛ فالصيدلي مسؤولٌ عن التراكيب الدوائية وكمّياتها، والتقيّد بالجرعة التي يحدّدها الطبيب في الوصفة، وغير ذلك، والطبيبُ مسؤول عن التشخيص وإعطاء الدواء المناسب، وجرعته، أمّا الصيدلي ـ مع ما يمتلك من الأدوية لكلّ الأمراض ـ فإذا مرض هو أو أحد ذويه، يلجأ إلى الطبيب لوصف الدواء المناسب.

لكن هذا الشرف في العلاقة ما بين الطبيب والصيدلي، قد يشُوبه في بعض الأحيان تجاوزاتٌ كانت ولا تزال قائمة على مرّ الأزمان، ومن ذلك ما رواه **ابن رضوان** بقوله: " ولقد أنفذت عام أوّل غلامي إلى الصيادلة، وأمرتُه أن يشتري لي دواء، فجاءني بغيره، فرددته، وكتبت معه رقعةً باسم الدواء وصِفَتِه، فجاءني بآخرَ مراراً، كلَّ مرّة يرجع بدواء غير ما التمست، فلو كان غيري لاستعمل ما دفعه الصيدلاني كائناً ما كان.

وأمّا ما يجري من فساد الأدوية بتعمد وقصد فهو أعظم ضرراً ممّا يجري بغير قصد، وذلك أنّ من الصيادنة القليلي الأمانة من يخلط الدواءَ الغالي الثمن بدواء يشبهه قليل الثمن. ومنهم من يستحلُّ أن يعطي بدلَ الدواء دواءً، يشبهه في المنظر وإن ضادّه في الفعل، فيقتلون المرضى. وللدّهاة قليلي الدين منهم حِيَل في عمل أدوية تشبه أدويةً، بضروب من الحيل والتركيب لا أحصيها، ولا يصلح ذكر ما نعرفه منها، لئلا يتعلمه الأشرار.

ولذلك لا ينبغي لطبيب لم يكن خدم في الصيدنة[1] بين يدي حذّاقهم ومشايخهم أنْ يتولى شراءَ دواء من صيدناني قد طمع في أطباء، فدفع إليهم بدلَ دواء دواءً آخر، ولم يعلم ذلك الطبيب ".[2]

كما أكد الرهاوي أيضاً على الانتباه لطبيعة المادة الحافظة للأدوية، وهو أمرٌ مهمّ قلّما ينتبه إليه الكثيرون من صانعي الأدوية، فترى فعالية الدواء تنقص كثيراً بسبب عدم صلاحية المادة الحافظة للدواء، أو ما يدعى السواغ. فيقول: وكذلك يجب أن ينظر الطبيب في الفروق بين التراكيب، فإنّ ما عُجِنَ من الأدوية بالعسل كانت مدّته وعمرُه أطول، لأنّ العسل يحفظ قوى الأدوية ويعين الأدوية بإيصاله لها، وإنضاجه وحلاه، ما لا يوجد ذلك في أدوية أخرى من الأدوية الحافظة، وهذه الحافظة هي العسل والخلّ، والثلج أيضاً يحفظُ ما يجعل فيه، فأما ما عُجِنَ من الأدوية بالمياه كالحبوب والأقراص، فإنّ أعمارها قصيرة، لأنّ قواها وأفعالها تضعفُ سريعاً، فلذلك يجبُ أن يتفقّد الطبيبُ أمثال هذه الأشياء في النظر في أمر الأدوية.[3]

ثم يلفت الرهاوي الانتباه إلى سمعة صانع الدواء فيقول: ومع ما ينظر في أمر الأدوية وجواهرها وكمياتها وكيفياتها وأزمانها، فعليه أن ينظر إلى من هي منسوبة في عملها إليه، فإنّ من صنّاع الأدوية من هو مشهور بالثقة والأمانة.

---

(1) يقال: صيدلة، وصيدنة.

(2) ابن رضوان: النافع في كيفية تعلم صناعة الطب، مخطوط نسخة تشستربتي برقم 5019، الورقة 7/و.

(3) الرهاوي: أدب الطبيب، ص174 ـ 183.

ومع نظر الطبيب من أمر الأدوية وأمر باعتها وخُزّانها، فإن على الطبيب أن يحذّر الصيدناني من إعطاء النساء أدوية تسقط الأجنة وتدرّ الحيض، ممّا لم يأمره الطبيب بذلك، وينبغي للصيدناني أن يحذر إعطاء السموم لأحد غير الطبيب الثقة أيضاً.[1]

وللطبيب **صالح بن نصر الله الحلبي** المعروف بابن سلّوم (المتوفى سنة 1081هـ/ 1670م) شرائطُ على الصيدلي (أو الشرابي كما كان يسمّى في عصره)، حدد بها طبيعة عمله وكيفية القيام بصناعة الأدوية، وإشراف الطبيب على ذلك، وضرورة وجود مزرعة للنباتات الدوائية قربَ معمل الدواء، وضرورة وضع اسم الدواء على الآنية وتاريخ صنعه، وعدم إعطاء الأدوية إلا بوصفة من الطبيب، خاصة الأدوية الحرجة، وأن يكون الطبيبُ ذا خبرة عالية، وغير ذلك من الوصايا التي ما زال البعض يخالفونها، مؤكّداً على ضرورة اهتمام الحاكم بهذه الصناعة ومعاقبة المخالفين. فقد جاء في كتابه **(غاية الإتقان في تدبير بدن الإنسان) في الجزء الثالث من المقالة الأولى؛ فيما يلزم الشرابي من الآلات والتدبير ـ قوله:**

"يجب أن يكون الشرابي ليس بعيد المنزل عن الطبيب، فإن الشرابيَّ يدُ الطبيب اليمنى، فإنّه لا يُمْكَنُ من العلاج للمرضى كما ينبغي بدونه، ويجب أن يكون الشرابيُّ صادقاً عفيفاً غنيّاً قنوعاً شفوقاً على الفقراء، وأن يعلم النحو والصرف، ويكون عالماً بالمفردات وصورها وأشكالها والمختار منها، ويكون عالماً بالحساب ليعرف الأوزان ومقدار الشربات من الأدوية والنسب.

ويكون عالماً بصناعة التركيب وكيفية حفظ المركبات، وليكن دكانه في مكان واسع معتدل لا تدوم عليه الشمس ولا تلاقيه الجنوب[2]، وإنْ أمكن أن يكون بقربه بستان، يزرعُ فيه ما يحتاج إليه من الحشائش والبقول اللازمة له عند التركيب، خصوصاً عند تركيب المطبوخات والمنضجات والحقن، فهو أجود.

---

[1] المصدر السابق.

[2] يقصد ريح الجنوب.



مغارة الحكيم في دركوش بمحافظة إدلب ـ سوريا
وتظهر فيها أماكن وضع أواني الأدوية في رفوف

وإذا أراد تركيبَ شيء من الأدوية الكثيرة الأجزاء المختلفة الأوزان والطبائع، كالترياق والمثروديطوس[1]، فيجب أن يكون ذلك بحضور طبيب عالم طبائعي وبمشاورته، ويجب أن يكتبَ على آنية المعجون وغيره اسم ذلك المركب وفي أيّ شهر وأيّ سنة رُكّب ليعلم ما مضى على الدواء من الزمن.

ويجبُ أن يصنعَ من الأدوية التي يسرع إليها الفساد قليلاً لئلا تفسد وتضيع قبل الاحتياج إليها. ويجب ألاّ يبيع شيئاً من الأدوية المسهلة ولا من المخدّرة ولا من الأدوية القويّة التي لا تخلو عن سمّيّة بدون أمر الطبيب أو رسالته، ويجب ألاّ يُعْتَمَدَ في شيء من ذلك أيٌّ من كان من الأطباء الذين لم يحتكموا التجارب، بل يُعتمد الأطباءُ المجرّبين المشهورين بجودة الصناعة وحسن المعالجة.

---

[1] مثروديطوس: معجون نسب إلى الطبيب مثروديطوس، يوناني، كان في الفترة بين أبقراط وجالينوس.

ويجب ألاّ يخرج عن القانون في وضع المسهل من الحبوب والمعاجين وغيرها، بأن يضعَ فيها أزيد من المقدار المعتاد ليقول الناس إنّ دواء هذا الشرابي جيّد قويّ العمل.

ويجب ألاّ يخالفَ الطبيبَ فيما يكتبه إليه، ويعيّن وزنه فلا يقول: هذا الدواء قليل، لا يؤثر، فيضاعف وزنه، ولا هذا أقوى، يجبُ التقليل منه.

وهذه الشروط المذكورة إذا أخلّ بواحد منها يجب على الحاكم تأديبه وزجره، فإن تأدّب، فبها ونعمت، وإلا فيحجر عليه، وإذا لم يعلم أحدٌ بذلك فإنّه سوف يرى عقوبة ذلك في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا بالفقر وقلة النسل وعدم القبول، وفي الآخرة بالعذاب المهين، فإنّ في إخلال شيء من الشروط المذكورة إهانةً بالنوع الإنساني الذي هو أشرف المخلوقات وأفضلها عند الله تعالى، وهذه الصناعة إنّما هي لحفظ صحته وإزالة مرضه".[1]

---

(1) مخطوط غاية الإتقان في تدبير بدن الإنسان، نسخة إستانبول ــ ولي الدين برقم 2520، 21/ظ.

وقرن الكركدان وقرن الايل والطين الارمني والطين المختوم والزمرد **الجزء الثالث**
من المقالة الاولى فيما يلزم الشرابي من الآلات والتدبير وهو باب واحد يشتمل
على فصول **الاول** يجب ان يكون الشرابي ليس بعيد المنزل عن الطبيب فان الشرابي
يد الطبيب اليمنى فانه لا يمكن من العلاج للمرضى كما ينبغي بدونه ويجب ان يكون الشرابي صادقا
عفيفا غنيا قنوعا شفوقا على الفقراء وان يعلم الصرف والنحو ويكون عالما بالمفردات وصورها
واشكالها والمختار منها ويكون عالما بالحساب ليعرف الاوزان ومقدار الشربات من الادوية
والنسب ويكون عالما بصناعة التركيب وكيفية حفظ المركبات ولتكن دكانه في مكان واسع
معتدل لا تدوم عليه الشمس ولا تلاقيه الجنوب وان امكن ان يكون بقربه بستان يزرع فيه
ما يحتاج اليه الحشائش والبقول اللازمة له عند التركيب خصوصا عند تركيب المطبوخات
والمنضجات والحقن فهو اجود واذا اراد تركيب شيء من الادوية الكثيرة الاجزاء المختلفة
الاوزان والطبايع كالترياق والمثروديطوس فيجب ان يكون ذلك بحضور طبيب عالم طبايعي
وبمشاورته ويجب ان يكتب على آنية المعجون وغيره اسم ذلك المركب وفي اي شهر واي سنة
ركب ليعلم ما مضى على الدواء من الزمن ويجب ان يصنع من الادوية التي يسرع اليها الفساد قليلا
لئلا تفسد وتضيع قبل الاحتياج اليها ويجب ان لا يبيع شيئا من الادوية المسهلة ولا من المخدرة
ولا من الادوية القوية التي لا تخلو عن سمية بدون امر الطبيب او رسالته ويجب ان لا يعتمد في شيء من
ذلك على اي من كان من الاطباء الذين لم يحكموا التجارب بل يعتمد الاطباء المجربين المشهورين بجودة
الصناعة وحسن المعالجة ويجب ان لا يخرج عن القانون في وضع المسهل من الحبوب
والمعاجين وغيرها بان يضع فيها ازيد من المقدار المعتاد ليقول الناس ان دواء هذا الشرابي جيد
قوي العمل ويجب ان لا يخالف الطبيب فيما يكتب اليه ويعين وزنه فلا يقول هذا الدواء قليل لا يؤثر
فيضاعف وزنه ولا هذا اقوى يجب التقليل منه وهذه الشروط المذكورة اذا اخل بواحد منها

مخطوط غاية الإتقان 21/ظ

الفصل الرابع عشر
أدعياء الطبّ

من المؤسف أن يكون هؤلاء منتشرين في كافة أنحاء العالم وعلى مرّ الأزمان، وهناك الكثير ممّن يميل إليهم لأسباب كثيرة. وفي الزمن القديم عانى الأطباء منهم أيضاً، حتى إنّ أبا بكر **الرازي** ـ رحمه الله ـ ألّف رسائل في ذلك، منها:

- الأغراض المميلة لقلوب كثير من الناس عن أفاضل الأطباء إلى أخسّائهم.
- العلّة التي لها تَرَكَ بعضُ الناس ورعاعُهم الطبيبَ، وإنْ كان حاذقاً.
- العلّة التي لها ينجحُ جهّالُ الأطباء والنساء أكثر من العلماء.[1]

وقال الرهاوي في مدّعي مهنة الطب: " ولست أشير إلى من يسمى بالطبّ، وهو عادم لمعناه، إذ كان هؤلاء بالهوان أحقّ من الإكرام، لاستحسانهم الكذب ورضاهم لنفوسهم بالمحال، لكنّي أرى أنّ الكرامة واجبة لمن عرف قَدْرَ ما وهبه الله ـ جلّ وعزّ ـ له من جزيل النعمة، وعلوّ القدر، أعني ما يفضل به على نوع الإنسان من علم صناعة الطب لعنايته ورحمته له. ... وكمْ من ناسٍ قد أبغضوا الأطباء، وكرهوا قربهم، فضلاً عن أن يحبّوهم ويكرموهم لأجل منعهم لهم من شهواتهم، وتحذيرهم لهم من اتّباعهم للذّاتهم، فلذلك يكرهون اجتماعهم معهم، ويسبّونهم ويكرمون دائماً من تابعهم إلى شهواتهم، وفضّلَ عندهم لذّاتهم

---

(1) أعلام الحضارة ج2 ص386.

واستعمل معهم الملق وأكثر التردّد إلى منازلهم، ومايلهم بالخدمة لهم فيما يهوَونه، والمحادثة بما يستحسنونه.

ولّما علم أهل الخداع والحيل من الأطباء بما ينفق عند كلّ صنف من أهل اليسار والرئاسة من هذه الخدع راحوا يعملون لصيدهم بذلك المعنى، فكانت هذه الحيلة لهم بمنزلة الشبكة للصياد.[1]

وفي ذلك يقول هبة الله بن يوسف: وطائفة تخدع ذوي اليسار منهم بلزوم أبوابهم ومداخلة حذّاقهم وملاطفة جلسائهم وأصحابهم، حتى إذا مكّنوا من الدخول عليهم، وأنِسُوا بهم كان أول ما يقومون به موافقتهم على شهواتهم ومساعدتهم على أغراضهم وتفريط أقوالهم وأفعالهم، توصلوا إلى معرفة ما ينقاد إليه كل واحد منهم، فيتصيدونه من ذلك الوجه.[2]

وثمّة نوع آخر من الخدع والفخاخ التي ينصبها بعض الأطبّاء ـ ومنهم في وقتنا الحاضر، فإنهم يحاولون جلب الناس ببهرجة الآلات وعرضها والتفنن في المظاهر، صحيح من الواجب على الطبيب أن تكون عنده أحدث تقنيات الطب بلا شك، ولكن لا يكون الهدف منها العرض وجلب الزبائن دونما خبرة، ونسيان الهدف الأساسي الذي كان الطبيب من أجله ــ وهو المريض، ومنفعته. وفي ذلك يقول **الرهاوي** أيضاً: " وتأمل ما قد نُصبَ من الفخاخ والشباك وأنواع المصائد، أعني

---

[1] الرهاوي: أدب الطبيب، ص190.

[2] هبة الله بن يوسف، المقالة الصلاحية، الورقة 224 ــ 225، عن حاشية أدب الطبيب ص192. كذا ورد اسمه في هذا الكتاب وفي ص168 (هبة الله بن يوسف)، والمقالة هي: **المقالة الصلاحية في إحياء الصناعة الطبية**، ميكروفيلم مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة برقم 179/8 مجاميع. بينما ورد الاسم في عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة: **هبة الله بن زين (ابن جميع)** المتوفى سنة 594هـ، وكذا في معجم المؤلفين لعمر كحالة ج4 ص56، وأعلام الحضارة لزهير حميدان ج4 ص463، وفيه الرسالة في إستانبول ـ أحمد الثالث ضمن مجموع برقم 2136، نشرها المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة.

بذلك ما يتزيّا به أهل الحيل من الزيّ، وما يعظمون لنفوسهم من المجالس، ويتخذون من الآلات والأمتعة في الدكاكين التي قد كبّروها وزخرفوها، فليس للعاقل أن تغرّه أمثال هذه الحيل ". (1)

ولعل صاعدَ بن الحسن من أهمّ من وصف هؤلاء المبهرجين وصفاً دقيقاً وشاملاً؛ في أخلاقهم، وسلوكهم، وما يروون من قصص عن معالجاتهم للناس، وأنهم تتلمذوا على فلان ــ كذباً، وهم يعالجون دونما علم ولا خبرة، فقال في صفاتهم: " وتجدُ القومَ الذين هم أطباء بالاسم، يعيبون العلوم ويرفضونها، ويصدّون من يضيع زمانه في قراءتها والاشتغال بها، ويلومون على التدقيق في العلوم، ويعدلون على الحرص والاجتهاد على النظر فيها، ويتّكلون على البخت، ويحتجّون بفوت زمان العلم، فهم أبداً على الجهل مقبلون، وفي اللذات منغمسون، يأكلون بشره الخنازير، ويشربون بعطش البطّ، ينامون كالموتى، ويصبحون أطبّاء، يتحكمون في أرواح المرضى، فالمحتسِبُ عليهم معدوم، والمريضُ معهم مرحوم، ولو علموا ما اللذة النفسانية، لشغلوا عن اللذة الجسدانية، كأنهم لم يسمعوا كلام أبقراط، إذ يقول: "العمر قصير والصناعة طويلة"، أراد أن العمر بالقياس إلى الصناعة قصير، وأن الصناعة بالقياس إلى العمر طويلة، فلا يكملها الإنسان في عمره. وأطبّاء زماننا خالفوه، وظنّوا أنّ الصناعة قصيرة والعمر طويل، فلذلك شغلوا أوقاتهم بالأكل والشرب واللهو والطرب والأفعال الدنية.

فإذا حضرت مع أحدهم وجدته مفتخراً بأنّه قد عالج، فأبرأ، وأنذر، فصحّ إنذاره، وكسب بصناعته مالاً، ورضي بالاسم من غير درس ولا قراءة، فإنْ حملت القحة[2] فإنّه يدّعي أنّه قد نظر وقرأ ودرس، وربما انتسب إلى طبيب بعيد منه؛ إمّا كان في أهله، أو في جيرانه، أو يستخدمه، أو بينهما وصلة ما، أو ليس

---

[1] الرهاوي: أدب الطبيب، ص192.

[2] القحة: الوقاحة، وهي نادرة الاستعمال (لسان العرب).

يعرفه بالجملة. فإنْ سُئِلَ عن شيء من العلم بَرّزَ ثيابه، وأظهرَ أردانه[1]، وأشار بخاتمه، ونفضَ لحيته، وسعل، وتنحنح، وانقطع، وتشجّع، وقال: أنا داويت، وعالجت، وقطعت، وبططت، وجبرت، وكحلت، وفصدت، وحقنت، وشمرت[2]، وقدحت[3]، ولقطت[4]، من غير حاجة مني إلى شيء من هذا، ولا يعلم المتخلّف أنّه عند دوائه يحتاج إلى الدواء، وعند قطعه يقطع بالمريض، وعند بطّه يبطّ بالخرق، وعند جبره يكسر، وعند كحله يعمي، وعند فصده يخاطر بالعضو، وعند تشميره يشوه الجفن، وعند لقطه يلتقط أموال الناس، وعند قدحه يهلك العين، وعند حقنه المسهلة يحقن الطبيعة.

وإذا حضر عند مريض أو بين جماعة قال: أنا داويت فلاناً وفلاناً، وقلت: إنّ فلاناً يموت ومات، وأنذرت بسلامة فلان، فسلم، ولا يعلم الجاهل أنّ الشافي للمرض هو الطبيعة التي وكلها الله تعالى بتدبير الأجسام المتفننة، وإصلاح أحوالها، وشفاء أسقامها. وإنّما الطبيبُ خادم للطبيعة، وربّما كان بجهله قد عوّق الطبيعة دفعات كثيرة عن شفاء المريض، حتى لو أنه تركها لشفيت من أقلّ من ذلك الزمان الذي يزعم أنَّ فيه شفاه هو.

فلذلك قال أبقراط: وليس يكفي المرضى والمساكين ما بهم من شدّة أمراضهم حتى تتضاعفَ عليهم إساءةُ الطبيب ". [5]

ثمّ يعقّب صاعد، بعد تعجّبه من ميل الناس إلى هؤلاء، بميلهم أيضاً إلى الدجّالين، والعجائز، والمقرّبين من أهل المريض وجيرانه، فيصِفون للمريض ما شاؤوا، وكيف شاؤوا، فكلّهم أطبّاء حوله! ناسين أو متناسين الطبيب، فيقول فيهم أيضاً: " فيا عجباً كيف يُرْجَى ممّن كان على هذه الصفة أن يشفي

---

[1] الردن: أصل الكم.

[2] هي عملية تشمير الجفن.

[3] أي عملية قدح العين التي كانت تجرى للسادّ.

[4] هي لقط السبل Pannus من العين، وهو مرض ناجم عن التراخوما.

[5] صاعد: التشويق الطبي، اللوحة 25 وما بعد.

الأمراض؟، أم كيف تطيب الأنفس بدفع مهج المرضى إليه؟، بل كيف يكون ذلك عجيباً، وهم يسلّمون أنفسهم وأرواحهم إلى العجائز الخَرِفات، فليس من أحد يمرضُ إلا وأكثر أهل بيته أطبّاء؛ إما امرأته، أو والدته، أو خالته، أو بعض أهله، أو جيرانه، ويَقْبَلُ من غاليةٍ[1] ما تأمره به، ويتناولُ من شعنا[2] ما صنعته له، ويسمعُ قولها، ويطيعُ أمرها أكثر ممّا يطيعُ الطبيب، ويعتقد أنّ تلك المرأة، مع قلّة عقلها، أعقلَ منه وأسدّ رأياً ".[3]

ولابن رضوان قول من هذا القبيل، وهو: " وكثير من الناس يجهل أنه جاهل، فيتوهّم أنه فاضل، وهو في غاية البعد عن الفضيلة، وذلك أنّي شاهدت من هذا الضَّرْب ناساً كثيراً بهم من العجب والحمق والصلف ما تعظم صفته، وكنت كثيراً ما أتعجّب منهم، وأضحك، ولقد رأيت منهم رجلاً يؤثر أنْ يُدْعَى طبيباً فاضلاً، ويأمرَ الناس، فإذا عارضه أحدٌ ولم يسمع أمرَه تمَرْمَرَ، واختلط، وكان مع هذه الحال بعيداً جدّاً عن فهم صناعة الطبّ أو فهم جزء منها صغير فضلاً عمّا سواه ".[4]

وقال ابن رضوان أيضاً: ولقد شاهدتُ منهم جماعةً ما قرأ أحدٌ منهم قطّ لا ناشئاً، ولا غيره، بل يقول: إمّا على اسم أبيه أنّه متطبّبٌ، أو أنّه جلس بين يدي متطبّب أياماً، ورأيتُ منهم كثيراً دون هذه المنزلة.

والأجود أن أُخْبِرَكَ بحديثين؛ أحدُهما أنّي رأيت رجلاً بمدينة مصر ما قرأ قطّ حرفاً، ولا ملك كتاباً، وكان له باسم الطبّ مكسباً صالحاً، فإنّه كان يخدع العامّة، بأنْ يأخذَ بيده قارورة البول، فيحرّكَها، وينصبَها بإزاء بصره، ويبدرَ بما جاء على لسانه وهو ناظر إلى القارورة، فيوهم العوامَّ أنَّ كلامه على أشياء من أهالي القارورة، يكاد البول يميل عليه.

---

[1] الغالية: المضللة المهلكة (المعجم الوسيط).

[2] شعنا: منفوشة الشعر والحمقاء (لسان العرب، والمعجم الوسيط).

[3] صاعد: التشويق الطبي، الورقة 27/ظ.

[4] ابن رضوان: النافع في كيفية تعلم صناعة الطب، مخطوط تشستربتي 5019، الورقة 29/ظ.

ورأيتُ آخر يوهم العامّة، إذا دخل على مريض، أن مرضه ذلك ما رأى مثله من مئة سنة، ومن مدة أخرى إما أقل وإما أكثر، فإن كان الزمان الذي بدله أبعد من عمره قال: حدثني أبي وجدّي أنه رأى هذا المرض في السنة الفلانية.

فتأمل أيها الحبيب هذه البلايا الرديئة، والمكاره العظيمة التي تنساق وتتسبب على الأطباء، وخاصة الأفاضل، من سوء عادات الناس وتدابيرهم الرديئة لنفوسهم، وكيف تسببت أيضاً على المريض، فأهلكته، بل كيف يتسبب أمثالها على الصحيح حتى تُمرضه، وتُهلكه". [1]

الدستكارية والحيل الطبية

الدستكارية؛ كلمة فارسية[2] تعني أصحاب التفنن بالعمل باليد، وهم الذين يوهمون الناس بأعمال الخفّة فيخرجون أشياء من الجروح والأعضاء، كانوا قد أخفَوْها في أيديهم، ليوهموا الناس بأنهم استخرجوها من جسم المريض. وهؤلاء يختلفون عن أصحاب الحِيَل المشروعة في العلاج النفسي مثلاً، التي يستخدمها الطبيب لشفاء مريضه.

يقول الرهاوي في التحذير من خدع المحتالين والفَرْق بين خدعهم والحيل الطبيّة: لقد قدر الإنسانُ بطريق الحيلة أن يستخرج دقيقَ العلوم والصنائع، لأنّ الموجودات لم يكشفها البارئ ـ تبارك ـ بأسرها للإنسان، لئلا يُسقط عن الناس كِلْفَةَ النظر والبحث، ويذهب تفاضلهم بمعرفة العلوم والمهن، فتسقط المراتب والرئاسات بذلك، وهذا هو سلب نوع الإنسان ما به شُرِّف، وعدم حكمته التي بها فضل على أنواع الحيوانات، فلذلك جعل الله ـ تعالى ـ بعضَ الأمور ظاهرة

---

[1] ابن رضوان: شرف الطب 117/ظ. وله أيضاً من هذا القبيل عدة قصص ونصائح وآراء، فلتراجع لمن أراد.

[2] ينظر المعجم الذهبي.

جليّةً، وبعضها خفيّةً، ليتوصل بلطيف حيلة العقل، وتدقيق ذهنه من الأمور الظاهرة إلى معرفة الأمور الباطنة.

ولأنَّ لذلك طرقاً وقوانين قد تفضل الله بها على نوع الإنسان وضع العلماءُ في هذه الطرق كتباً، ليعلمها من أراد التعرّض لذلك، لئلا يسلك غيرَها، فيُهْلِك الناس، كالذي فعله قدماء الأطباء. مثال ذلك كتاب "حيلة البرء" لجالينوس.

وأمّا من سلك طُرُقَ الحِيَلِ للوصول إلى كسب الدراهم على غير الواجب، وبلوغه لذّاته فقط، فما مثله إلا كذئب قد ستر نفسه، ليفترس ما أمكنه افتراسه. فلذلك هذه الطائفة على نوع الإنسان شرٌّ من السبع والذئب والنمر والأفعى والعقرب، وغير هذه من المؤذيات.

ومن أمثلة ذلك ما يفعله أهل الحيل المموّهة، وهم الذين يسمون الدستكارية، فاحتالوا بلطف حيلة لعمل أجسام تشبه المواد والأجسام التي تكون في النزلات والأورام، واحتالوا أيضاً في إخفائها في أفواههم وفي أيديهم وبين آلاتهم، ليدركوها، ويظهروا أنهم يستخرجونها إذا شاؤوا، وبعد شقّ العضو الذي يقصدون لعلاجه، ويعملون الحيلة في إظهار ذلك المستور المشابه للخلط بمصّه بآلة لهم تسمى "الماذوقة"[1]، فيخرجون ما يشبه المادة السوداوية، ويسمون ذلك "السورك"، ويستخرجون من آخرين ما يشبه في قوامه البلغم والمادة المتغيرة، وكذلك ما يماثل النخام في بياضه، ويسمون ذلك "الركاب"[2]، ولعلمهم بأن الأورام الصلبة والسلع قد يكون داخلها مواد صلبة وعصبية، وقد يتكون فيها دود أيضاً، وتتكون أورام تشبه السراطين في شكلها، فلذلك احتالوا في عمل ما شابه ذلك وإخفائه، ثم استخراجه بعد الدكّ من حيث أخفوه كأنّه من العضو قد استخرج، واسموه "القدسان"، وأما الدود المستخرج من الآذان وغيرها خاصة

[1] مذق: خلط ومزج.

[2] الركَب: بياض في الركبة والعانة (قاموس الأطبا).

فأسموه عندهم "الهمقان"[1]، وأمّا ما يستخرجونه من أمثال هذه الأشياء بالقيء فيسمونه "اللوى"[2]، وكذلك قد يستخرجون أيضاً من أنوف الصبيان شيئاً من جنس الأغذية ويسمونه "بلعاً".[3]

ومن مسميات هؤلاء أيضاً لأعمالهم التي يسمونها "التحرير"، مثل "الأروك"[4] الذي يستخرج به النواصير، و"كرد أروك"[5] الذي يظهر من حيلته استخراج مِدّة[6] من أجفان العين في الجرب العارض لها وغيره.

وقد يستعين هؤلاء في حيلهم بإعطاء أدوية، قد اتخذوها معهم مخدرة ومنومة، ليظهر لأهل المريض ومن حضره الراحة للمريض، وسكونه من مرضه، وبُرْأه بعلاجهم، فيستربحون الفائدة بذلك. وكذلك قد يفعلون في إعطائهم أدوية مسهلة، بغير علم منهم بصلاحها، فيقتلون بذلك عاجلاً أو آجلاً.

لكن ليس جميع الدستكارية يستعملون ما ذكر بغير علم وبطريق المحال، إنما يشار إلى المموهين منهم، فأما حذّاقهم الفُرْه[7] أصحاب البطش بالأعمال

---

[1] همقان: واحدتها همقاقة، وهي دخيلة من كلام العجم، وهي حبة تشبه حب القطن في جماعة كالخشخاش، وتكون في جبال بلغار. (كتاب العين، والجامع لابن البيطار ج2 ص504). ولعلها همجان: فارسية تعني دود يتفقأ عن ذباب أو بعوض (عن حاشية أدب الطبيب).

[2] اللوى: ما التوى من الرمل (لسان العرب). وينظر فصل اللوى في القانون لابن سينا ج2 ص75: وهو مرض يعرض للبدن من جهة تواتر الامتلاء ونحوه في العضل والعروق، حاله كالإعياء، تتمدد له العروق ويكثر لاتثاؤب والتمطي لكثرة الريح والبخار، ويحمر معه الوجه والعين ويستدعي التلوي والتمدد.... واللاوياء: التواء الأمعاء (تكملة المعاجم ج9 ص293).

[3] أغلب ما ذكر من أسماء لا وجود له أصلاً في اللغة، ومنها مجرد كلمات لا تعني شيئا" سوى ما اصطلحته الدستكارية عليها.

[4] تأرّك أروكاً: لزم الأراك (المخصص لابن سيده).

[5] كَرْد: فارسية تعني الغصن المقلم من الشجرة. (المعجم الذهبي).

[6] المدة: القيح.

[7] الماهرون.

الصحيحة فإنهم ــ وإن استعملوا حيناً شيئاً مما ذكر ــ لم يستعملوه على الطريق المخرقة، لكن بحيلة طبيّة نافعة، يكون بها برء المريض عن طريق الوهم (العلاج النفسي)، كالذي فعله جالينوس من هذه الأعمال بعينها، فكان بها برء المريض، وذلك أن جالينوس حكى أن إنساناً توهّم أنّه قد بلع حيّة، فعولج بكل دواء، فلم ينجح فيه، فلمّا وقف جالينوس على خبره، سأله: هل تتعرف لون تلك الحية؟ فقال: هو اللون الفلاني، ومقدارها المقدار الفلاني، فأمر سرّاً عن العليل بمن صاد له حيّة بتلك الصورة وأخفاها بلطيف الحيلة، وسقى المريض دواء قذفه، وشدّ عينيه، حين أخذَ يقذف، وسرح الحيّة المذكورة بالقذف، فحين فضّ عن عيني المريض قال: هذه هي الحيّة التي ابتلعتها بعينها، وقد وجدت الراحة، فبرئ برءاً تاماً من توهّمه.[1]

ويروي ابن سلوم أيضاً قصة من هذا القبيل فيقول: **وقد عدت رجلاً حرّاثاً** وجدته عرض به **حمى فرحية**[2]، فقلت له: إنّك في هذا اليوم تموت، فغُمَّ الرجل من ساعته، ثم أتيته عند المساء، فقلت له: تموتُ في هذه الليلة، ولم أزل على ذلك نحو خمسة أيام، أقول له ذلك صباحاً ومساءً، فعُوفي الرجلُ من مرضه، وجاء إلى نحوي يقول: ما فعلت معي، وإنّي شفيت بلا علاج؟ فقلت له: لا أخبرك إلا حتى تخبرني ما رأيت، وأنت تحرث، فتوقف ولم يردّ جواباً، فألححتُ عليه، فأخبرني أنه رأى دفينة[3]، وترامى عليَّ ألاّ أخبر أحداً، فقلت له: لا بأس عليك، فإنني عالجتك بضدِّ مرضك، فانصرف، وهو شاكر.[4]

---

[1] الرهاوي: أدب الطبيب ص266 وما بعد، بتصرّف. ومثل هذه القصص كثيرة منها قصة أوحد الزمان هبة الله بن علي ملكا، والمريض الذي يظن على رأسه جرة، تنظر في عيون الأنباء ص374. وقصة ابن سلّوم الحلبي والمريض الذي يظن نفسه عجلاً، تنظر في غاية البيان في تدبير بدن الإنسان فصل الماليخوليا، وهو من تحقيقنا.

(2) وهي من أنواع الحميات تحدث من الفرح بسبب نفسي المنشأ.

[3] دفينة: كنز.

(4) صالح بن نصر الله الحلبي (ابن سلّوم) المتوفى سنة 1081هـ: غاية البيان، فصل الوباء.

أما بشأن التفرقة بين الدستكارية الحذّاق والمتشبهين[1] ، فالأشياء التي يمتحن بها المدّعون لهذه الصناعة هي في هؤلاء نافعة جداً من بلاياهم ، وبها يقدر السلطان على التفرقة بينهم وبين الحذاق من الدستكارية إن أحب ذلك هو أو غيره.[2]

مخاريق المشّائين

كذا سمّاهم الرازي ، وهم أدعياء الطبّ أيضاً ، ويصفهم بقوله : " إن مخاريق هؤلاء كثيرة ، يضيقُ عن ذكرها كتابنا هذا بأسره ، وجرأتهم واستحلالهم تعذيب الناس باطلاً في الغاية التي لا وراءها غاية. فإنَّ منهم مَنْ يزعم أنّه يبرئ من الصرع ، بأنْ يشقَّ وسط الرأس شقّاً صليبياً ، ثم يخرج أشياء قد أعدّها معه ، يوهم بخفّته وتمويهه أنه أخرجها من ذلك الشقّ. ومنهم من يوهم أنّه يخرج من الأنف سامّ أبرص[3] ، فيدخل في أنف المعالَج الشقيِّ خلالة أو حديدة ، ويحكّه حتى يدميه ، ثم يشيل من هناك أشياء قد أعدّها معه على شكل هذه الدابة ، مُتّخَذَة من عروق الكبد. ومنهم من يوهم أنه يرفع البياض من العين رفعاً ، فيدخل في العين حديدة ينكأها ، ثم يدس فيها غشاء رقيقاً ، ويخرجه من هناك. "[4]

إن هذه الحِيَل ، وغيرها مما يفعله أدعياء الطب ، تورث في نفوس بعض الناس شكوكاً في الطبيب ؛ من عدم المقدرة ، أو الضعف في الطبابة ، إلى غير ذلك مما قد تتوهّمه العامة ، وهذا ما يدعوهم إلى ترك الطبيب والسير وراء الدعاة والدجّالين ، وما زلنا نعاني من هذه الظاهرة حتى في عصرنا هذا ، فكثير من المرضى يتركون علاج الطبيب ، ويذهبون إلى أشياء ما أنزل الله بها من سلطان فيتعالجون بها ؛ إن

---

(1) وهؤلاء لهم حيل وأقاويل يتقرّبون بها إلى الحكام ؛ بادّعاء صناعتهم لأدوية ناجعة جداً ، خاصة في الزينة وتسويد الشعر ، وتقوية الباه ، إلى غير ذلك من الأساليب التي تسمى (التقربة) ، ينظر المزيد لمن أراد في أدب الطبيب للرهاوي ص274.

(2) إسحق بن علي الرهاوي : أدب الطبيب ص274. بتصرّف.

(3) نوع من الزحافات السامة ، ويسمى أبو بريص.

(4) إلى غير ذلك من العديد من الحيَل التي يذكرها الرازي في نهاية المقال السابع من كتابه "المنصوري" عن الرازي ومحنة الطبيب لألبير اسكندر ، مجلة المشرق 54 سنة 1960م ص487

كانت نباتية، أو حيوانية، أو معدنية، مما يصفه أدعياء الطب. وقد حذّر الأطباء القدامى من هذه الظنون التي تقع في نفوس العوام، التي أوقعها إليهم منتحلوا هذه الصناعة، ومن ذلك قول **صاعد بن الحسن** في إبطال هذه الظنون: " وهؤلاء الأطبّاء قد أوقعوا في نفوس كثير من الناس أوهاماً وظنوناً كاذبة لتقصيرهم في العلم، ويضاف إلى ذلك ظنونُ العوامّ وخرافاتُ النساء، وليس يُستَضَرّ بذلك إلا المرضى المساكين.

وأيضاً فإنّ العوام يعتقدون في أدوية معدومة مجلوبة من مواضع بعيدة أنّها في غاية الشفاء للأمراض، وأنّها أجلّ من الأدوية الموجودة عندنا، وقد توجد أدوية حقيرة فيها من المنافع أكثر مما في هذه[1]" [2].

ويحذّر الرازي من الكهانة في الطبّ ـ إذ لا كهانة فيه ـ قائلاً: وإيّاك أنْ يغلطك المخرقون[3] المهرون على الناس، بحضرة مخدومك، فيكلفونك استخراجَ أشياء ليست من صناعة الطبّ، ممّا يعتادها الكهنة: أنّه قد يمكن المشاهد أن يعرف جميع ما بالعليل من أمره، إذا نظر إلى مائِهِ، أو جسّ نبضه، لا بل يعرف ما أكل من قبل ذلك، وراود من سائر أموره، والفرق بين الأبوال، وهذا من أعظم الكذب والباطل في صناعة الطب. ولهؤلاء الممخرقين ــ أخزاهم الله تعالى ــ في ترويج حيلهم عند العامة، أنواع من الحيل، وقد سبق ذكرها.[4]

ويقول الرازي في التحذير من أدعياء الطبّ: واعلم أن اللصوصَ وقطّاع الطريق، خَيْرٌ من أولئك النفر، الذين يدّعون الطبّ، وليسوا بأطباء، لأنّهم يذهبون بالمال، وربّما أتَوْا على الأنفس، وهؤلاء كثيراً ما يأتون على الأنفس النفيسة. وإنَّ من اضطر إلى ذلك، لحاجة أو سدِّ مجاعةٍ خيرٌ ممَّن هو مستغن عنه، يريد بذلك التشدّق والسمعة، كي يقال: إنّ فلاناً يُرْجَعُ إليه في علم الطبّ. وأكثر هؤلاء يُرجعونه إلى الزهد، وصيانة النفس، ولو أمسكوا عنه لكان جزاء لهم ديناً

[1] وهذا ما يعتقده الكثير من الناس حاليّاً، وهو أن الدواء الأجنبي أفضل من المحلّي؟؟.

[2] صاعد: التشويق الطبي، اللوحة 42/و.

[3] ينظر مخاريق المشائين.

[4] الرازي: أخلاق الطبيب ص89.

ودنيا، وآخرة وأُولى؛ فإنّ من أصعب الأمور التحكيم على الأرواح بغير معرفة، والأمر بشيء، والنهي عن غيره من غير بصيرة. وإنّ الواحد منهم ربّما بلغ به الأمرُ من الصيانة، أنّه يذبح نفسه من غير أن يتكلم بين اثنين في شيء حقير من حطام الدنيا، كيلا يبوء من ذلك بإثم، ثم يخبط منهمكاً على وجهه في التحكّم على أرواح الناس، من غير بَحْثٍ ولا قياس، ولا أصل يبني عليه، ولا فرع يرجع إليه. فبعضهم يفعله منتشياً، وبعضهم يفعله محتسباً. ولولا ما كان من أجل ما وصفنا؛ ما استخلص الملوك والأمراء لأنفسهم الأطبّاء، وآثروهم على جميع خدمهم، وأشركوهم في أموالهم ونعمهم، وقدروهم على سائر خواصّهم؛ لأنّه لا شيء أجلّ من العافية، ولا ألذّ من حياة في سلامة.[1]

ولذلك وضع **صاعد بن الحسن** وصايا صحّيّة مختصرة تُجَنِّبُ من عمل بها الوقوعَ في أيدي المختلفين من الأطباء، والغرض منها أن تُشَوّق من قرأها مع ما قبلها إلى النظر في الصناعة الطبّيّة، وتؤمنه من أن يسلم نفسه إلى واحد من هؤلاء الأطبّاء المتحكمين في أرواح المرضى، إذا تدبرنا فيها، ولزم قوانينها، ولم يطمع نفسه بمخالفتها، ولا أطلقَ عنانها في مباشرة شهواتها. وهي مجموعة وصايا في المأكل والمشرب والرياضة والنوم والحمّام إلى غير ذلك من الوصايا التي يمكن الرجوع إليها هناك، أو في أي كتاب آخر.[2]

وأَختِمُ بقول الطبيب **محمد بن حُبَيْقة**: "لأَنْ أتركَ المريض مع الطبيعة وأَكِلَهُ إليها أحبُّ إليَّ من أنْ يتولاّه جُهّالُ الأطباء".[3]

---

[1] الرازي: أخلاق الطبيب ص81.

وفي ذلك يقول الرصافي عن الرازي: وكان حليف الجد لم يأل جهده بدحض خصوم العلم من كل هزال

[2] ينظر صاعد: التشويق الطبي، الورقة 45/و.

[3] محمد بن محمد بن حبيقة الدمشقي الميداني الطبيب (توفي سنة 1033هـ). ينظر: الحموي، مصطفى بن فتح الله: فوائد الارتحال ونتائج السفر في أخبار أهل القرن الحادي عشر، مخطوط دار الكتب برقم 3187/تاريخ، ج1 ص88. حميدان: أعلام الحضارة، ج6 ص268.

٨٨

مبارك اليد لا يباشر أحدا في طب الاعين غالبا مع
العفة والأدب والنزاهة وحسن الخلق والبشاشة والتواضع
وتطييب نفس المريض وادخال السرور عليه وهذه
الخصال هي رأس مال الطبيب وما سلكها احد من
الأطباء خصوصا الاعظم شأنه في بابه وكان يداوي
المرضى في معالجتهم ويقول لأن اترك المريض مع
الطبيعة واكله البيطار احب الي من ان يتولاه جهال
الأطباء ومع تمام معرفته ابتلي بالحمى سنتين او ثلاثا

الصفحة 88 من فوائد الارتحال ج1 /3187 دار الكتب بالقاهرة

الفصل الخامس عشر
علاقة الأطبّاء بالحكّام والملوك
ومسؤوليتهم في ذلك

منذ القديم والملوك والحكّام يتّخذون أطباءَ لخاصّتهم؛ ففي الحاشية الملكية في إبلا (3500 ق.م) نجدُ أكثر من ثلاثينَ طبيباً، وكان الطبيب يدعى بلغة إبلا (Azu)[1]، كما كان على مائدة سيف الدولة الحمداني (ت 356هـ) أكثر من اثني عشر طبيباً، وغيرهم، ممّا يُذكر في تاريخ الطبّ والأطبّاء. بالمقابل كان الكثير من المؤلّفين يسمّون كتبهم بأسماء الملوك والأمراء والحكّام؛ مثل المنصوري للرازي، والمقالة الصلاحية لهبة الله بن يوسف، والرسالة الشهابية لجمال الدين المارديني، وغير ذلك من المؤلفات الطبّيّة.

لكن هذا لا يعني إنقاصَ من مكانة الطبيب، ولعلّ في القصة التالية ما يُبيِّنُ منزلةَ الطبيب عند الحكام والملوك، وهي ما جرى لثابت بن قرة الحرّاني (211 ـ 288هـ) أبي الحسن، طبيب المعتضد وخاصّته؛ وهي أن ثابتاً كان يمشي مع المعتضد في الفردوس ـ وهو بستان في دار الخليفة للرياضة ـ وكان المعتضد قد اتّكأ على يد ثابت، وهما يتماشيان، ثم نتر المعتضدُ يدَه من يد ثابت بشدّة، ففزع ثابتٌ ـ فإن المعتضد كان مهيباً جداً، فلما نتر يده من يد ثابت قال له: يا أبا الحسن، ـ وكان في

---

[1] تاريخ الطب والأطباء في إدلب الخضراء ص53.

الخلوات يكنيه، وفي الملأ يسميه ـ سهوتُ، ووضعتُ يدي على يدك، واستندت عليها، وليس هكذا يجب أن يكون، " **فإن العلماء يَعْلُون، ولا يُعلَوْن**".[1]

ويقول الرهاوي في تشريف الطبيب من الملوك وأفاضل الناس: إنّ من ذَمّ الطبيب في نفسه فمن الفضل كشف جهله، لأنّه من أدون طبقات الناس، والدليل على ذلك أنّكَ لا تجده يستغيثُ إذا عرض له مرض بأهل ولا بإخوان لكنْ بالطبيب فقط، فعند ذلك يفتضح رأيه هذا، ويبين جهله.[2]

وقال علي بن رضوان في واجب الطبيب الذي يخدم الملوك: فإنْ خَدَمَ بصناعته ملكاً، فالأجودُ أن يوقع في نفسه أنّه من النسّاك، وأنّ من كمال صناعة الطبِّ جلوسه بعد فراغ خدمة الملك، إمّا متفرّغاً للنظر في صناعته، وإمّا مجتهداً في علاج الفقراء. وإنْ عالج العوامّ فالأجود أن يوقع في نفوسهم أنّه من الكبراء.[3]

وقال صاعد بن الحسن في واجب الملوك تجاه الطبيب: ولمّا كان الملوكُ والرؤساء، بما خصّهم الله به من أنواع السعادات، يؤثرون السعادات، ويحبّون الفضائل وأهلَ الفضل أكثرَ من غيرهم ممّن دونهم، وجبَ لذلك أن تكون عنايتهم بتقويم هذه الصناعة أكثرَ من غيرهم، لتتضح حقيقتُها، ويظهرَ نفعُها للخاص والعامّ، فيبين شرفها، فيكون الملوكُ العانون بتقويمها، وبكشف حقيقة ما فيها، أعظمَ نفعاً للناس منها، مشكورين محمودين من سائر الناس، وعند الله مقدّمين، ومنه مثابين. هذا مع ما تخلّص لهم من النفع لأجسامهم، والفضل لنفوسهم، وحسب من حصلت له هذه الفوائد شرفاً بها ونفعاً منها، وحسبُ الطبيب بذلك بهذا الشرف، وبهذه المنزلة الجليلة عند الله وعند أوليائه وسائر أبناء نوعه، التي لا يفي بها غلاء الجواهر، ولا كثير الأموال.

---

(1) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص296.

(2) الرهاوي: أدب الطبيب ص214.

(3) ابن رضوان: النافع في تعليم صناعة الطب، الورقة 22/و.

فأمّا من لم يكتف بهذه المرتبة العالية من الأطباء، لكنه رغب في منافسة أهل الدنيا عليها، فطلب جمع الذهب والفضة، وتشاغلَ بجمعها عن اكتساب فضائل صناعته، والبحث عن دقيق معانيها، ولطيف أسرارها، فقد بانَ بذلك جهله بمنزلتها، لأنّه باعَ النفيس بالخسيس، والشريفَ الباقي الدائم بالحقير الزائل الداثر، وانكشفَ بذلك قلّة معرفته بسير أفاضل الأطبّاء، وبما يؤول إليه حال من رغب في علم هذه الصناعة، وعمل بعلمها من الدنيا والآخرة.[1]

ومن سِيَرِ الأفاضل ـ وهي كثيرة في هذا الباب ـ نذكر الآتي:

حكى جالينوس عن أبقراط أنّه لّما وجّه أزدشير بهمن ملك الفرس (حكم بين 465 ـ 425 ق.م) إليه بقناطير كثيرة من الذهب، وبذل له كرامات كثيرة ليصير إليه، ولم يكن ذلك صواباً عنده لضرب من السياسة، كبرت نفسه عن ذلك، ولم يلتفت إليه، ورفضَ كما رفض أهلُ مدينته، وقالوا: إن أُخرج أبقراط من مدينتنا خرجنا جميعاً، وقتلنا دونه، فرقّ لهم بهمن، وأقرّه عندهم.[2]

وقال أبقراط: " من صحب السلطان، فلا يجزع من قوّته، كما لا يجزع الغوّاص من ملوحة البحر ".[3]

ومن ذلك أيضاً أن **جالينوس** لّما سلك طريق صناعة الطبّ في علاجه برومية لأوذيموس الفيلسوف ولابن حاريلميس صاحب المراقد ولغيرهما، ممّن شفاهم الله على يديه، وبان فضله، وعُرِفَ قدرُ منزلته من الصناعة، فحسده أطباء رومية، وأخذوا في عناده، ولم يَرَ مقاومتهم ولا سلوك طرقهم، ولا التفتَ إلى مكاسبه ورئاسته، بل رأى الانصرافَ إلى بلده ليستعمل هناك الواجب، مع قناعته بأهل بلده الذين كانوا أفاضلَ علماءَ أخياراً، لأنّ العالم الفاضل يرى أنّ موته خير له من كونه بين جهّال أشرار، وإن سعدوا بالجَدّ.

---

[1] صاعد: التشويق الطبي، الورقة 25/ظ.

[2] عيون الأنباء ص47 ـ 48. بتصرّف.

[3] عيون الأنباء ص46.

فكلام جالينوس وأمثاله يدلّ على أنَّ أهلَ هذه الصناعة ينبغي أن يكونوا في الغاية القصوى من هذه الأوصاف المحمودة، ولا يرغبون في الدنيا، بل يأخذون نفوسهم باقتناء الفضائل علماً وعملاً، كسيرة قدمائهم، ليكونوا عند الملوك وسائر الناس بالصورة التي يستحقّونها، الجليلة الرفيعة.

وكيف لا تكون منزلتهم عندهم كذلك، وقد ملّك الملكُ الطبيبَ نفسَه وجسمه، واطمأن إليه في روحه ومهجته، ووثّقه على حرمه وأولاده، ولا شيء أعزّ من ذلك على الملك. ولذلك يجبُ على الملك، وعلى جميع من لاذ به، أن يعرفوا حقّ الطبيب، وقدر صنعته، فيجلّوه، ويكرموه ويأنسوا به، ولا يدخلوا على قلبه رعباً، ولا يستقبلوه بما لا يحبُّ، ولا يقبلوا فيه قول واشٍ ولا حاسد، ولا يتهموه، بل يفعلون معه كما فعل الاسكندر لما وجَّهَتْ إليه أمُّه تحذّره من طبيبه؛ لئلا يسمّه، فدعا بالطبيب عند ورود الكتاب عليه بذلك، فقال له: جئني بشربة لأشربها، فلما أحضر له الطبيبُ الدواء تناولَ الاسكندرُ الشربةَ من طبيبه بيمينه، وناوله الكتاب بيساره، وقال له: هذه منزلتك عندي، وهذه ثقتي بك، فازداد ذلك الطبيبُ من صرف همته وشغله ليله ونهاره بما يصلح شأنه من حفظ صحّته وعلاجه.[1]

وهناك قصص كثيرة على إكرام الملوك للأطباء. ومنهم آل **بختيشوع**. ومن ذلك ما يُحكى عن أنَّ هارون الرشيد[2] قال لطبيبه جبريل بن بختيشوع[3]، وهو حاجّ بمكة: يا جبريل، علمتَ مرتبتك عندي؟ قال: يا سيدي، وكيف، لا أعلم؟! قال له: دعوتُ لك ـ والله ـ في الموقف دعاء كبيراً، ثم التفت إلى بني هاشم[4] فقال: عسى أنكرتم قولي له؟ فقالوا له: يا سيدَنا ذمّي! فقال: نعم، ولكنَّ صلاحَ بدني

---

[1] أدب الطبيب ص 218.

[2] تولى الخلافة سنة 170هـ/786م، وتوفي سنة 193هـ/808م – رحمه الله.

[3] توفي 213هـ/828م.

[4] يقصد أهله وعشيرته من بني هاشم.

وقوامه به، وصلاحَ المسلمين بي، فصلاحُ المسلمين بصلاحه وبقائه، فقالوا: صدقت، يا أمير المؤمنين.[1]

ويحكى أن المعتصم[2] قال: سلمويه[3] طبيبي أكبرُ عندي من قاضي القضاة، لأنّ هذا قاضٍ وهو يحكم في مالي، والطبيبُ عندي يحكم في نفسي، ونفسي أشرفُ من مالي وملكي. ولما مرض سلمويه الطبيب أمرَ المعتصمُ ولده أنْ يعودَه، فعاده ثم قال: أنا أعلمُ، وأتيقّن أنْ لا أعيش بعده، ولم يعش بعده تمام السنة.[4]

كيف يقدر الملوك على إزالة الفساد الداخل على الأطباء:

من المعلوم أنّه لا شيء من المكونات أشرفُ من نفس الإنسان ومن جسمه، وإذا كانت المنافع لهما بطلت، ولا شيءَ أنفع من حفظها وإصلاحها، فالملك أولى الناس باختيار مَنْ عِنْدَه هذه المنافعِ والمصالح الشاملة والعامة، ليس في نفسه وجسمه بل لسائر الناس، وبغير شكٍّ أنَّ الحافظ لصحّة الأصحّاء، والمعالج للمرضى حتى تعود إليهم صحتهم، هم الذين وَهَبَ اللهُ ـ تبارك وتعالى ـ لهم من حكمته علماً يقدرون به على ذلك، مع إرادته، وهؤلاء هم الأطباء.

ولما كان قومٌ قد تغطرسوا على هذه الصناعة، فادّعوها بغير معرفة بها، وجب لذلك — على الملك خاصّة — إزالتهم عمّا عصوه أولاً، ثم ثانياً لأجل ما يدخل على الخاصّ والعامّ منهم من الضرر، إذا تميّز لهم قليل عددهم، فلا يمكن للمرأة والسوقي والغريب تمييزهم من غيرهم، فيجتنبونهم، فلذلك يكون الضرر، بل القتلُ، منهم شائعاً، وهو بالحقيقة خفيٌّ، فواجب المَلِكِ أنْ يدفع هذه البلية عن جنده ورعيّته، وعن نفسه أيضاً، فقد يصير الملك إلى من لا خبرة عنده

---

[1] الرهاوي: أدب الطبيب ص220، ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص192.

[2] محمد بن هارون تولى الخلافة سنة 218هـ/833م، وتوفي سنة 227هـ/841م.

[3] سلمويه بن بنان، توفي قبل عشرين شهراً من وفاة المعتصم.

[4] الرهاوي: أدب الطبيب ص221. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص234.

بأمور الطبّ، فربما اضطرّه الأمرُ إلى إحضار طبيب لا يعلم بأنّه غير موثوق به، فيخطئ عليه، ويهلك، فيكون إغفاله اعتقاد ذلك في حال صحته سبب هلاكه، وكذلك يتسبب دائماً على خواصه وعوامه.

يتضح من ذلك أنّ النظر في أمر الطبيب خاصة، وإلزام الأطباء، بعد محنتهم واختبار أمورهم، واجب على الملوك أولاً، ثم على الرؤساء ومن إليهم النظر في مصالح الناس والعلماء وأهل العقول. ولما كان من ذكرناهم بعد الملك هم أكثر مشاهدة للأطباء وغيرهم من الملك، ويسمعون من أخبارهم ما لا يسمعه الملك، وكان في إنهاء ذلك وشرحه للملك مصلحة للملك أولاً ولهم ولسائر الناس، وَجَبَ عليهم تعريفُ الملك، وحثُّه على القيام بصلاحه. ولخطر ذلك، ولشدّة الاهتمام به، كان قدماء اليونانيين يسلكون مع الأطباء طرق الاحتياط، وشدّة التفقد، فلذلك كان أطباؤهم على شدّة حذر وتوقّ من الخطأ، ووثوق شاف.[1]

وكان الحاكمُ يلزمُ الطبيبَ، أوّل ما يشاهد مريضه، أنْ يدوّن كل ملاحظة ومعلومة، من عَرَض، وعلامة، وتشخيص، وعلاج، ليكون مستنداً له أمام الحاكم، وحجّة عليه في حال خطئه، وفي ذلك يقول **الرهاوي** أيضاً: وكان الطبيب إذا دخل إلى مريض ليعوده ويَطِبَّه يستدعي أوّل دخوله عليه ورقاً أبيضَ، فيكتب فيه، بعد تأمل حال المريض[2]: دخلت إلى المريض الفلاني، في اليوم الفلاني، وهو اليوم الأوّل من مرضه، أو الثاني، أو الثالث، بحسب ما تهيّأ، فوجدتُ مرضَه المرضَ الفلاني، والذي دلّني على ذلك الحالات الفلانية، من حالات قارورته (قارورة فحص البول)، ونبضه، والعلامة الفلانية والفلانية فأشرت عليه من الدواء بكذا وكذا، ومن الغذاء بكذا وكذا، ويَدَعُ ما كتبه عند أهل المريض. وعند العودة ينظر ما تغير وحدث أثبته على ما ذكرنا، وكذلك في كل دخلة. فإن

---

[1] الرهاوي: أدب الطبيب ص 263.

[2] وحالياً يعاقب الطبيب إذا لم يجعل لكل مريض بطاقة يدوّن فيها جميع المعلومات اللازمة عن حالة المريض.

ولأبي بكر الرازي أيضاً أقوال في ذلك، في كتاب طب الرازي لمحمد كامل حسين.

كان المريض برئ أخذ ذلك الدستور إليه، ليكون تذكرة عنده، وأصلاً لحالة أخرى إن حدثت بذلك الإنسان، وإن مات المريض وذكر ذاكر طبيبه بأنه قد غلط عليه حضر الطبيب مع أهل البصيرة، وأظهر ذلك الدستور من عند أهل المريض، وتفقد من حضر من العلماء بصناعة الطبّ ما ذكره، فإن يكن المرض على ما حكاه، والعلامات هي العلامات الخاصة بذلك المرض، وبمثلها يُعلم، وكان العلاج والتدبير موافقين انصرف مشكوراً، وإن كان الأمر بخلاف ذلك ناله ما يستحقّه، ولم يعاود إلى الصناعة، إن كان الغلط أوجبَ القتلَ.[1]



صورة تمثل طبيباً يدوّن حالة مريضه

---

[1] الرهاوي: أدب الطبيب ص263.

أمّا حينما يهملُ الملوكُ والحكّام أمْرَ مراقبة الأطباء والصيادلة، خاصّة حين فقد الأدوية من بلادهم، فيقول **ابن رضوان** في مسؤوليتهم في زمنه: " أمّا الملوك فلا يهتم أحدٌ منهم بشيء من ذلك ولا في الأدوية المأخوذة من بلادهم ...[1]" [2]

وممّا يروى عمّا يقع بين الأطباء من عداوة، وما يفعله الحكّام لمنع الإيقاع ببعضهم البعض. القصّة التي أوردها ابن أبي أصيبعة، حول أمين الدولة بن التلميذ، وأوحد الزمان أبو البركات هبة الله بن علي ملكا، اللذَيْن كانا في خدمة المستضيء بأمر الله. وهي القصة التي أوردناها في باب العلاقة بين الطبيب والطبيب، فلتراجع.

وفي معرض **مراقبة الدواء**، فينبغي أن يتحرّى الملوكُ والحكّام عَمَّن يصفُ السموم والأدوية القتّالة، وفي ذلك يقول **صاعد ابن الحسن**: " ومن اللازم على الطبيب ألاّ يصف شيئاً من السموم والأدوية القاتلة، ولا يذكرها البتة، ولا يصف دواء يسقط الأجنّة، ولا يتكلم إلا بما فيه جلب منفعة أو دفع مضرّة، فإن فعل شيئاً من ذلك فالسلطان أولى به، والله مكافئه في الدارَيْن ". [3]

وعلى النقيض من ذلك؛ فقد نُهي عن ذكر السموم لدى الأمير، وفيه **يقول الرازي**: " وإيّاك، وذكرَ شيء من السموم القاتلة بين يدي الملك؛ أو سوقه، وتقول: إنّي أعرفها، أو واقفٌ على شيء منها، أو على ضررها، فهي بمعزل عن صناعة الطبّ. وليس يحتاج إلى ذكرها ولا استعمالها، وتركُ ذكرها أصلحُ من ذكرها. وإنْ هو سألك عنها فلا تُجِبْ عن ذلك، ولا تَشْرَع في ذكرها، وألقِ نفسك منها جانباً ". [4]

---

[1] وبقية الفكرة أوردتها في فصل الأسباب الموجبة لتدني صناعة الطب، فلتنظر لعدم التكرار.

[2] ابن رضوان: النافع في كيفية تعلم الطب، نسخة تشستربتي 5019 الورقة 6/و، هي في نسخة تشستربتي 4026 الورقة 2/و.

[3] التشويق الطبي 19/ظ.

[4] الرازي: أخلاق الطبيب ص46.

حُنَيْن رفض وصف دواء قتال وآثر الحبس

أما قصة حنين في رفضه أن ينكث العهد ويقبل بوصف دواء قتّال مقابل عرض من الدنيا، فقد رواها ابن أبي أُصَيْبِعَة، عن **عُبَيْد الله بن جبرائيل** في "مناقب الأطبّاء"[1] مفادها أنّ حُنيناً لما قوي أمره، وانتشر ذكره بين الأطبّاء، وكان الخليفة يسمع بعلمه، ولا يأخذ بقوله دواءً يصفه حتى يشاور فيه غيره، وأحبَّ امتحانه حتى يزولَ ما في نفسه عليه، حيث قيل له إنّ ملك الروم ربما دَسَّه عليك، فاستدعاه يوماً، وأمر بأن يُخْلَعَ عليه، وأحضر توقيعاً، فيه أقطاعٌ، يشتملُ على خمسين ألف درهم، فشكر له حنين هذا الفعل، ثم قال: أريدُ أنْ تصفَ لي دواء يقتل عدوّاً، نريد قتله، ولم يمكن إشهاره، ونريده سرّاً، فقال حنين: يا أميرَ المؤمنين، إنّي لم أتعلّم إلا الأدوية النافعة، وما علمت أنَّ أمير المؤمنين يطلب منّي غيرها، فإنْ أحبَّ أنْ أمضي، وأتعلّم، فعلتُ ذلك، فقال: هذا شيء يطول، ورغّبه وهدّده وهو لا يزيد على ما قاله إلى أنْ أمرَ بحبسه في بعض القلاع، ووكل به من يأتيه بأخباره إليه وقتاً بوقت ويوماً بيوم، فمكث سنةً في حبسه غير مكترث بما هو فيه، دأبُه النقلُ والتفسير والتصنيف، فلمّا كان بعد سنةٍ أَمَرَ الخليفةُ بإحضاره وإحضار أموالٍ يرغب فيها، وأحضرَ سيفاً ونِطْعاً[2] وسائرَ آلات العقوبات، فلمّا حضر قال: هذا شيء قد كان، ولا بدّ مما قلته لك، فإنْ أنت فعلت فقد فزت بهذا المال، وكان لك عندي أضعافه، وإن امتنعت قابلتك بشرْ مقابلة، وقتلتُك شرَّ قتلة، فقال حنين: قد قلتُ لأمير المؤمنين إنّي لم أحسن إلا الشيء النافعَ، ولم أتعلّمْ غيره، فقال الخليفة: فإنّي أقتُلك، قال حنين: لي ربٌّ يأخذ بحقّي غداً في الموقف الأعظم، فإن اختارَ أميرُ المؤمنين أنْ يظلم نفسَه، فليفعل، فتبسّم الخليفة وقال له: يا حنين، طِبْ نفساً، وثِقْ إلينا، فهذا الفعل كان منّا لامتحانك لأنّا حذرنا من كيد الملوك، ولننتفع بعلمك، فقبّل حنين الأرضَ وشكر له. فقال له الخليفة: يا حنين، ما الذي منعك من الإجابة مع ما رأيته من صدق عزيمتنا في

[1] صنفه عبيد الله بن جبرائيل عام 423هـ وتوفي 451هـ.

[2] النِّطْع: بساط من الجلد كثيراً ما كان يقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل (المعجم الوسيط).

الحالين؟ فقال حنين: شيئان يا أمير المؤمنين، قال: وما هما؟ قال: الدين والصناعة، قال: فكيف؟ قال: **الدين يأمرنا بفعل الخير، والجميل مع أعدائنا، فكيف أصحابنا وأصدقائنا، ويبعد ويحرم من لم يكن كذا. والصناعة تمنعنا من الإضرار بأبناء الجنس لأنّها موضوعة لنفعهم ومقصورة على مصالحهم، ومع هذا فقد جعل الله في رقاب الأطبّاء عهداً مؤكداً بأيمان مغلظة أن لا يعطوا دواءً قتالاً، ولا ما يؤذي**، فلم أرَ أن أخالف هذين الأمرين من الشريعتين، ووطّنت نفسي على القتل، فإنَّ الله ما كان يضيع من بذلَ نفسه في طاعته، وكان يثيبني. فقال الخليفة: **إنهما لشريعتان جليلتان**، وأمر بالخلع فخلعت عليه، وحُمِلَ المالُ بين يديه، وخرجَ من عنده، وهو أحسن الناس حالاً وجاهاً.[1]

وبالجملة فإنّ علاقة الطبيب مع الحكّام والملوك، كما أنّها لا تخلو من صعوبة، فهي تبلغ بصاحبها إلى المراتب العالية، فضلاً عن كسب المال الكثير، وفي تلك العلاقة مع الملوك والعظماء يقول **ابن رضوان**: إنّ هؤلاء كثيراً ما يضطرّ الطبيبُ الفاضل إلى خدمتهم، وهم قوم لا طاقة للأطبّاء بهم. وقد أخبر جالينوس أنّهم اضطرّوه مراراً، وأشخصوه، ولّما وجد فرصة أظهر أنّه على طاعتهم، ثمّ هرب منهم إلى غير سلطانهم، كما بذل أحد أعظم الملوك في زمانه لأبقراط مئة قنطار ذهب على أنّه يسير إليه، ويخدمه فما أجابه إلى ذلك[2].

وقد تبلغ صناعة الطيب بصاحبها المراتب العالية في الناس، وتسمح له بمخالطة الملوك والعظماء وكسب الكثير من المال؛ **فابن ماسويه**[3] كان من أولاد الفقراء، فبلغ في الطبّ إلى أن صار جليساً للواثق، وهو أعظم ملك كان في ذلك الزمان. ومن حديثه أنّ الواثق بالله أراد أن يصيد السمك من دجلة، فجلس وابن ماسويه جالس عن يمينه فلم يَصِدْ شيئاً، فقال لابن ماسويه: قُمْ عن يميني فإنّك منحوس، ولولا نحسُك لاصطدتُ، فقال ابن ماسويه: أمّا أنا فلست منحوساً،

---

[1] ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص261. العمري: مسالك الأبصار ج9 ص304.

[2] ورد هذا في بداية الفصل، فلينظر، وتنظر قصة أبقراط مطولة في عيون الأنباء ص47.

[3] يوحنا بن ماسويه البغدادي الأكبر (160 ـ 243هـ). أعلام الحضارة ج2 ص568.

لأنّ أبي فلان، وأمّي فلانة، فارتفعتُ إلى أن صرت جليس أعظم ملوك الدنيا، وأمّا أنت فإن أباك فلان الملك، وأمّك فلانة الملكة، فتركت الملك، وتشبّهت بصيّادي السمك، فأيّنا أشدّ منحسة؟ فضحك الملك منه، ثم قال: ما بال الصياد للسمك يجلس ساعة، فيصيد حاجته، وأنا منذ اليوم ما اصطدت شيئاً؟ فقال ابن ماسويه: الله جعل رزق الصياد من الصيد، وجعل رزقك من الملك. فاتعظ الملك من هذا الكلام، وقام عن الصيد، وعاد إلى ملكه.

والحديث الثاني أنَّ عمّ الرشيد ظُنّ أنه مات، فغُسّل، وكُفّن، وكان صالح بن بَهلة[1] قد شاهده قبل ذلك، وعرف ما هو مستعد أن يصيبه، فأعدّ له دواءً لا قيمة له، يقاوم به ذلك الخطر العظيم، وقام وقال للرشيد: لا تعجل على عمّك فإنّه حيّ، ودنا إليه وحلّ كفنه واستعمل ذلك الدواء، ففاق من ساعته. فأعطى صالح بن بَهلة بذلك ثمان مئة[2] ألف دينار في ساعة واحدة.[3]

---

[1] صالح بن بَهلة الهندي (كان حياً سنة 170هـ) طبيب أصله من مسلمي الهند، عاش في بغداد أيام خلافة الرشيد وحظي عنده بعدما أنعش (ابن عم) الرشيد من غيبوبة ظن أنه ميت، مستعيناً بمادة الكندس المعطسة. ينظر أعلام الحضارة ج1 ص482. عيون الأنباء ص477. ومسالك الأبصار ج9 ـ صالح بن بَهلة. والرواية فيها عن ابن عم الرشيد وليس عمه كما في هذا المخطوط لابن رضوان، والله أعلم.

[2] كذا في أصل المخطوط، فلتنظر ؟؟.

[3] ابن رضوان: شرف الطب 113/و.

113

ملخص الصنعة

المال والجاه والرياسة والكرامة والرفعة في الناس وبعد الصيت. اذا كان الطبيب الفاضل
احدا على الفقراء احتسابا و[من] الاغنياء التكسبا وكان محققا في صناعته بارعا فيها فهولاء
متواضعا للناس احبوه وعظموه ورفعوه واشترط على الاغنياء من الاجرة بحسب
ما توجبه الصناعة فاكتسب المال والكرامة والرياسة فتنقلهم فيهم وتعلى منزلته
ان كان ممن يرغب في ذلك وان كان ممن يؤثر الخمول تواضع واجتهد في اخفاء عن الملوك
والعظماء امانيها ولاي كثيرا ما يضطر الطبيب الفاضل الى خدمتهم وهم قوم لا طاقة للاطبا
بهم ولقد اخبرنا جالينوس انهم اضطروه مرارا واشخصوه ولما وجد فرصة اظهر انه على
طاعتهم ثم هرب منهم الى غير سلطانهم ويشترط بذل له الملك في زمانه مائة قنطار ذهب
على انه يسير اليه ويخدمه فما اجاب الى ذلك واعتذر اليه بما عذره فيه وقد يلجئ صناعة
الطب بلغ صاحبها الى المراتب العالية في الناس ومخالطة الملوك والعظماء وكسب الكثير
من المال وقع حديثان احدهما ان ابن ماسويه كان من اولاد الفقراء فبلغ في الطب الى
ان صار جليسا للواثق وهو اعظم ملك كان في ذلك الزمان ومن حديثه ان الواثق بالله اراد
يصيد السمك من دجلة المجلس وابن ماسويه جالس عن يمينه فلم يصد شيئا فقال لابن ماسويه
قم عن يميني فانك منحوس ولولا نحسك لاصدت فقال ابن ماسويه اما انا فلست منحوسا
لان ابي فلان وامي فلانة فارتفعت الى ان صرت جليس اعظم ملوك الدنيا واما انت فان اباك
فلان الملك وامك فلانة فالملك وتركت الملك وتشبهت بصيادي السمك فأينا اشد
منحسة فضحك الملك منه ثم قال له ما بال الصياد للسمك يجلس ساعة فيصيد حاجته
وانا منذ اليوم ما اصدت شيئا فقال ابن ماسويه لان الله جعل رزق الصياد من الصيد
وجعل رزقك من الملك فاتعظ الملك من هذا الكلام وقام عن الصيد وعاد الى ملكه
والحديث الثاني ان عم الرشيد ظن انه مات فغسل وكفن وكان صالح بن بهلة قد شاهده
قبل ذلك وعرف ما هو مستعد ان يصيبه فاعد دواء الابرة لديقاوم به ذلك الخطر العظيم
فجاء وقال للرشيد لا تعجل على عمك فانه حي ودنا اليه وحل الكفن واستعمل ذلك الدواء
فافاق من ساعته فاعطى صالح بن بهلة بذلك مالا لقد دنا في ساعة واحدة ما لم
[...] من غير توسط سوى الطب وحده فنا فوا الطب ادنى

الورقة **113**/و شرف الطب لابن رضوان

الفصل السادس عشر
محنة الطبيب

أو امتحان الأطباء، وقد اهتمّ القدماءُ بذلك كثيراً، فلم يكن ليباشر المهنة أحدٌ، إلا بعد عدّة امتحانات في الطبّ وعلومه الملحقة، فضلاً عن امتحانه أيضاً في باقي العلوم؛ من هندسة، وحساب، وفلك، وفلسفة، ومنطق، ولهم مبرراتهم في هذا، كما يقول **الرهاوي**: " من الأسباب الموجبة لمحنة الطبيب صعوبة الصناعة وطولها، وما يظهر من نفعها للأطبّاء خاصّة ولسائر الناس عامّة. ولولا أنَّ محنة الأطبّاء واجبة، ونفعها ظاهر، لم يضع القدماء فيها كتباً يحثّون بها أهل القدر والسلاطين على الناس وأفاضلهم، على تعليمهم أولادهم هذه الصناعة، ليقدروا أن يفرّقوا بين أهلها، والمدّعين لها، لكي لا يسلموا نفوسهم إلى من لا يستحقّ ذلك.

وقد كتبت أنا رسالة إلى بعض من تولّى أمور بلد الرقّة بإلزام أَلْزَمْنِيه في ذلك، وصفت له فيها كيف ينبغي أن يمتحن الطبيب.

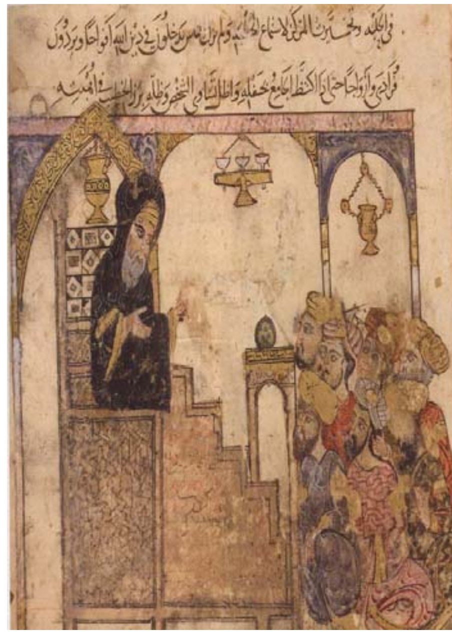
وأوّل ما ينبغي أن يُمتحنَ به المدّعي لصناعة الطب هو أن يُسأل: على رأي أيّ فرقة هو من فرق الأطبّاء؟ فإنَّ من جوابه يبين: هل يعلم كم أجناس فرق الأطبّاء أم لا، وما الذي تراه كلّ فرقة، وما الفروق التي بين الفرق، كأصحاب التجارب، وأصحاب الحيل، وأصحاب القياس[1] " [2].

---

[1] من ذلك كتاب فرق الطب لجالينوس نقله حنين بن إسحق إلى العربية، وله شرح أيضاً مجهول المؤلف في المكتبة الوطنية اليونانية.
والفرق ثلاث: أصحاب القياس، وأصحاب التجارب، وأصحاب الحيل (ابن رضوان: النافع في تعليم صناعة الطب، الورقة 45/ظ).

[2] الرهاوي: أدب الطبيب ص242.

وكان قديماً يخصص كرسيٌّ للطبيب الذي قد تم امتحانه، ونجح في الامتحان، وهذا ما جاء على لسان **الرهاوي** أيضاً بقوله: " لذلك لم يكن الطبيبُ يُمَكّن من الجلوس للطبّ إلا بعد جملة المحنة والاختبار، فإذا أطلق له ذلك، عَمِلَ قدماء الأطباء لهم كرسيّاً يسمى كرسيّ الحكمة[1]، لما فيه من المنافع وحسن الشكل، فكان لا يجلس عليه إلا طبيب، وإلى الآن ذلك الكرسيّ، ينصبه قومٌ من الأطبّاء بالشام، ويجلسون عليه، فكان قديماً من جلس في ذلك المجلس فقد عُلِمَ منه أنّه مُرْضٍ ممتحن.[2]

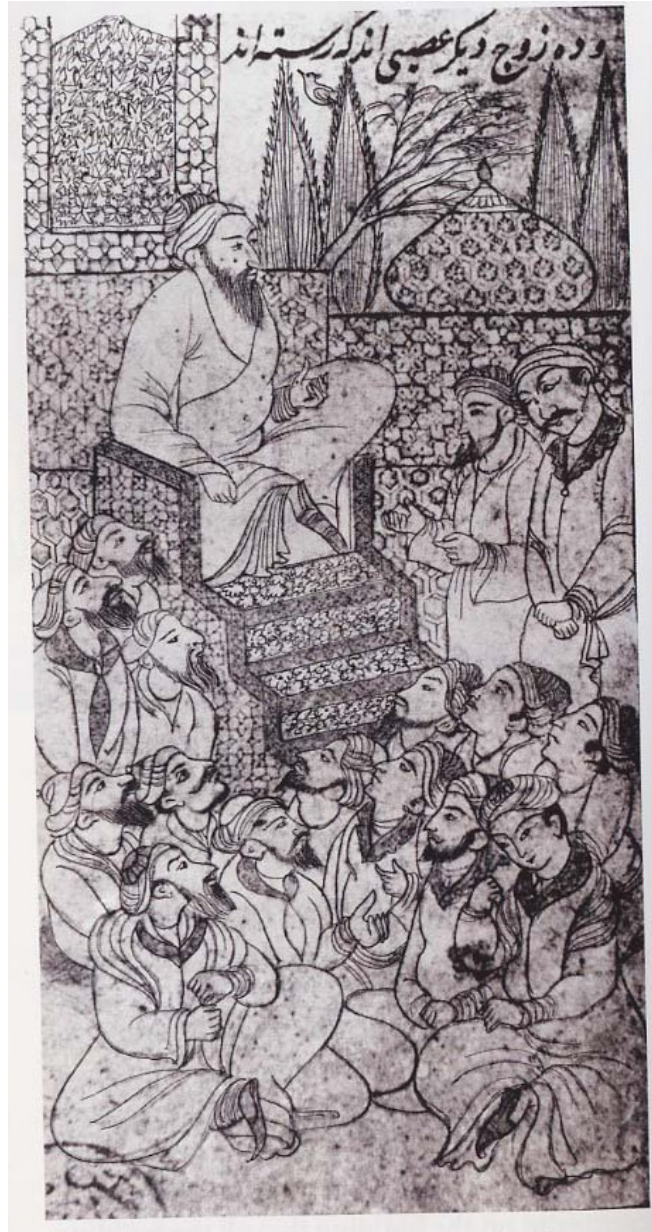


كرسي الحكمة

---

[1] ومنه منصب أستاذ كرسي في الجامعات الحالية.

[2] أدب الطبيب ص263.



كرسي الحكمة

وقد وضع العديد من المصنّفين كتباً مخصّصة لمحنة الطبيب، كالرازي، ومنهم من جعل لها فصولاً في كتبهم، ومن ذلك اخترنا من كتب **أبي بكر الرازي**: " فأوّل ما تسأله عنه التشريح، ومنافع الأعضاء، وهل عنده علم بالقياس، وحسن فهم، ودراية في معرفة كتب القدماء؟ فإنْ لم يكن عنده ذلك، فليس بك حاجة إلى امتحانه في المرضى؛ وإنْ كان عالماً بهذه الأشياء، فأكمل امتحانه حينئذٍ في المرضى، فمتى رأيته يدري، ففي الأدوية ".[1]

ويقول الرازي أيضاً ـ نقلاً عن جالينوس في كتابه " في أنَّ الطبيب الفاضل فيلسوف": " ويحتاج الطبيب أن يعرف الهندسة، والنجوم، وإلا لم يعرف تقسيم الأزمنة، وحال البلدان. ويحتاج أن يعرف المنطق، وإلا لم يحسن أن يقسّم أجناس الأمراض إلى أنواعها، ولا يعرف صواب من أصاب، وخطأ من أخطأ ممّا قد تزيد به من مختلفين. ويحتاج أن يعرف تقدمة المعرفة[2]، ويحتاج أن يكون متكلماً حسن العبارة، وينبغي أن يكون دَرِباً بكتب أبقراط، فهِماً بها.

ثم يسأل من ادّعى هذه الصناعة، التي هي أعظم مقداراً من أن ينالها الإنسان في مدّة عمره، كما قال بقراط: "العمر قصير والصناعة طويلة"، ولذلك يكون من ادعى بجملتها من الجهل بحيث لا يُحتاج أن يمتحن، ولا يفتَّش عن عمله، فأمّا إذا ادعى جزءاً منها، فيجب أن يُسأل عن أيّ جزء هو أحكمه، وقرأ كتبه، وخدم فيه، لأنّ صناعة الطبّ جزءان؛ علمي، وعملي، ومثال ذلك أن علاج الطبائعي[3] هو جزء علمي، وعلاج العين جزء عملي، وكذلك الجبر والشقّ وجميع أعمال الحديد[4].

---

[1] الرازي ومحنة الأطباء ص504. وقصة أبي بكر الرازي المشهورة حين قدم إليه من يقدح عينيه لنزول الماء فيهما (الساد)، فلما سأله عن طبقات العين لم يعرفها، فلم يسمح له الرازي بالقدح.

[2] هو ما ندعوه إنذار المرض حالياً Prognosis.

[3] يقابل حالياً الطبيب الداخلي. وهنا يحدد ضرورة الاختصاص، والامتحان يكون في الاختصاص بشكل دقيق، كل في اختصاصه، الداخلي، والجراح، والمجبر (اختصاص العظام)... إلخ.

[4] أي الجراحة.

لذلك يجب أن يُمتحن منتحلُ كلِّ جزء من الصناعة بمساءلته عما يعمّه وغيره من أجزاء أخر، إذ كان لهم بأسرهم أمورٌ تعمّهم، ثم يُسأل كلٌّ واحدٍ منهم عمّا يخصّه عمله[1]. مثال ذلك أنه إذا حضر من يدّعي علاج العين، فيجب أن يُسأل من أي الأعضاء البسيطة ركبت العين، ولم احتيج إلى جزء جزء من أجزائها في تركيبها. فإن فاته ذلك فاته ماذا يعالج، ولا بماذا يعالج. وإذا كان معالجاً بالحديد لعلل العين المحتاجة إلى ذلك فيلزمه أن يعلم صور الآلات التي يعالج بها، كالمهت[2]. وكذا بقية الأعمال ؛ كالمجبر والفاصد وغيره.". [3]

كما اشتُرِط على الممتحَن أن يكون قد قرأ في كتب الأقدمين ؛ ككتب جالينوس مما جمعه الاسكندرانيون، وثابت بن قرّة، وحنين.

وكذلك فقد كان يُمتحن من التَبَس أمرُه، ومن تزيّا بزيّ الأطباء، وليس منهم، في أفعاله بنفسه وبجسمه، وبأفعاله مع غيره. فكان يمتحن بأخلاقه وأدبه، وتعلّمه في صباه، وفي صحبته مع من تكون، ومن يجالس. وكذلك كان يمتحن في جسمه ؛ من حيث غذائه، وإصلاحه، والمحافظة على صحته، وطيبه، ليكون مثالاً لغيره، ودليلاً على خبرته.

وكان الطبيب يُمتحَن أيضاً في طريقة علاجه ؛ هل يبدأ بالعلاج الدوائي ـ وهو ماندعوه حالياً العلاج المحافِظ Preservative ، ثم ينتقل إلى العلاج الجراحي إذا لم ينجع الدوائي، أم لا. ومن ذلك ما جاء في كتاب "**محنة الطبيب" للرازي**: متى رأيت الطبيب يبرئ بالأدوية الأدواء التي تعالج بعلاج الحديد، مثل الخراجات، والدبيلات، واللوزتين، والخنازير، واللهاة الغليظة، والسلع، والغدد، والمواضع التي تعفن من البدن، والعظام التي تتعرى من اللحم. فمتى أجاد الطبيب جميع هذه، ولا يحتاج في شيء منها إلى البطّ والقطع، إلا أن يدعو إلى ذلك ضرورة

---

[1] وهذا ما يجرى حالياً ؛ ففي البدء يدرس ويفحص بالطب العام، ثم الاختصاص.

[2] هو مقدح العين.

[3] ثم يتابع في محنة الطبائعي بشكل مطوّل (وهو ما ندعوه حالياً الطب الداخلي، وعلم الغريزة) ينظر الرازي ومحنة الأطبّاء، ص505.

شديدة، احمدْ معرفَتَهُ. واحمدْ أيضاً مَنْ يعالِج بالأدوية، فإن الطبيب الحاذق يقدر أن يبرئ جميع هذه بالأدوية والتدبير.

وقال: إنّه ينبغي أن يوثق في الأكثر؛ إمّا من يعمل على طريق التجارب، وإمّا من يزعم أنه طبيب قياس، فإن لم يجتمع هذا لرجل واحد بعينه، فينبغي للمعنى بأمر الطبّ أن يجمع رجلين؛ أحدهما فاضل في الفن العلمي من الطبّ، والآخر كثير الدربة والتجربة، ويصدر عن اجتماعهما في أكثر الأمر، فإن اختلفا في شيء، فليعرض ما اختلفا فيه على كثير من أصحاب التجارب. فإن لم يتهيأ له إلا أحد هذين الرجلين، فليخترْ المجرّبَ، فإنّه أكثر نفعاً في صناعة الطبّ من العاري عن الخدمة والتجربة البتّة.

وقال: ومحنته بالكلام يحتاج أن يكون الممتحِنُ له دَرِباً بالكلام عالماً بالحِجَاج، فأمّا امتحانه بالعمل فيُتهيأ لمن لم يكن كذلك.[1]

ومن نماذج امتحان الطبيب ما ورد عن **صاعد بن الحسن** في محنة الطبيب وسؤاله عن مسائل طبية يرتاض بها:

- لِمَ صار الإنسان يشيب من دون سائر الحيوانات؟
- هل التنفس فعل طبيعي أو إرادي؟
- ما السبب الذي صار لأجله لا يقدر الإنسان يحرّك إحدى عينيه إلى جهة أخرى دون أن يتحرك معها في الجهة التي هي متحركة فيها حتى كأنّ بينهما اتصالاً والتحاماً، وليس العصب الذي يحركهما واحد، لكنّه زوج، وسائر الأعضاء المزدوجة قد يقدر الإنسان أن يحرك الواحد منها دون الآخر، أو يحرك الاثنين في جهتين مختلفتين؟

---

[1] محنة الطبيب للرازي، المخطوط المحفوظ بمكتبة البلدية بالإسكندرية برقم 3813ج، عن مجلة المشرق، الرازي ومحنة الطبيب، لألبير اسكندر، العدد 54 سنة 1960م ص502، وينظر أيضاً باب محنة الطبيب وخلقه وزيه (الحاوي 8: 3835 وما قبلها):

ـ كيف صار التثاؤب يعرض كثيراً لمن يسهر، فكلّما طال زمان سهره تواتر تثاؤبه إلى أن ينام، ثم لا يعرض له ذلك؟
ـ كيف لا يعرض التثاؤب ولا العطاس للنائم؟
ـ ما العلّة في مرارة وسخ الأذن وملوحة الدموع وحموضة المخاط وحلاوة البصاق، على أن هذه الفضول كلها من الدماغ تخرج؟
ـ لِمَ صار الفم يتسع عند الضحك ويضيق عند البكاء؟
ـ لِمَ إذا سمع بعض الناس صريراً حادثاً من احتكاك جسمين صلبين أملسين كالجرد وما شاكله عرض له اقشعرار؟
ـ لِمَ إذا رأى بعض الناس من يأكل شيئاً حامضاً يسيل لعابه وربما ضرس؟
ـ لِمَ إذا أراد بعض الناس من يعصر أو يكسر أو يقطع شيئاً تصطك أسنانه ويعوجّ فكُّه، وأعجبُ من ذلك أنه ربّما رآه إنسان آخر فعرض له من اصطكاك الأسنان وتعوّج الفكّ مثلما عرض له؟
ـ كيف يعرض الضحك من الدغدغة؟ وما الموجب له؟
ـ الشحم معلوم أنّه إنّما يجمدُ على الأعضاء العصبية لبردها كالأغشية وما شاكلها، فكيف جمد على القلب وهو أقوى الأعضاء كلّها حرارة؟
ـ كيف صار الذَّكَرُ لا يمكن أن يتحرّك حركة إرادية إلا في وقت الإنعاظ فقط، والحركة الإرادية تتم في كلّ حال من أحوال الصحّة؟
ـ متى يعدُّ ابتداءُ المرض من اليوم الأول، ومتى يعد من الثاني أو من الثالث؟ ولم ذلك؟[1]
ـ إذا كانت النوائب تأتي في الأمراض الحادة في الإِفراد، فكيف يأتي البُحران[2] في الرابع أو في الرابع عشر أو في العشرين؟

---

(1) للإجابة عليه، ينظر بحر الجواهر ـ ابتداء.
(2) البُحران بالضم، هو الصراع بين الصحة والمرض، فيكون التحول فجأة إما إلا العطب، أو إلى الصحة. ومنه التحلل، والرعاف، والإسهال، والعرق، إلى غير ذلك. ينظر بحر الجواهر في تحقيق المصطلحات الطبية للهروي. وهو استفراغ يحصل دفعة للمريض، كما ذكرنا سابقاً.

وهذا نوع آخر من المسائل :

ـ ما الفرق بين أعراض وجع الكلى وبين أعراض وجع القولون؟

ـ ما الفرق بين ذات الجنب وبين ورم الكبد وعلاماتها؟

ـ ما الفرق بين أعراض القولنج وبين أعراض الحصاة المتولّدة في الكلى والمثانة؟

ـ ما الفرق بين ضعف الماسكة وقوّة القوّة الدافعة في كل واحد من الأعضاء؟

وهذا نوع آخر من المسائل غريب :

ـ هل الفكر المفرط يحدث المرّة السوداء، أو المرّة السوداء تحدث الفكر؟

ـ ما الدواء الذي يفعل في الميت ضدَّ ما يفعل في الحي؛ أعني أنه يعفن البدن الحي، ويحفظ جثة الميت؟

ـ ما الذي يؤثر خارج البدن ضدّ ما يؤثر داخله[1]؛ أعني أنه ينتن العرق، ويطيب رائحة البخر؟

ـ ما الدواء الذي بعضه سمٌّ قاتل، وبعضه يدفع مضرة ذلك السم؟

ـ ما الدواء الذي يجمد الذائب ويذيب الجامد؟

ـ ما الغذاء الذي جُرمه يمسك البطن وماؤه يسهلها؟

ـ ما المرض الذي يعالج ببعض أعراضه؟

فهذه المسائل يليق بالطبيب ويلزمه الجواب عنها، إمّا عندما يُسأل عنها، وإمّا بعد نظره وتفكره فيها، وليس ذلك بعيب، وإنّما العيب والشناعة أن يأتي بغير الجواب بعد المهلة.

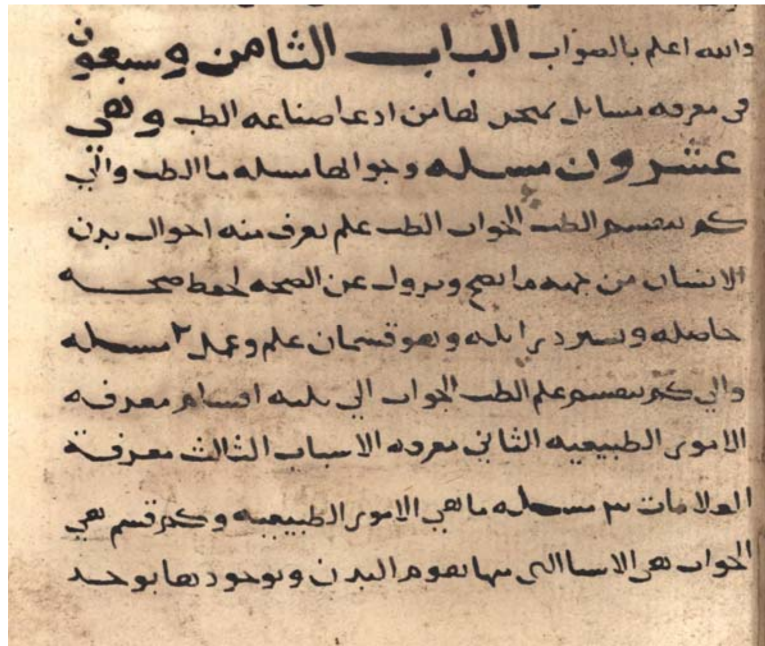
وأمّا أنْ يُمتحَن الطبيب، ويعنت بأنه لا يفرّق بين ماء الرجل وبين المرأة، أو أن يصنع له ماء في القارورة، أو يحمل إليه بولُ الحيوان ولا يعرفه. فذلك ممّا لا ينقص من قدره، وإن حدس عليه، وعرفه فذلك حسن، غير أنّه لا يلزمه.

---

[1] وهذا ما يدعى في الطب الحديث In vivo, in vitro .

وكذلك من يمتحنُ الطبيبَ، وهو صحيح الجسم، فيدفع إليه يده بطلب منه أن يخبره من نبضه بما هو عليه، أو بما قد فعله من غير أن يذكر له شيئاً يتطرق منه مع النبض إلى الاستدلال على ما يحتاج إليه، فإنّما يطلب ما ليس في الممكن. وهذا وأمثاله فليس هو مما ينتفع به، بل هو مما لا يصحّ، وإن صحّ بالاتفاق.[1]

ومن امتحان الطبيب ما ورد عن **جمال الدين محمد بن إبراهيم المارديني**:[2] **في معرفة مسائل يمتحن بها من ادّعى صناعة الطبّ، وهي عشرون مسألة وجوابها:**


والله اعلم بالصواب الباب الثامن وسبعون
في معرفة مسايل يمتحن بها من ادعا صناعة الطب وهي
عشرون مسله وجوابها مسله ما الطب واي
كم ينقسم الطب الجواب الطب علم يعرف منه احوال بدن
الانسان من جهة ما يصح ويزول عن الصحة ليحفظ صحة
حاصلة ويستردها زايلة وهو قسمان علم وعمل ٢ مسله
واي كم ينقسم علم الطب الجواب الى ثلثة اقسام معرفة
الامور الطبيعية الثاني معرفة الاسباب الثالث معرفة
العلامات ٣ مسله ما هي الامور الطبيعية وكم قسم هي
الجواب هي الاشياء التي بها يقوم البدن وبوجودها يوجد

الرسالة الشهابية في الصناعة الطبية، أوبسالا ـ 58، الورقة 49/و

---

[1] صاعد: التشويق الطبي الورقة 35/ظ وما بعد.

[2] الرسالة الشهابية في الصناعة الطبية، من تحقيقنا، تحت الطبع ـ دار البارودي بيروت. الباب الثامن والسبعون.

ـ **المسألة الأولى**: ما الطبّ؟ وإلى كم ينقسم الطب؟.

الجواب: الطبّ علم يعرف به أحوال بدن الإنسان، من جهة ما يصح ويزول عن الصحة، ليحفظ الصحة الموجودة، ويستردّ الصحة المفقودة، وهو قسمان؛ علم، وعمل.

ـ **المسألة الثانية**: إلى كم ينقسم علم الطب؟.

الجواب: إلى ثلاثة أقسام؛ الأول معرفة الأمور الطبيعية، الثاني معرفة الأسباب، الثالث معرفة العلامات.

ـ **المسألة الثالثة**: ما هي الأمور الطبيعية، وكم قسماً هي؟.

الجواب: هي الأشياء التي منها يقوم البدن، وبوجودها يوجد، وبعدم أحدها يكون الموت، وعددها سبعة؛ الأركان، والأمزجة، والأخلاط، والأعضاء، والقوى، والأفعال، والأرواح.

ـ **المسألة الرابعة**: ما هي الأركان، وكم قسم هي؟.

الجواب: هي النار، والهواء، والماء، والأرض، وعددها أربعة، لا سوى.

ـ **المسألة الخامسة**: ما الأمزجة، وكم قسم هي؟.

الجواب: هي الحار، والبارد، واليابس، والرطب، وهي متولّدة من كيفيّات متضادّة.

ـ **المسألة السادسة**: ما هي الأخلاط، وكم قسم هي؟.

الجواب: هي الدم، والصفراء، والبلغم، والسوداء. وأقسام الدم نوعان، والصفراء سبعة، والبلغم تسعة، والسوداء قسمان.

ـ **المسألة السابعة**: ما هي الأعضاء؟ وكم قسماً هي؟.

الجواب: الأعضاء هي آلة البدن، وهي على قسمين؛ مركّبة، ومفردة. **أمّا المفردة**؛ فهي العظام، والغضاريف، والأعصاب، والأوتار، والرباطات، والأغشية، واللحم، والشحم. **وأمّا المركّبة**؛ فهي كالرأس، واليد، والرِجل.

ـ **المسألة الثامنة**: أيُّ الأعضاء أحرّ في بدن الإنسان؟.

الجواب: القلب، ثم الدم، ثم الكبد.

ـ **المسألة التاسعة:** أيُّ الأعضاء أبردُ في البدن؟.

الجواب: العظام، ثم الدماغ، وبعده النخاع، ثم الشحم.

ـ **المسألة العاشرة:** كم هي الأسنان[1]، وما مزاج كلّ واحد منها؟.

الجواب: هي أربعة: سنُّ النمو ومنتهاه نحو خمس وثلاثين سنة، وهو حارّ رطب، وسنُّ الشباب، وهو نحو الأربعين سنة، وسنُّ الكهولة، ومنتهاه نحو الستين سنة، وسن المشايخ، ومنتهاه من الستين إلى آخر العمر، والله أعلم.

ـ **المسألة الحادية عشرة:** كم هي مراتب الأمراض؟.

الجواب: أربع؛ الابتداء، والتزيد، والانتهاء، والانحطاط.

ـ **المسألة الثانية عشرة:** كم هي أقسام الأمراض الحادثة في الأعضاء؟.

الجواب: هي ثلاثة أقسام؛ الأمراضُ الحادثة في الأعضاء الآلية، والحادثةُ في الأعضاء المتشابهة الأجزاء، والمرضُ العامّ، ويُسَمَّى تَفَرُّق الاتصال.

ـ **المسألة الثالثة عشرة:** كم هي أقسام القوى؟.

الجواب: هي ثلاثة، نفسانية؛ وهي في الدماغ، وحيوانية؛ وهي في القلب، وطبيعية؛ وهي في الكبد.

ـ **المسألة الرابعة عشرة:** كم هي العظام؟.

الجواب: هي مائتان وثمانون عظماً، سوى السمسمانيات، والعظم اللامي، والذي ربَّما يوجد في قاعدة القلب[2].

---

[1] السِّن: العمر، تجمع على أسنان. (المعجم الوسيط).

[2] العظام السمسمانية Sasemoid وهي توجد في الرسغ. والعظم اللامي Hyoid في الحنجرة.

❖ يقول ابن النفيس في " شرح تشريح القانون ": فلذلك يكون عدد العظام على هذا، مائتين وثمانية وأربعين عظماً. قال جالينوس: وهذا سوى العظم اللامي الذي في الحنجرة، والعظم الذي في القلب. (شرح تشريح القانون، ص: 153).

ـ **المسألة الخامسة عشرة:** ما هي الغضاريف؟.

الجواب: هي كالعظام، تنبتُ على أطراف العظام، بِيْضٌ لدنة.

ـ **المسألة السادسة عشرة:** كم هي الأعصاب؟.

الجواب: هي سبعة وثلاثون زوجاً، وفرد لا أخ له[1].

ـ **المسألة السابعة عشرة:** إلى كم قسم ينقسم علم الطب؟.

الجواب؛ إلى قسمين؛ حفظ الصحّة، وعلاج المرض.

ـ **المسألة الثامنة عشرة:** أين مسكن السوداء في البدن؟.

الجواب؛ مسكنها في الطحال.

ـ **المسألة التاسعة عشرة:** أين مسكنُ الدم في البدن؟.

الجواب؛ في القلب.

ـ **المسألة العشرون:** أين مسكنُ الصفراء في البدن؟.

الجواب؛ سلطانها في الكبد، ولطيفها في الرئة. والله أعلم وأحكم.

هذا وللعديد من أعلام الطب العربي مسائل للامتحان وأجوبتها، منها لحنين بن إسحاق، ولدانيال بن شعيا، وغيرهما. [2]

---

[1] يقول ابن سينا: الفرد النابت من طرف العصعص يتفرق في عضل المقعدة والقضيب نفسه وعضلة المثانة والرحم وفي غشاء البطن وفي الأجزاء الأنسية الداخلة من عظم العانة والعضل المنبعثة من عظم العجز. (ابن سينا: القانون ج1 ص 58).

[2] ينظر مخطوط دانيال بن شعيا الذي عاش بين القرنين الخامس والسادس الهجريين، والمخطوط هو " مسائل وأجوبتها" لدانيال بن شعيا، مخطوط نور عثمانية ــ استانبول برقم (2/3576). (حميدان: أعلام الحضارة ج1 ص439).

المقالة الاولى والحمد لله وحده وجملة ما فيها ماية وثلاثة
وثلثون مسئلة ولله الحمد ابتدا مسائل المقالة الثانية
ومن الله تعالى اسئل الاعانة

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

لم اجناس الامراض ثلاثة اجناس امراض الاعضا البسيطة
وامراض الاعضا المركبة وامراض تفرق الاتصال وهو انحلال
الفرد لاي معنى كانت اجناس الامراض ثلثة ولم يكن لا اقل
من ذلك ولا اكثر لان البدن مركب من اعضا بسيطة ومن اعضا
مركبة وتفرق الاتصال هو يحدث في هذين الجنسين فتصير
اجناس الامراض ثلاثة ما هي امراض الاعضا البسيطة
اصنافها سو المزاج الثمانية وهي الحار والبارد والرطب
واليابس وما تركب منها حار رطب وحار يابس وبارد رطب
وبارد يابس وكل واحد من هذه الثمانية اما ان يكون بمادة

مسائل وأجوبتها لدانيال بن شعيا

الفصل السابع عشر
في معاش الطبيب وما ينبغي أن يدّخره

ما ينبغي للطبيب أن يدّخره ويعدّه، من وقت صحّته لوقت مرضه، ومن زمان شبابه إلى زمان شيخوخته، وما يجب أن يكون عليه الطبيب من الصحّة، وراحة البال، والحالة النفسيّة الجيّدة، وذلك ليستطيع أن يقدم خدماته للمرضى بفكر وقّاد وسريرة صافية، بحيث لا يقع في خطأ، ولا يهمل صواباً يصل إليه، هذا فضلاً عمّا يجب أن يكون عليه من الحالة المادّيّة الجيّدة، كيلا يلجأ إلى أساليب في الطبّ هدفها كسب المال وحسب، فما أشنع أن يكون الطبيب محتاجاً لما ينقصه من تدبير أمور معاشه، فتراه يضطر إلى اتّباع أساليب مخالفة للأنظمة والقوانين الطبّيّة؛ من إجراء عمليات جراحية لا ضرورة لها ـ إلا لكسب المال ـ وغير ذلك مما يسيء إلى شرف تلك المهنة النبيلة. أما إذا كان في معيشته مرتاحاً، وحاجاته مؤمنة من مسكن وملبس ومأكل وغير ذلك مما يحتاج إليه الطبيب في حياته، فينصرف في جميع أوقاته إلى الرقيّ بمهنة الطب وتطويرها وزيادة خدمة الناس بما ينفعهم. والأطباء العرب القدامى نبّهوا إلى ذلك كثيراً، ومنهم **الرهاوي** الذي يقول مطوّلاً:

" من واجب العاقل إذ كان يجد جميع حالات الجسم تتغيّر، وتنتقل من محمود إلى مذموم، كالذي نجد من ضعف القوّة عند الشيخوخة بعد قوّة الشباب، ومن سوء حال المرض بعد حال الصحّة، ومن قبح الفقر بعد جمال اليسار، ومن كثرة الحاجة مع العيلة بعد قلّتها، ومن الوحدة، ونظائر هذه الانتقالات وما جانسها، مثل الفاقة إلى مصالح الشتاء، وما يردّ من برده، بعد الغنى عن ذلك بحرّ الصيف. فلذلك وأمثاله ينبغي للعقلاء كافة أنْ يعدّوا مصالحهم، ويدّخروا منافعهم من

صيفهم لشتائهم، ومن صحّتهم لوقت مرضهم، ومن وقت شبابهم لوقت شيخوختهم. وإذا كان ذلك واجباً على سائر الناس، نافعاً لهم بأسرهم، فذلك للطبيب أنفع، وعليه الاهتمام بذلك أوجب، لأنّ المقصود في ذلك من سائر الناس إنّما يدخل الضررَ عليه وعلى عائلته فقط، فأمّا الطبيبُ فإنّه إذا عدم مصالحه عدم صواب رأيه، ليقسم فكره لطلب حاجته، فدخل من ذلك الضرر على تدبيره للأصحاء والمرضى، فلذلك ينبغي للطبيب أن لا يدبر صحيحاً ولا مريضاً إلا بعد خلوّ فكره، وإعطائه لنفسه وجسمه ما يحتاجان إليه من مصالحهما، فأمّا لنفسه فسكونها بما ذكرناه من الأمن من الفاقة والأمور المفزعة، وأمّا جسمه فبأن تكون سائر حواسه قد أخذت بحظّها النافع لها من محسوساتها، وذلك بأنْ لا يكون جائعاً، ولا عطشاناً، وقد استعمل من الطيب ما يوافقه، ولا يشتاق معه إلى ما يشمّه من الطيب في منازل الناس، ومثل ذلك القول في باقي حواسه لتكون بذلك نفسه مسرورة، وعقله صافياً، وحواسه نقيّة من كلّ كدر، فيصفو له بذلك رأيه، وتصحّ مشورته ".(1)

ويضيف الرهاوي أيضاً ما يجب على الطبيب من تهذيب النفس والأخلاق مسبقاً، وكذا التكوين العائلي، من اتخاذ زوجة وأولاد، كل ذلك قبل فوت الأوان، وقبل أن يأتي سن الشيخوخة، فيقول: " إنّ جميع ما ينبغي أن يدّخر، ويقتنى قبل فوت وجوده نوعان:

أحدهما: محنة جميع مصالح النفس وآدابها، وذلك مأخوذ على معدنين: أحدهما الكتب الشرعية، فإنّها جامعة لآداب النفوس، ومصالح الأخلاق، ومأمنة للإنسان، فعليك بها أولاً، وخُذْ نفسَك وولدك بحفظها بعد درسها على العلماء بها، ثم تأمل لغتَها، وتدبّر معانيها، فإنّك تظفر بما هو من آداب النفس.

والنوع الثاني: هو الشامل لجميع مصالح الجسم، وما يقوِّم عضواً عضواً من أعضائه. ومعرفة ذلك مأخوذ من علم صناعة الطبّ، ووصولك إلى ذلك يتمّ

---

(1) الرهاوي: أدب الطبيب ص282.

بدرس كتبها على أهلها، في حال الشبيبة وزمان الحداثة، ثم الخدمة لهم في أعمال الصناعة، لتقتنيها قنية صحيحة، فإنّه منها تترقى إلى صلاح نفسك أيضاً، إن كان قد فاتك الدربة الشافية بكتب الشرائع، ولأنَّ أهلها لّما علموا أنَّ الإنسان مؤلّف من شيئين: هما النفس، والجسم، وأرادوا إصلاح الإنسان أثبتوا في كتبهم من مصالح الجسم ومصالح النفس والأخلاق أيضاً.

ويجب أنْ تعلم أن بقاءك بنوعك لا يتمّ إلا بالزوجة لتنسل، والزوجة والنسل لا يتمّ بقاؤهم إلا بمثل ما به تبقى بشخصك، من قوت وكسوة ومنزل، وسائر ما به يتمّ البقاء، ويحفظ الصحّة، وبغير شكّ أنه يجب أن تعنى باكتساب جميع ذلك، وحفظه لوقت الحاجة إليه، ولاكتساب ذلك طريقان: أحدهما بمباشرتك الأعمال التي منها يقتني، وتوصل إليه بجسمك، كالذي يعمله ملتمس ذلك من الأرض ليعدّ له من الحبوب قوتاً، ومن القطن مثلاً كسوة وما أشبه ذلك، وذلك لا يتمّ إلا بفلاحتها، والعناية بتنقيتها، وسائر مصالحها وزراعتها وسقيها، وما لا يتم له غرض إلا به من أعمالها، فبذلك يكسب قوتاً وستراً، له ولمن سواه.

ومن كان من الأطباء يحتاج أن يعاني تدابير أهل المدن، ويعدو على عيادة مرضاهم ـ مع كثرتهم وترفهم ـ فبغير شكّ أنّه لا يمكنه اقتناء مصالحه لجسمه، ولا بمعاناة صناعة أخرى غير صناعة الطبّ، فيكتسب منها أقواته، لأنه بذلك ينقطع عن علمه وصناعته، فيصير ضاراً قتّالاً أكثر من ضرر الأمراض"(1).

أمّا مشروعية وضرورة أن يكون للطبيب أجرٌ لقاء تقديمه الطبّ للناس، فقد تطرّق إليه العلماء والمشرّعون، وأعطَوْا الطبيب ما يستحقّه. وفي ذلك يختم الرهاوي قائلاً:

" فقد بقي ـ إذن ـ أن يكون للطبيب مادة يكتسبها من جهة صناعته، وممّن يدبرهم بها في حفظ صحّة أصحّائهم، وفي معالجة مرضاهم. ومن المعلوم أنّ من الناس فقراء، ومنهم مياسير، وقد أوجب المنعم ـ تبارك وتعالى ـ على أهل النعم

---

(1) المصدر السابق.

الإحسان والإفضال على الفقراء والمساكين، بما غرس في قلوبهم وعقولهم من العدل والرحمة، فلذلك يجب على الموسر الذي قد أسبغ الله عليه نعمه، وعلى الطبيب الذي قد شرّفه الله بفضل علمه أن يستعملا العدل مع الفقراء والضعفاء، ليكون نفعُ صناعة الطبّ عامّاً شاملاً للقوي والضعيف" (1).[2]

يروى أنّه انطلق نَفَرٌ من أصحاب رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ فنزلوا في حيّ من أحياء العرب، فلم ينزلوهم ولا أقرّوهم، فَلُدِغَ رجلٌ منهم، فأتوا القوم، فقالوا: عندكم دواء؟ فقالوا: نعم، ولكن لا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلاً على ذلك، فجعلوا لهم قطيعاً من الغنم، فأخذوا الغنم، وسألوا عن ذلك رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ فقال: كُلوا، واضربوا لي معكم بسهم.

ففي أخذهم القطيع دليل على جواز أخذ الأجرة على الطبّ، ويؤيّده قوله صلّى الله عليه وسلّم: اضربوا لي معكم بسهم. وقد بوّب عليه الترمذي في جامعه باب أجرة الطبيب، وبوّب عليه أبو داود في سننه باب كسب الطبيب.[3]

ولقد كان في الماضي، على الموسر أن يسهم في مساعدة الطبيب بالمال، ليستطيع أن ينفق على نفسه وعلى الفقراء من المرضى، وفي ذلك يقول الرهاوي، ومحذّراً من الشحّ، مع ضرورة الادّخار للشيخوخة: " وأما وجه العدل من الموسر فهو أن يستعمل النصفة مع طبيبه، وإذا كان يعلم أن اجتهاده في إصابة المال وسائر مصالحه إنما هو لأجل حاجته، وحاجة عائلته إليه، ويعلم أيضاً أن الطبيب محتاج إلى مثل ذلك، وقد انتفع الموسر بما يملكه الطبيب من صناعة في نفسه ونفوس أهله، فمن الواجب ـ إذن ـ أن يقوم الموسر للطبيب بمصالحه، من قوته وكسوته ودراهمه، التي بها يصل إلى مصالح نفسه وجسمه، ومتى لم يستعمل الموسر ما ذكرناه من العدل اضطر الأمرُ الطبيبَ إلى أن يستعين على إجابة مصالحه من أوجه أخر، فإنْ تشاغل بصناعة أخرى ليكتسب منها وبها الدراهم عدل عن صناعة

---

(1) المصدر السابق.

(2) وبذلك قال أبقراط: الطب اكتساباً للأغنياء، واحتساباً للفقراء.

(3) الذهبي: الطب النبوي ص128 ـ 129.

الطب، فقلّ فهمه وعلمه بها[1]، ودخل الضرر على الموسر والضعيف في نفوسهما وأجسامهما، وإن التمس كسب الدراهم من الضعفاء، وتعذّر ذلك من جهتهم لفقرهم، ثم امتنع عليهم، كان في ذلك إضرار بهم.

فتأمّل ـ أيّها الموسر ـ ما يدخل على الضعيف والطبيب وعليك في نفسك من الضرر الذي لا يتلافى من استعمال الشحّ والجور، واحذره فإنَّ هلاك النفوس مقرون به، واحذر ـ أيها الطبيب ـ من الشحّ بصناعتك؛ شحّ ذوي اليسار بمالهم عليك وعلى ضعفائهم، فإن مالهم ينفذ، ومالك باق ما بقيت، فلذلك يكون يسارك وعزّك والحاجة إليك مبقّى دائماً عليك، فاحذر من استعمال الجور فإنّه عن جنبتي العدل، فإن أصبت المال ومصالحك فلا تفرط في ذلك فتستعمل التبذير، بل صن الدرهم واحفظه لوقت حاجتك إليه، إذ كنت إنّما تصل إلى مصالحك به، فإنّك إن احتجت في وقت الشيخوخة، أو وقت المرض إليه، ولم تجد مذخوراً عندك، ثم التمسته من الناس ـ وخاصة من أشحائهم ـ حلَّ بك ما هو أعظم من ألم الشحّ والشيخوخة والمرض. ففي الخروج عن الاعتدال إلى التبذير من المضار ما ذكرته، وحسبك به بلاء، وأمّا الخروج عن العدل إلى الضغط والشحّ على النفس والأهل بما كسبته أيضاً ـ أيها الطبيب ـ من الدراهم ففيه من المضار ما لا يحصى كثرة، ؛ فأولها، أنّك تكون فقيراً من مصالحك أنت وأهلك وولدك مدّة حياتك، ومن تخلّف له مالك وما تعبت فيه فإنّه يصفك بشحّك، ويذمّك دائماً. وأيضاً: فإنّك متى كنت للمال جامعاً عرضت نفسك للمكاره، بل للتلف. فصن نفسك وجسمك بلزوم العدل واستعمال الاعتدال في تكسّبك للمال، وفي نفقته، بل في سائر أفعالك، تنج بذلك من الآثام، وتكون منزلتك منزلة الكرام. ". [2]

---

[1] ومن هنا فإن الأنظمة والقوانين المرعية في مزاولة مهنة الطب، بأن لا يزاول الطبيب مهنة أخرى غير مهنة الطب، إلا التعليم فهو جائز. وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً في فصل تعليم الطب.

[2] الرهاوي: أدب الطبيب ص287.

وممّا يروى من الإغداق على الأطباء من الحكام والملوك إكراماً لهم ومكافأة على علاجهم ما ذكره ابن أبي أصيبعة عن مهذب الدين عبد الرحيم الدَّخْوار قائلاً: " ولمّا كان الملك العادل بالشرق، وذلك في سنة عشر وستمائة، مرضَ مرضاً صعباً، وتولّى علاجه الحكيم مهذّب الدين إلى أن برئ ممّا كان به، فحصل له منه في تلك المرضة نحو سبعة آلاف دينار مصرية، وبعث إليه أيضاً أولاده الملك العادل وسائر ملوك الشرق وغيرهم، الذهبَ والخلع والبغلات بأطواق الذهب وغير ذلك. وكذلك توجه الملك العادل إلى الديار المصرية في سنة اثنتي عشْرة وستمائة وأقام بالقاهرة، أتى في ذلك الوقت وباءٌ عظيم إلى أن هلك أكثر الخلق، وكان قد مرض الملك الكامل ابن الملك العادل، ومرض كثير من خواصه، وهو صاحب الديار المصرية، فعالجه بألطف علاج إلى أن برئ، وحصل له أيضاً من الذهب والخلع والعطايا السنية شيء كثير. وكان مبلغ ما وصل إليه من الذهب نحو اثني عشَر ألف دينار وأربع عشرة بغلة بأطواق ذهب، والخلع الكثيرة من الثياب الأطلس وغيرها.[1]

ويُرْوَى أنَّ أبا الفرج جرجس بن يوحنا اليبرودي لّما توفي ظهر في تركته ثلاثمائة مقطع رومي، وخمسمائة قطعة فضة ألطفها ثلاثمائة درهم. وليس ذلك بكثير لأن الشخص متى تحققت أعماله، وصفت نيته، وطلب الحق، وعامل الصحيح، واجتهد في معرفة صناعته، كان حقاً على الله ـ تعالى ـ أنْ يرزقه. ومتى كان بالضدّ عاش فقيراً، أو مات بائساً.[2]

معاش الأطبّاء: كان للأطباء على وجه العموم من لدنّ الخلفاء والملوك والأمراء الإحسان الكبير والأفضال الغزيرة والجامكية الوافرة والصلات المتواترة، وكانت تطلق للأطباء مع الجامكية الجراية[3] وعلوفة للدابة التي يركبونها. فأطبّاء الخاصّ ــ أي المنقطعون للخليفة أو السلطان ــ وكانا اثنين لكلّ منهما في الشهر

---

[1] عيون الأنباء ص730.

[2] عيون الأنباء ص613. مسالك الأبصار للعمري، ج9 ص376.

[3] الجامكية: مرتب موظف الدولة. الجراية: المرتب الجاري (المعجم الحديث).

خمسون ديناراً، ولمن دونهما من الأطباء ــ وهم نحو ثلاثة أو أربعة ــ المقيمين بالقصر، لكلّ واحد منهم عشرة دنانير، ولكلّ طبيب بالمارستان ما يقوم بكفايته؛ فكان للأطباء بالمارستان على العموم جامكية خمسة عشر ديناراً، وكان لبعضهم رزقان ـ أي ثلاثون ديناراً ــ في كل شهر لعملين مختلفين؛ كرضي الدين الرحبي (534 ـ 630هـ)، فقد أطلق له صلاح الدين يوسف بن أيوب في كلّ شهر ثلاثين ديناراً، ويكون ملازماً للقلعة والبيمارستان (بيمارستان صلاح الدين بالقاهرة)، وبعد وفاة صلاح الدين أطلق له الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل خمسة عشر ديناراً، ويكون متردّداً إلى البيمارستان.[1]

وممن كان يأخذ رزقين جبريل بن عبيد الله بن بختيشوع (ببغداد في القرن الرابع الهجري)؛ فكان يأخذ برسم الخاصّ ثلاثمائة درهم شجاعية[2]، وبرسم البيمارستان ثلاثمائة درهم شجاعية سوى الجراية.[3]

وكان من أطباء الأمير سيف الدولة بن حمدان من يأخذ رزقين لتعاطيه علمين، ومن يأخذ ثلاثة أرزاق لتعاطيه ثلاثة علوم، وكان في جملتهم عيسى الرقي (المعروف بالتفليسي أو النفيسي) الطبيب (كان حيّاً سنة 333هـ) فكان يأخذ ثلاثة أرزاق؛ رزقاً للنقل من السرياني إلى العربي، ورزقين آخرين بسبب علمين آخرين.[4]

ولم يكن حسن موقع الأطباء لدى الخلفاء والملوك وإطلاق الجامكية الوافرة لهم بمانع من أن يشتغل بعضهم في البيمارستان احتساباً؛ فقد كان كمال الدين الحمصي المظفر بن علي (كان حيّاً سنة 612هـ) يتردّد على البيمارستان الكبير النوري بدمشق يعالج المرضى فيه احتساباً.[5]

---

(1) تاريخ البيمارستانات ص28. عيون الأنباء ص672. أعلام الحضارة ج4 ص520.

(2) منسوبة إلى الأمير سنجر الشجاعي.

(3) القفطي: إخبار العلماء ص103. تاريخ البيمارستانات ص29.

(4) إخبار العلماء ص166. عيون الأنباء ص609. تاريخ البيمارستانات ص30. أعلام الحضارة ج2 ص175.

(5) عيون الأنباء ص682. تاريخ البيمارستانات ص30. أعلام الحضارة ج4 ص426.

وقد بلغ بعض الأطبّاء من حسن الحال ورغد العيش إلى درجة عظيمة، فقد بلغ بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع (توفي 256هـ) ـ في زمن الخليفة المتوكّل ـ في الجلالة والرفق وعظم المنزلة وحسن الحال وكثرة المال وكمال المروءة ومباراة الخليفة في اللباس والزيّ والطيب والفرش والضيافات والتفسّح في النفقات مبلغاً يفوق حدَّ الوصف.[1]

ومن المستملح أن نتعرَّف إلى ما كان يتقاضاه طبيب جراح في العهود السالفة من أجور لعملية أجريت لمريض؛ يقول سليمان ابن حسان في حديثه عن أحمد بن وصيف الصابئ (الصاري) الحرّاني ـ وكان طبيباً ببغداد في حوالي سنة 350هـ، وكان عالماً بعلاج العين ـ قال: أخبرني أحمد بن يونس الحرّاني، فقال: حضرت بين يدي ابن وصيف، وقد أحضر سبعةَ أنفس لقدح أعينهم، وفي جملتهم رجل من أهل خراسان، أقعده بين يديه، ونظر إلى عينيه، فرأى ماءً متهيئاً للقدح، فساومه على ذلك، واتفق معه على ثمانين درهماً، وحلف أنّه لا يملك غيرها، فلمّا حلف الرجل، اطمأن، وضمّه إلى نفسه، فوقعت يده على عضده، فوجد فيها نطاقاً صغيراً، فيه دنانير، فقال له ابن وصيف: ما هذا؟ فتلوّى، فقال له ابن وصيف: قد حلفت بالله حانثاً، وترجو رجوع بصرك إليك، والله، لا أعالجك إذ خادعت ربَّك، فطلب إليه، فأبى أن يقدحه، وصرف إليه الثمانين درهماً، ولم يقدح عينيه.[2]

المعالجة احتساباً، واكتساباً: إن المرضى الذين يعالجهم الطبيب احتساباً، لا يألون عن تقديم الخدمة لهذا الطبيب فيما يحتاجه منهم، ردّاً على صنيعه الجميل معهم. وفي ذلك يقول ابن رضوان: فإن كان الطبيب الفاضل يجبُ أن يكون فيلسوفاً فهو وليٌّ من أولياء الله ـ عزَّ وجلّ ـ وإنّما يحصل له هذه السعادة إذا عبد الله ومجّده بأفعاله، وعالج المرضى احتساباً، وطاعته لله في إظهار ما خلقه من المنافع

---

[1] القفطي: إخبار العلماء ص72. تاريخ البمارستانات ص30. أعلام الحضارة ج1 ص179.

[2] ابن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء ص81. القفطي: إخبار العلماء ص284. تاريخ البيمارستانات ص30.

التي جعلها في الموجودات. فظاهر أنّه فيما يفعله في الاحتساب لا يخلو من وجود ما يعمّ به الضروري في الحياة، وفيما يحتاج إليه في أبواب الجميل، شبهه به إذا عالج المرضى لم يتركوه من الهدايا وما يجري مجراها، فيصير حاله في ذلك بحال الحارث فإنَّ هذا ينظّف أرضه، ويزرعها أفضل ما يقدر عليه، فتزكى له الواحد أضعافاً كثيرة، وكذلك ما يكتسب الطبيب بالاحتساب في علاج المرضى. ثم إنَّه لا بدَّ أن يخرج في الأرض أشياء أُخَر نافعة له؛ مثل التبن الذي هو ليس غرضه الأول، فينتفع به الأكّار[1] في علوفة بهائمه، وكذلك ما يحصل للطبيب من ألطاف المرضى التي ليس إلى غرضه الأول.

وقد يثور شكّ هو أن يقال: إنّا نرى كثيراً ممَّن يتطبَّب، وممَّن يتفلسفُ على غير هذه الطريقة الحميدة، فالجواب: إنّ هؤلاء أرديا ء، ولن تخلو طاعة الله من قوم أردياء، وليس ينبغي بسبب رداءة هؤلاء ونحسهم أن يُنقِصَ الطبيبَ أو الفلسفةَ أقاويلُ هؤلاء، فإنْ قيل: إنّهم الأكثرون، فالجواب: إنّه ليس بالأكثر، ولا بالأقل يوجب الفضائل، ولا تبطل، فإنّه لو كان في الناس رجلٌ واحد بالصفة التي ذكرناها، لكان ذلك هو وليّ ذلك، فكيف، وقد كان في الناس خلق كثير بالحالة التي وصفناها؟.

ومع هذا فهذه الحال طريق سالك من شاء سلكه، فإنّه إن كان له طبع مُواتٍ وحرص على التعلّم، أدّاه ذلك إلى ما ذكرنا من ولاية الله ـ تعالى، وتيقّنه، وثبت عنده أنّه قد حصلت له السعادة، وفاز بالطوبى، فلم يهوله الموت، ولا غيره ممّا يهول العامة.

فلو لم يكن في صناعة الطب إلا هذا؛ أعني اكتساب ولاية الله ـ عزَّ وجلّ ـ وتهوين روعات الموت، لكانت صناعة تستحقّ أن تؤثر وتقدم، ويواظب عليها، ولا يستغفل عنها بشيء سواها. ثم إنّها صناعة يكتسب بها المال والجاه والرئاسة والكرامة والرفعة في الناس وبعد الصيت، فإذا كان الطبيب الفاضل يعالج الفقراء

---

[1] الأكار: الحراث (المعجم الوسيط).

احتساباً والأغنياء اكتساباً، وكان محدقاً في صناعة الطبّ، بارعاً فيما يتولاه، متواضعاً للناس، فأحبّوه، وعظّموه، ورفعوه، واشترط على الأغنياء من الأجرة بحسب ما توجِبُهُ الصناعة، فاكتسب المال والكرامة والرئاسة، وتتقدّم فيهم وتعلو منزلته، إنْ كان ممَّن يرغبُ في ذلك.[1]

ويقول ابن رضوان أيضاً: وقد يتهيَّأ للطبيب أن يشترط في علاج مرض ذوي اليسار ـ عندما تشتدّ بهم الأوجاع ـ ما شاء من المال، فمتى علم أنّه يفي لهم بما شرطوا له عليه من إبراء عللهم، فليكن ما يكتسبه من المال مصروفاً في المنافع التي تليق به؛ أعني إسعاف الأقارب والمعارف، ولا يمتنع في حال من الأحوال من علاج الفقراء والإفضال عليهم.[2]

---

[1] علي بن رضوان (388 ـ 460هـ): شرف الطب، مخطوط استانبول ـ حكيم أوغلي برقم 3 ـ 691 ـ ف ـ 894. الورقة 112/ظ.

[2] ابن رضوان: النافع في تعليم صناعة الطب، الورقة 21/و.

الفصل الثامن عشر
علاقة الطبيب بالطبيب

الطبيب أخٌ لكلّ طبيب، وزميلٌ في رسالة نبيلة وعمل مجيد، وهو تطبيق لقوله تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾ (1)، وبذلك يكون الأطباء متعاونين فيما بينهم على رعاية صحّة الأمّة، متكافلين بتنوع اختصاصاتهم في شتّى فروع الطبّ، ملتزمين بآداب المهنة وقوانينها. وعلى الطبيب إن احتار أن يستشيرَ، فإذا دعت الحاجة إلى المختصّ أحال إليه، وتعاون معه، حتى في نفس اختصاصه ـ فلا مانع أن يستشيرَ زميلَه لما فيه مصلحة المريض، وليس في ذلك منافسة ولا انتقاص، وفي ذلك أيضاً تطبيقٌ لقوله تعالى: ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ (2).

ولقد ذكر الأطبّاءُ العرب القدماء ضرورة استشارة الاختصاصي، وتنوّع الأعمال الطبّيّة، كلٌّ في اختصاصه، حتى بإشراف الطبيب المعالج الأساسي، ومن ذلك ما ورد مثلاً عن ابن رضوان في الاستعانة بطبيب آخر واستدعائه، إنْ لزم الأمر، وفي معرض حديثه عن واجب الطبيب أنْ يكون ملمّاً بجميع أصناف الطبّ والجراحة والصيدلة، فيقول: " والأحسن بالطبيب أن يكون عارفاً بهذه الأشياء معرفةً بالغة، فإن اضطر في حال إلى أن يتناولها بنفسه فعل، وذلك أنّه قد تفاجئ

---

(1) المائدة ـ 2.

(2) النحل ـ 43. الأنبياء ـ 7.

أمراضُ لا تمهل الطبيبَ إلى أن يحضر من يحتاج إليه من أهل هذه الصناعة هذه، فيضطرّ هو إلى أن يتناولها، فيكون من حيث أمرَ بها طبيباً، ومن حيث تناولها آلة، وذلك أن الطبيب من حيث هو طبيب بمنزلة الملك العظيم المقيم في وسط مملكته، كذلك الطبيب يأمر كلَّ واحد منهم من أصحاب المهن بما ينتفع به المرضى"[1].

هذا والطبيب أخو الطبيب، يؤثر حضرته، ويحفظ غيبته، ويقدّم له العون والنصح والمشورة، كلّما دعت الحاجة، ولا يأكل لحمه، ولا يتبع عورته. والأطبّاء فيما بينهم متكافلون كذلك على رعاية بعضهم البعض؛ إذا مرض أحدٌ منهم أو من أفراد أسرته أو انتابته محنة أو شدّة أو عجز أو وفاة، وهذا ما هو معمول به في نقابة الأطبّاء.

ومن واجب الطبيب أن يكون سخيّاً بحصيلة علمه وخبرته على من هم دونه في ذلك من زملائه، فلا يضنّ بتعليم أو تدريب، ومن أبلغ ما قيل في ذلك قول رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم: " إذا مات ابنُ آدم انقطع عملُه إلا من ثلاث؛ صدقةٍ جارية، أو علمٍ يُنتفَعُ به، أو ولدٍ صالح يدعو له"[2].

وقد وضع أبقراط في العهد الذي اشترط فيه على متعلّم صناعة الطب أن يكون ـ كما ذكر سابقاً[3] ـ متكفّلاً بعيال معلّمه في الطب بعد مماته، وأن يُعلّم من

---

[1] النافع في تعليم صناعة الطب، الورقة 29/ظ.

[2] رواه أبو داود والترمذي والنسائي والبخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة، وزاد بعضهم على ذلك أشياء وردت في أحاديث، ونظم الجميع الجلال السيوطي بقوله:

إذا مات ابن آدم ليس يجري عليه من خصال غير عشر
علوم بثها ودعاء نجل وغرس النخل والصدقات تجري
وراثة مصحف ورباط ثغر وحفر البئر أو إجراء نهر
وبيت للغريب بناه يأوي إليه أو بناء محل ذكر
وتعليم لقرآن كريم فخذها من أحاديث بحصر

(العجلوني: كشف الخفاء ج1 ص99 ـ الحديث رقم 277).

[3] ينظر قسم أبقراط في الباب الثاني.

أراد منهم صناعةَ الطبِّ دون مقابل، فيقول في القسم: "... وأرى المعلّم لي في هذه الصناعة بمنزلة آبائي، وأواسيه في معاشي، وإذا احتاج إلى مال واسيته وواصلته من مالي. وأما الجنس المتناسل منه فأرى أنّه مساوٍ لإخوتي، وأعلّمهم هذه الصناعة إن احتاجوا إلى تعلّمها بغير أجرة ولا شرط....".

لكن هذا لا يمنع أن ينقد العالِمُ من سبقه من الأعلام في الطبّ ــ حتى المشهورين منهم، وفي ذلك قد وضع ابن رضوان في كتابه " النافع في تعليم صناعة الطب" ثلاثةَ أبواب؛ الأوّل في الأسباب المغلطة لواضعي الكتب في الطبّ بعد جالينوس، والثاني في أنّ حُنَيْناً يَغْلَطُ، ويُخْطِئ في مصنّفاته أغاليط ضارّة في صناعة الطبّ، والثالث في أنّ الرازي يظنّ أنّه قد فهم ما في كتب جالينوس، وليس ما ظنّه من ذلك صحيح.[1]

وينهي ابن رضوان كلامه حولَ هذا الموضوع ــ بعد إيضاح أغلاط أوردها فيقول: فاحذرْ أن يصيبك ما أصاب حُنَيْناً والرازي، فإنّه إذا كان قد عرض لكلّ واحد من هذين الرجلين ما ذكرناه، ونبهنا عليه، وأرشدْنا إليه وموضع كلّ واحد منهما الموضع الذي ذكرناه إدمان النظر والتدريس لكتب القدماء، فما ظنّك بمن لم يبلغ مبلغهما، ولا درس مثل درسهما، ولا أدمن النظر مثلما أدمناه، فلذلك ينبغي إن أردت أن تكون طبيباً فاضلاً قريباً من جالينوس أن تحكم ما ذكرناه شيئاً شيئاً إلى أن تصير طبيباً فاضلاً وفيلسوفاً كاملاً إن شاء الله تعالى.[2]

ولابن رضوان آراء شخصية اشتهر بها، وسبَّبت له كثيراً من المناقشات الحادّة، خاصّة قصّة خلافه مع ابن بطلان[3]، والرسالة التي بعثها إليه بعنوان " في التنبيه على ما في كلام المختار الحسن بن عبدون البغدادي من الأغاليط"، والتي ردّ عليه بها ابن بطلان برسالة سمّاها " المقالة المصرية"، هاجم بها آراء ابن رضوان في

---

(1) النافع في تعليم صناعة الطب، الورقة 27/ظ.

(2) النافع في تعليم صناعة الطب الورقة 54/و، ولقد اسغنينا عن ذكر الأغلاط لعدم التطويل.

(3) مختار بن الحسن البغدادي المعروف بابن بطلان، طبيب من نصارى الكرخ، توفي 455هـ. (أعلام الحضارة ج2 ص474).

التعليم الطبّي، والتي يردّ عليها أيضاً ابن رضوان برسالة أسماها "مقالة الشيخ أبي الحسن علي بن رضوان في أنّ ما علمه يقين وحكمة، وما ظنّه مختار بن الحسن البغدادي غلط وسفسطة"، وأتبعها برسالة ثالثة اضطرت ابن بطلان إلى الرحيل عن مصر.[1]

كَيْدُ الأطبّاء

لا شكّ أن بعض ضعاف النفوس من الأطبّاء، قد تساورهم أنفسهم بأن يكيدوا لزملائهم، ظنّاً منهم أنهم بذلك قد يوقعوا الأذى بمنافسيهم في المهنة، وذلك بأساليب متعدّدة؛ منها الإساءة إلى سمعة الزميل أمام المريض، أو الوشاية به إلى الحكّام بما هو ليس فيه، وكل هذا لا يعود بالنتيجة السلبيّة إلا على صاحبها، ناهيك عن ضعف الثقة التي تلمّ بهذا الطبيب الواشي من قبل المرضى وغيرهم.

وممّا يُذكر عمّا يجري بين الأطباء من عداوة، لما كان يقع في نفوس البعض من الحسد والغيرة وإيقاع المكائد، وما يفعله الحكّام لمنع الإيقاع ببعضهم البعض؛ ما رواه ابن أبي أصيبعة عن أمين الدولة بن التلميذ، وأوحد الزمان أبو البركات هبة الله بن علي ملكا، اللذين كانا في خدمة المستضيء بأمر الله. وكان أبو البركات أفضل من ابن التلميذ في العلوم الحكميّة، فأمّا ابن التلميذ فكان أكثر تبصرة بصناعة الطبّ، واشتهر بها، وكان بينهما شنآن وعداوة، إلا أنّ ابن التلميذ كان أوفر عقلاً وأخيَر طباعاً من أبي البركات. ومن ذلك أنّ أوحد الزمان كان قد كتب رقعة يذكر فيها عن ابن التلميذ أشياء يبعد جداً أن تصدر عن مثله، ووهب لبعض الخدم شيئاً واستسرّه أن يرميها في بعض طرق الخليفةِ من حيث لا يعلم بذلك أحد، وهذا ممّا يدلّ على شرّ عظيم، وأنّ الخليفة لّما وجد تلك الرقعة صعب عليه جدّاً في أوّل أمره، وهمّ أن يوقع بأمين الدولة، ثم إنّه بعد ذلك رجع إلى رأيه، وأُشير عليه أنْ يبحث، ويستأصل عن ذلك، وأن يستقرّ من الخدم من يتهمه بهذا

---

[1] ينظر عيون الأنباء ص326.

الفعل. ولمّا فعل ذلك انكشف له أنّ أوحد الزمان كتبها للوقيعة بابن التلميذ، فحنق عليه حنقاً عظيماً، ووهب دمه وجميع ماله وكتبه لأمين الدولة بن التلميذ. ثم إنّ أمين الدولة كان عنده من كرم الطباع وكثرة الخيرية أنّه لم يتعرّض له بشيء، وبَعُد أوحد الزمان بذلك عن الخليفة، وانحطّت منزلته.

ولأمين الدولة فيه قوله:

لنا صديقٌ يهوديٌّ حماقَتُهُ　　إذا تكلَّمَ تبدو فيه مِنْ فيهِ
يتيهُ، والكلبُ أعلى منه منزلةً　　كأنّه بَعْدُ لم يخرجْ من التِّيْهِ

ولبعضهم في أمين الدولة وأوحد الزمان:

أبو الحسنِ، الطبيبُ، ومقتفيه　　أبو البركات في طَرَفَيْ نقيضِ
فهذا بالتواضعِ في الثريّا　　وهذا بالتكبُّرِ في الحضيضِ[1]

ولم يخل داود الأنطاكي من إيذاء حصل له من قبَل تلاميذه، ذكره في مقدمة تذكِرته، وقد أوردناه في الفصل العاشر من هذا الكتاب، فليراجع.[2]

---

[1] عيون الأنباء ص349.

[2] ينظر أيضاً معالجة المريض من قبل طبيبين أحدهما من أدعياء الطب، وذلك في فصل أدعياء الطب.

الفصل التاسع عشر
اتخاذ الطبيبةِ المُحْسِنة

نادى الأطبّاء العرب والمسلمون قديماً بضرورة وجود طبيبة، خاصّة في أمور النساء، ولما قد يعرض لأماكن الحشمة عندهن من أمراض، حتى أنه قد تتعرض إحداهنّ إلى مخاطر كثيرة، بسبب وجود أمراض في تلك الأماكن، لا يرضون معالجتها لشدّة حيائهم، ولعل **أبا القاسم الزهراوي** أحد هؤلاء الذين كانوا بأمسّ الحاجة إلى وجود الطبيبة، فيقول مثلاً في معرض حديثه عن إخراج حصاة المثانة للنساء: " فإنْ عرض لأحدٍ منهنّ حصاةٌ، فإنَّه يعسرُ علاجُها، ويمتنعُ لوجوه كثيرة؛ أحدُها أنَّ المرأة ربّما كانت بِكْراً[1]، والثاني أنّك لا تجدُ امرأة تبيح نفسها للطبيب، إذا كانت عفيفةً، أو من ذوي الحرم، والثالثُ أنّك لا تجدُ امرأةً تُحْسِنُ هذه الصناعة ـ ولاسيّما العمل باليد، والرابعُ أنّ موضع الشقِّ على الحصاة من النساء بعيد من موضع الحصاةُ فيحتاج إلى شقّ غائر، وفي ذلك خطر.

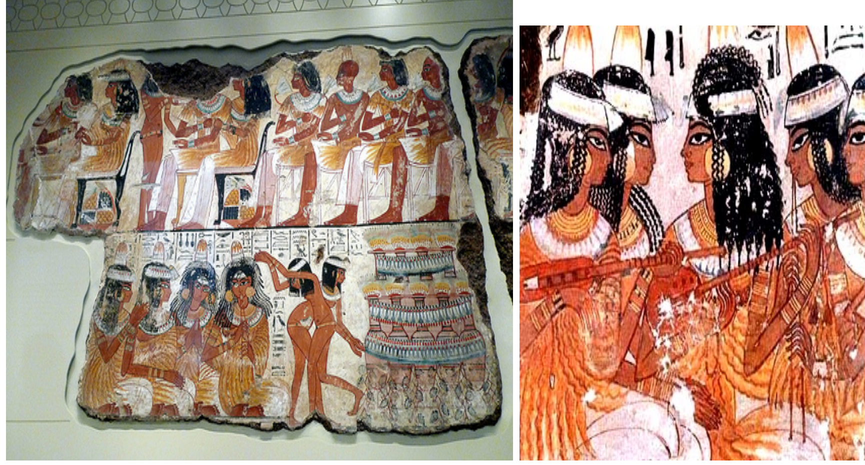
فإن دعت الضرورة إلى ذلكُ فينبغي أن تتخذ امرأةً طبيبة محسنة، وقليلاً ما توجد، فإنْ عدمتها فاطلب طبيباً عفيفاً رفيقاً، ويحضر معه امرأة قابلة محسنة في أمور النساء، أو امرأة تشير في هذه الصناعة بعض الإشارة، فتحضرها، وتأمرها أن تصنع جميع ما تأمرها به من التفتيش على الحصاة أولاً؛ وذلك أن تنظر إنْ كانت المرأة بكراً فينبغي أن تدخل الإصبع في مقعدتها، وتفتّش على الحصاة، فإنْ

---

[1] حيث كان إخراج حصاة المثانة يتم بمساعدة الإصبع عن طريق المقعدة أو الفرج.

وجدَتها وضغطتها تحت إصبعها، فحينئذ تأمرها بالشقّ عليها. فإن لم تكن بكراً وكانت ثيباً تأمرُ القابلة أن تدخل إصبعها في فرج العليلة، وتفتّش على الحصاة..." .[1]

بيد أن تاريخ الطبّ يبدي لنا أنه كان هناك العديد من الطبيبات المشهورات في العهود السالفة، يداوين المرضى من النساء والرجال، ولعلّ أقدمهن الطبيبة **بيشيشت** التي عاشت في عهد الأسرة الخامسة من الفراعنة (نحو 2494 ـ 2345 قبل الميلاد)، وحملت لقب رئيسة الأطبّاء، وفقاً للنقش الموجود على شاهد قبرها، ويعدّ الباحثون السيدة بيشيشت أوّل طبيبة في التاريخ المدون.[2]



نقش فرعوني يمثل السيدة بيشيشت

---

[1] الزهراوي في الطب لعمل الجراحين ص395.

[2] ينظر كتاب " روح مصر القديمة من تأليف آنا رويز، طبعة الهيئة العامة المصرية للكتاب 2006م.

ويذكر ابن أبي أصيبعة أيضاً ما نصّه: " ووجدتُ ببعض المواضيع أن أبقراط[1] كانت له ابنة تسمى **مالاتا أرسا**، وكان لها براعة في صناعة الطبّ، ويقال إنّها كانت أبرع من أخويها ثاسلوس ودراقن ".[2]

أمّا في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية فكان تعلّمُ الطبِّ ومعاناة التطبيب مكفولين لأيّ كان؛ ذكراً أو أنثى، مبصراً أو مكفوفاً. وورد ذكر العديد من الطبيبات؛ منهم:

زينبُ، طبيبة بني أود[3]: كانت في أول ظهور الإسلام، وكانت عارفةً بالأعمال الطبّيّة، خبيرةً بالعلاج ومداواة آلام العين، والجراحات، واشتهرت بين القبائل العربية بذلك. وذكر ابن أبي أصيبعة عن أبي الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني قوله: " أخبرنا محمّد بن خلف المرزبان، قال: حدّثني حمّاد بن إسحاق عن أبيه عن كناسة عن أبيه عن جدّه، قال: أتيت امرأةً من بني أود، لتكحِّلني من رمد كان قد أصابني، فكحَّلتني، ثم قالت: اضطجعْ قليلاً حتى يدور الدواء في عينيك، فاضطجعت، ثم تمثلت قول الشاعر:

أمخترمي ريبُ المنون، ولم أَزُرْ   طبيبَ بني أود، على النأي، زَيْنَبَا

فضحكت، ثم قالت: أتدري فيمن قيل هذا الشعر؟ قلت: لا، قالت: فيَّ، والله، قيل، وأنا زينب، التي عناها، وأنا طبيبة بني أود. أفتدري من الشاعر؟ قلت: لا، قالت: عمّك أبو سِمَاكٍ الأسدي[4]". [5]

---

[1] ظهر أبقراط سنة ست وتسعين لبختنصر ملك الكلدانيين (604 ـ 561 ق.م). (عيون الأنباء ص48).

[2] عيون الأنباء ص56.

[3] أود: بطن من باهلة، وباهلة قبيلة كبيرة من العدنانية، وباهلة هي بنت صعب بن سعد العشيرة من مذحج.

[4] الأزدي في تاريخ البيمارستانات. لعلّه عِمران بن حِطان، أبو سِمَاك (؟ ـ 84هـ/702م). (الأعلام ج5 ص70).

[5] عيون الأنباء ص181. تاريخ البيمارستانات ص15 ـ 16. أعلام الحضارة ج1ص34.

ورُفَيْدة الأسْلُمية بنت الطبيب سعد الأسلُمي[1]: طبيبة عاشت في أواخر العصر الجاهلي وصدر الإسلام، من قبيلة بني أسلُم. قال ابن إسحاق في السيرة: كان رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة ــ من أسلُم يقال لها رُفيدة ــ في مسجده، كانت تداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضبعة[2] من المسلمين. وقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد قال لقوم حين أصابه السهم بالخندق: اجعلوه في خيمة رُفيدة حتى أعوده من قريب.[3]

وعائشة بنت أبي بكر الصديق زوجة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ــ (9 ق.هـ ـ 58هـ): مارست الطبَّ، وروت الحديث. قال أبو نعيم في الحلية: قال عروة بن الزبير: ما رأيتُ أعلم بالطب من عائشة، فقلت: يا أمتاه[4]، لا أعجب من فقهك... ولكن أعجبُ من علمك بالطبّ، كيف هو؟ ومن أين هو؟ وما هو؟ قال: فضربت على منكبي ثم قالت: أي عُرَيَّةَ، إن رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ـ كان يسقم في آخر عمره، فكانت تقدم عليه الوفود من كلّ وجه فتنعت له، فكنت أعالجه، فمن ثم.[5]

ونسيبة بنت الحارث الأنصارية وتُعْرَفُ بأمِّ عطيَّة الأنصارية (توفيت نحو عام 70هـ): عاشت في أواخر العصر الجاهلي وبعض سنوات من عصر الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وحضرت سبع غزوات، كانت تُعالج المرضى، وتداوي

---

(1) بنو أسلم قبيلة قحطانية.

(2) ضبع: جُنَّ، صار مجنوناً، ومضبوع: مجنون (تكملة المعاجم). ضابع بالسيف: مد يده للمنازلة. والضبع: ما بين الإبط إلى نصف العضد من أعلاها. وضبع: جبنَ. (المعجم الوسيط).

(3) عيسى: تاريخ البمارستانات ص9و16. حميدان: أعلام الحضارة ج1 ص33.

(4) حيث كنيت بأم عبد الله أخي عروة بن الزبير ابن أختها. القلقشندي: صبح الأعشى، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، وزارة الثقافة بمصر، ج5 ص435.

(5) أعلام الحضارة ج1 ص37. أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، المتوفى 430هـ: حلية الأولياء، مكتبة الخانجي ومطبعة السعادة بمصر 1932م. ج2 ص43 ـ 50.

الجرحى، وتصنع الطعام للمقاتلين، وذلك من قولها: " غزوت مع النبي ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ سَبعَ غزوات، فكنت أصنعُ لهم طعامهم، وأخلفهم في رحالهم، وأداوي الجرحى، وأقوم على المرضى". [1]

وأخت الحفيد أبي بكر، محمد بن زهر الأيادي الأندلسي الذي عاش بين (507 ـ 595هـ)، وابنتها: كانتا عالمتين بصناعة الطبّ والمداواة، ولهما خبرة جيّدة بما يتعلق بمداواة النساء، وكانتا تدخلان إلى نساء المنصور أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، ولا يُقَبِّلُ للمنصور وأهله وَلَداً إلا أخت الحفيد أو ابنتها لّما توفيت أمها. [2]

وأم الحسن الطنجالي بنت أحمد القاضي بن عبد الله بن عبد المنعم: طبيبة، أديبة، شاعرة، من سكان لوشة في الأندلس، عاشت في القرن الثامن الهجري، أخذت الطبَّ عن والدها القاضي أحمد ابن عبد الله بن عبد المنعم المتوفى سنة 750هـ، وقد كانت تقوم بتدريس الطبّ وتعليمه أيضاً. [3]

---

[1] تاريخ البيمارستانات ص8. أعلام الحضارة ج1 ص42.

[2] عيون الأنباء ص524. تاريخ البيمارستانات ص8. أعلام الحضارة ج5 ص454.

[3] تاريخ البيمارستانات ص17. أعلام الحضارة ج5 ص141.

الفصل العشرون
الأسباب الموجبة لسقوط صناعة الطب، ونتائجُها

هذا ما كان عليه شرف صناعة الطبّ في العهود السالفة، فما الأسباب التي أوجبت سقوطها؟ هذا ما تساءل عنه الأطباء العرب القدماء، فإذا كانوا هم يشكون في زمنهم من سقوط صناعة الطب، فماذا نقول نحن في زمننا هذا؟ وما هي الأسباب غير التي ذكرها الأطباء العرب في زمنهم؟ بالتأكيد هناك أسباب تتبع كل زمن، تؤدي إلى تدنّي في مستوى الأداء المهني الشريف، إن كان في الالتزام، أو في الآداب، أو في التنظيم.

أمّا الأسباب التي أوردها الأطبّاء العرب والمسلمون فكثيرة، فقد ذكر **إسحاق الرهاوي** جملةَ أسبابٍ؛ **أحدُها**: هو أنّ الداخل فيها يداخله الطمع، والثقة بأنّه لا يفتقد عليهم منها علم ولا عمل، فسهّلوا على نفوسهم، فتركوا النظر والقراءة والخدمة، ومالوا إلى المَلَق والمَخْرَقة والتغلغل في أنواع الحِيَل، فضاعت الحقائق، وأقدر الناس على علاج ذلك الملوك، ومن لهم القدرة على افتقاد ذلك وصلاحه.

والسببُ الثاني: استهانةُ الناس بحقوق الأطبّاء في ضروب الإكرام والمكافأة، فاحتاج الأطبّاء أن يحتالوا لهم مع الطبّ معاشاً آخر، من تجارة ودكّان وحيلة، فعرض بذلك استهانة بالصنائع لّما حسب ثمرتها، ولّما فعلوا ذلك خسّوا وأسقطوا الصناعة، فكان الأمر في ذلك سببه بالشيء الدائر على ذاته بالعكس، أعني أنهم كلّما هربوا هانوا، وكلما هانوا هربوا.

والسببُ الثالث: دخولُ من لا يليق بها ـ وليس من أهلها ـ فيها، فلقلّة معرفتهم بأصولها وبقدرها وبحقوقها أفسدوا محاسنها، فخسّت بهم، ولطمع أهل الشره في صنعتهم انصرفوا إليهم رغبة في استخدامهم مجاناً، وأخذ حوائجهم بأيسر ثمن، ولّما علم أولئك الأطباء المحتالون أنّ ذلك سبباً لهلاك الضعفاء، وسقوط أهل هذا الشأن، وتركهم الاهتمام بقراءة أو تعليم، وأيضاً فلإلْفِ أكثر الناس لهذا الطمع صار من خرج عن هذه الطبقة المحتالة، وقصَدَ لتوفية الصناعة حقها، مذموماً مسبوباً، إذا لم يؤات الجهّال إلى ما يريدونه.

والسبب الأعظم الذي قد سهّل في هذا الوقت على كل أحد الدخول في صناعة الطب، والجسارة عليها هو الرأي الذائع المشهور، أن كل ما يفعله الإنسان من الأفعال المحمودة والمذمومة، فذلك الفعل عن الله ـ تبارك ـ لا عن الإنسان، فلمّا سمع الأشرار وأصحاب الحيل أن من سرق أو قَتَل أو زَنَى، أو فعل أي فعل كان ذلك منسوباً إلى الله تعالى، إذ هو فاعل لذلك، وثَق الداخلون في صناعة الطبّ بذلك، واطمأنّوا، فجسر كل أحد على الدخول فيها، والتعرّض لسقي الأدوية والفصد والبزل وغير ذلك بغير معرفة، لعلمهم بأن الناس عند هلاك من يهلك على أيدي الأطبّاء يعذرونهم، ويردّون ذلك إلى قضاء البارئ.

ولو كان الأمر جارياً على القوانين المتقدّمة من قديم في زمان اليونانيين، بأن لا يطلق لأحد الدخول في صناعة الطب إلا لأولاد عائلة أسقليبيوس، وإذا دخل فيها داخل لم يؤذن له في التصرّف بها إلا بعد محنته بطرق المحن التي يسأل عنها الطبيب، لما جَسَر على الدخول فيها من لا يصلح لها، وبعد امتحانه، ومعرفةِ ما قرأه، ومقدارِ خدمته، فقد كان يوضع له قانون يعمله مع المرضى، يَبِيْنُ منه صوابه من خطئه، عظيم قدره ونفعه.[1]

ويقول ابن رضوان في الأسباب الماحية لمحاسن صناعة الطبّ: " وهذه الأسباب كثيرة، وترجع كلّها إلى رداءة من ينتحلها، فإنّها لّما كثرت الصناعة بكثرة

---

[1] الرهاوي: أدب الطبيب ص239.

الكتب، وأهملت كتب أبقراط وجالينوس، برغبة الناس في جوامعها وتفاسيرها، وفي سرعة الكشف وصناعة الطبّ، وحبّ اللذة والراحة، صار كثير ممّن ينتحلها يتقدم فيوهِم الناس أنّه فاضل فيها ـ وهو في نفسه بخلاف ظاهره.

ثم إنّ الأدوية التي قوام علاج المرضى بها، نسي أكثرها، وبدّل بعضها لأسباب أنت تقف عليها من هذا القول: حكى جالينوس في كتاب المعجونات أنّ ملوك عصره كانوا ينفذون الجرايات والصلات إلى كلّ ناحية وإلى كلّ بلد، فيقومون بذلك من ينفذ الأدوية المأخوذة من كل بلد، ويجدونها ويجهزّونها إلى كل ناحية. وأمر أبقراط وجالينوس وديسقوريدس الأطبّاء بمشاهدة الأدوية في مبدئها وانتهائها، ومعرفتِها عيناً لا خبراً، واختبارِ قواها قبل استعمالها، وأمرُ ذلك اليوم بخلاف ذلك كله.

أمّا الملوك، فلا يهتمّ أحدٌ منهم بشيء من ذلك، ولا في الأدوية المأخوذة من بلادهم، وكأنّهم لا يمرضون أو يمرض أحد من أولادهم، فيستغيث إليها، وإذا مرض واحد منهم أنفذ صاحباً له فاشتراها من الصيادلة من غير فحص عن صحّة الدواء أو جودته، أو طرائه[1] أو عفنه، وغير ذلك مما يحتاج إلى معرفته من أمر الدواء. وأما التجّار والصيادلة؛ فرغبتهم في ذلك الربح فقط، فليس يبالون ما باعوا منها، فكثيراً ما يلتمس من أحد منهم دواء، فلا يكون عنده، فيبيع شيئاً آخر على أنّه ذلك الدواء.

وبقي ذلك الاشتهار متمادياً في الناس، إذ قد عدم من يعتبر ذلك من الأطبّاء؛ فما رأيت في عمري أحداً منهم يعرف شيئاً من الأدوية، فإن وجد فيهم من يعرف شيئاً فإنما يعرف بعض المشهورين في مدينته، أو حانوت واحد من حوانيت الصيادلة فقط. واسمع مني ما شاهدته ووقفت على صحّته منذ عشرين سنة إلى يومنا هذا، فإنّه إذا تغيّرت في مدة عشرين سنة أدوية كثيرة، فما ظنّك بما تغير منها منذ عمر جالينوس ـ وهو نحو من ألف سنة أو أكثر؟ والذي شاهدت أنّ مدينة مصر عظيمة، والتجّار يسافرون إليها من كل ناحية، فذكروا أنّه كان منذ

---

[1] طراءة وطراء: كان ناضراً (المعجم الوسيط).

تسع سنين بالهند ريح عظيمة عاصفة، رَمَت بالإهليلج[1] الهندي حصرماً قبل أنْ يستكمل في شجره، وأن تاجراً جمع من تحت الشجر عدلين[2] من ذلك الحصرم، وحملها إلى عدن فلم تُشْتَرَ منه، وحملها إلى جدّة فلم تُشتر منه، وحملها إلى مصر فلم تشتر منه، فلما يئس من ثمنه ندم على ما أنفقه فيه، فسأل شيخاً جالساً على الطريق ـ يبيع بزعمه سفوفاً للشحم ونحوها ـ شراءه على أن يدفع إليه في كل شهر ديناراً، فباعه منه خمسين رطلاً بدينار، فجعل ذلك الشيخ من ذلك الحصرم نحواً من رطل في قصعة في مفرشه، وتكلّم عليه: هذا إهليلج هندي بلا نوى، ينفع من كذا وكذا كيف شاء، فباع الأوقيّة أوّلاً بثِمْن درهم، وتسامع الناس به، فباع الأوقية بدانق[3]، ثم بربع درهم، إلى أن باع الأوقيّة بسدس دينار. وجعل أطبّاء المدينة يتواصفون هذا الحصرم من غير اعتبار قوّته، وتسامع بذلك المغاربة والروم وغيرُهم من الأمم، فصار لا يُحمل من الهند إلى يومنا هذا سوى الحصرم على أنه إهليلج هندي خالص. فأنت تعلم أن قوّة حصرم الإهليلج إذا قيست بقوة الإهليلج الكابُلي المنضج، كانت بمنزلة قوّة بلح النخل من ثمر النخل ".[4]

ويقول **هبة الله بن يوسف** في أسباب سقوط صناعة الطبّ أيضاً: إن أهمّ أسباب دثور صناعة الطبّ هو إهمال الملوك العناية بها، ويؤكد أن صلاحها يقوم على عدة أمور؛ أولها وأعظمها اعتناء الملوك بأمرها، وهذا الاعتناء يتوجّه نحو ثلاثة أشياء، أولها الاعتناء بمعلّمها، والثاني الاعتناء بمتعلّمها، بتدريبهم في مزاولة المرض، وأن تتخير منهم من ترجى غايته فيها. ثم أن تتفقد أحوالهم فتميز من ينفع منه وتظهر له مزيّة على باقيهم، فإنّ ذلك ممّا يدعوهم إلى بذل اجتهادهم، ويقضي بشدة حرصهم وتنافسهم على الفضيلة.[5]

---

(1) ثمر نبات Terminallia Horrida . ويسمى الإهليلج الشعيري. (عيسى: معجم النبات ص179).

(2) العدل: الكيس.

(3) الدانق: سدس الدرهم (الوسيط).

(4) ابن رضوان: النافع في تعليم صناعة الطب تشستربتي 5019، 5/ظ.

(5) المقالة الصلاحية، الورقة 232/و/ظ، عن حاشية أدب الطبيب ص264.

هذا ولعل من أحد أسباب ظهور مدّعيّ الطب[1]، هو تدنّي وانحطاط مهنة الطبّ الأساسية، وهذا أيضاً موجود في كل زمان ومكان، والتدنّي لا يكون بالمستوى العلمي وحسب، بل بالمستوى الأخلاقي والمهني أيضاً.

قال **ابن رضوان**: وبسبب انحطاط الطبّ، صار يتسمّى بالطبّ الفصّادون والكحّالون والبطّالون[2] والختّانون وكثيرٌ من الصنادلة[3] ولُقّاط الأدوية، وقومٌ كثيرٌ لّما اجتمع فيهم بعضُ هذه المهن أُعجبوا بأنفسهم وظَنُّوا أنّهم أطبّاءُ فضلاء، فوثبوا على تأليف الكتب، ومن القبيح الشنيع أن يتعاطى رجلٌ وضْعَ كتابٍ قد سُبِقَ إليه، فاستقصى مَن قَبْله ما صنّفه. وأشنعُ من هذا وأقبحُه أن يكون المتأخرّ قصيراً فيما وضعه عمّا وضعه الأوّل، وإن اتفق أنْ يكون المتأخّر أيضاً غالطاً أو مخطئاً فيما وضعه، فتلك غاية الشناعة والقبح، ونحن نجد كثيراً من واضعي الكتب بعد جالينوس على هذه الحال. والأسباب الداعية لها كثيرة؛ منها حبّ النباهة وبقاء الذكر، ومنها الصيت، ليسلبوا بها مالاً، أو يخدعوا بعضَ ذوي الأموال.[4]

---

(1) ينظر الفصل الخاص بذلك.

(2) رجلٌ بطّال: ذو باطل، بيّن البُطول. والبطَلة: هم السحرة (القاموس المحيط).

(3) هم الصيادلة. وتقال بالشكلين.

(4) ابن رضوان: النافع في كيفية تعلم صناعة الطب، مخطوط تشستربتي 5019، الورقة 29/و ــ 29/ظ.

خاتمة

إنّ هذه المهنة ـ مهنة الطبّ ـ وجدت مع وجود الإنسان، وأُلهمت من الله تعالى، من أجل المريض، وقد جعلها الله من أولى المهن التي شرّفها، فكان اسم الحكيم من أسماء الله تعالى، وزادت شرفاً إذ كان النبي إدريس ـ عليه السلام ـ أوّل من تكلّم بها، وتناقلت بين الملوك إلى أن ذاعت بين الناس، وشَرُفَتْ أيضاً بأن جُعل علمُ الأبدان قسيماً لعلم الأديان. ولحفظ شرفها وُضعتْ لها العهود والنواميس، وقُيّدَتْ بشروط عديدة، صوناً لشرفها.

وما هذه النظم والقوانين والعهود التي وُضعتْ عبر العصور إلا لرفعة صناعة الطبّ، فهل حافظنا على هذه العهود والمواثيق؟ أم هل عبثت أيادي الشر في كل شيء في الكون؟ قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ**﴾ [1]، فهل كان الإنسان قادراً على حمل تلك الأمانة؟ وهل قدر الطبيب على حمل تلك الرسالة؟ لعل الجواب يحتمل وجوهاً عدة، قال الله تعالى: " **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ**"[2]، ومنهم من تقاعس وقصّر.

إنّ ما ذكرناه في كتابنا هذا من فصول حوت على الكثير ممّا قيل في شرف الطب عبر التاريخ، لدليل على الخوف على تلك المهنة الشريفة، والحرص على

---

(1) الأحزاب ـ 72.

(2) الأحزاب ـ 23.

سلامة هذا الشرف، وصونه وتنقيته من كلّ ما يدنسه، وذلك بمخافة الله تعالى، وبالقيود والشروط والعهود التي وُضِعَت على متعاطي صناعة الطب، والعقوبات التي طبّقت بحقّ مخالفيها، وبالمقابل العطايا التي أُغدِقَتْ على من أخلصوا فيها، وأعطَوْها حقّها من الأمانة والصيانة والإتقان.

آمل من الله ـ عزّ وعلا ـ أن أكون قد وُفّقت إلى ما يحبُّه ويرضاه في إيصال المعلومة الخيّرة التي تُنير سُبُلَ الهدى لدينا، وتجنِّبنا المنزلقات واتّباع الشهوات، إنّه على ما يشاء قدير.

المصادر والمراجع

ـ القرآن الكريم.

ـ **إخبار العلماء بأخيار الحكماء: القفطي**، الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن القاضي الأشرف يوسف القفطي المتوفى سنة 646هـ، مكتبة المتنبي ـ القاهرة.

ـ **أخلاق الطبيب**: **الرازي، محمد بن زكريا**، تحقيق عبد اللطيف العبد، طبعة دار التراث بالقاهرة 1977م

ـ **أدب الطبيب**: **الرهاوي**، إسحاق بن علي (توفي في القرن الرابع الهجري)، تحقيق الدكتور مريزن عسيري، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، طبعة 1992م.

ـ **الأعلام: الزركلي**، خير الدين، الطبعة الرابعة عشرة 1999م، دار العلم للملايين بيروت.

ـ **أعلام الحضارة العربية الإسلامية** في العلوم الأساسية والتطبيقية: **حميدان**، زهير، وزارة الثقافة ـ دمشق 1996م.

ـ **بحر الجواهر في تحقيق المصطلحات الطبية**: **الهروي**، محمد بن يوسف (924هـ)، طبعة كلكتا 1830م. وطبعة طهران 1871م.

ـ **بردية في الجراحة: سميث**، إدوين. من منشورات مكتبة الطب بواشنطن، ترجمة الدكتور محمد ياسر زكور، قيد النشر.

ـ **بستان الأطباء وروضة الألباء: ابن المطران**، أسعد، مخطوط نسخة مجلس شورى بطهران 3821.

ـ **تاريخ البيمارستانات** في الإسلام: **عيسى**، أحمد، مطبوعات جمعية التمدن الإسلامي بدمشق 1939م.

ـ **تاريخ التعليم الطبي** في البلاد العربية: **شحادة، محمد كمال**، معهد التراث بجامعة حلب، 2000م.

ـ **تاريخ الطب والأطباء في إدلب الخضراء**: زكّور، محمد ياسر، طبعة دار الفتاة بدمشق 2009م.
ـ **تاريخ الطب وآدابه وتشريعاته**: **دبسي**، فيصل، منشورات جامعة حلب 2004م
ـ **تذكرة داود** المسمى تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب: **الأنطاكي**، داود بن عمر، مجلدين، مؤسسة الكتب الثقافية، دار الفكر، بيروت 1996م.
ــ **تسهيل المنافع في الطب والحكمة**: **الأزرق**، إبراهيم بن عبد الرحمن (كان حياً890هـ)، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ـ القاهرة 1948م.
ــ **التشويق الطبي**: **الرحبي**، صاعد بن الحسن (كان حياً سنة 464هــ وقيل 475هـ)، تحقيق ونشر أوتو شبيس، جامعة بون، 1968.
ـ **التصريف لمن عجز عن التأليف**: **الزهراوي**، خلف بن عباس، (تحوي بعض المقالات)، إعداد الصيدلي محمد يحيى خراط، رسالة قدمت لنيل درجة الماجستير في تاريخ العلوم الطبية، جامعة حلب — معهد التراث 1991 ـ 1992م.
ــ **التنبيه والإشراف**: **المسعودي**، أبو الحسن علي بن الحسين، طبعة القاهرة 1938م.
ـ **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية**: **ابن البيطار**، ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد الأندلسي المالقي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، 1992م.
ـ **الحاوي في الطب**: **الرازي**، أبو بكر محمد بن زكريا الطبيب المتوفى سنة 313هـ، مراجعة وتصحيح محمد محمد إسماعيل، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان 2000م، 8 مجلدات.
ـ **حلية الأولياء**: **الأصفهاني**، أبو نعيم أحمد بن عبد الله ، المتوفى 430هـ، مكتبة الخانجي ومطبعة السعادة بمصر 1932م.
ـ **الرسالة الشهابية في الصناعة الطبية**: **المارديني**، جمال الدين محمد بن إبراهيم (833 ـ 886هـ)، تحقيق الدكتور محمد ياسر زكور، تحت الطبع، دار البارودي ـ بيروت.
ـ **الزهراوي في الطب لعمل الجرّاحين**: **الزهراوي**، أبو القاسم خلف بن عباس، تحقيق الدكتور محمد ياسر زكور، وزارة الثقافة بدمشق 2009م.
ـ **شخصيات الطب العربي** في لوحات: **قطاية**، سلمان، ومغاربة، وحيد 1983م.
ـ **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**: **ابن العماد الحنبلي**، أبو الفلاح عبد الحي

(المتوفى سنة 1089هـ/1678م)، دار ابن كثير، دمشق بيروت، 1993م. تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، (11 مجلد).
ـ **شرح تشريح القانون: ابن النفيس،** أبو الحسن علاء الدين ابن أبي الحزم القَرْشي الدمشقي، تحقيق سلمان قطاية ومراجعة بول غليونجي، المجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1988م.
ـ **شرف الطب: ابن رضوان،** علي (388 ـ 460هـ)، مخطوط استانبول ــ حكيم أوغلي برقم 3 ـ 691 ـ ف ـ 894.
ـ **صبح الأعشى في صناعة الإنشا: القلقشندي،** أبو العباس أحمد بن علي (توفي 821هـ)، دار الكتب الخديوية بالقاهرة، طبعة 1914م.
ـ **الطب الملوكي: الرازي،** أبو بكر محمد بن زكريا، تحقيق د. ياسر زكور، دار المنهاج ـ جدة 2009م.
ــ **الطب النبوي**: الجوزية، **ابن قيم،** محمد بن أبي بكر، توثيق عبد المعطي قلعجي، دار قتيبة ـ دمشق وبيروت 2000م.
ـ **الطب النبوي: الذهبي**، محمد بن أحمد، طبع على هامش تسهيل المنافع في الطب والحكمة لإبراهيم بن عبد الرحمن الأزرق، مؤسسة الحلبي وشركاه ــ القاهرة 1948م.
ـ **طبقات الأطباء والحكماء: ابن جلجل،** سليمان بن حسان، ألّفه سنة 377هـ، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة 1955م.
ـ **طبقات الأمم**: القاضي أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسي (توفي 462هـ)، ، نشره الأب لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت 1912.
ـ **عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ابن أبي أصيبعة،** موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي، شرح وتحقيق نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت، 1965م.
ــ **غاية الإتقان في تدبير بدن الإنسان: ابن سلّوم**، صالح بن نصر الله (توفي 1081هـ)، مخطوط نسخة إستانبول ـ ولي الدين برقم 2520.
ـ **غاية البيان في تدبير بدن الإنسان: ابن سلّوم**، صالح بن نصر الله، مخطوط نسخة واشنطن برقم MS30.

ـ **الفن الإسلامي**: رايس، تالبوت دافيد، ترجمة منير صلاحي الأصبحي، مطبعة جامعة دمشق 1977م.

ـ **الفهرست: النديم**، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب، دار الكتب العلمية ـ بيروت 2002م.

ـ **فوائد الارتحال ونتائج السفر في أخبار أهل القرن الحادي عشر: الحموي**، مصطفى بن فتح الله (توفي 1123هـ)، مخطوط في دار الكتب الوطنية بالقاهرة، برقم 1093، وبرقم 3187.

ـ **قاموس الأطبّا وناموس الألبّا: القوصوني**، مدين بن عبد الرحمن، مخطوط، مصورات مجمع اللغة العربية بدمشق 1979م.

ـ **القانون في الطب: ابن سينا**، أبو علي الحسين بن علي، طبعة جديدة بالأوفست عن طبعة بولاق، دار صادر، بيروت.

ـ **كامل الصناعة الطبية: المجوسي**، علي بن عباس (القرن الرابع الهجري)، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية بجامعة فراانكفورت بألمانيا 1996م.

ـ **كتاب الخواص: الرازي**، أبو بكر محمد بن زكريا، مخطوط نسخة دار الكتب المصرية برقم 4/141 طب 441.

ـ **كشف الخفاء** ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس: **العجلوني** الجراحي، المحدث الشيخ إسماعيل بن محمد، المتوفى سنة 1163هـ، مكتبة القدسي 1351هـ.

ـ **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: حاجي خليفة**، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي الشهير بالملا كاتب الحلبي والمعروف بحاجي خليفة، دار الفكر، بيروت ـ لبنان 1992م.

ـ **محنة الطبيب: الرازي**، محمد بن زكريا، مجلة المشرق ـ 54، سنة 1960م، تحقيق أ.ز. إسكندر.

ـ **المختارات في الطب: ابن هبل**، علي بن أحمد البغدادي، حيدر آباد ــ 1362 هـ

ـ **المرشد وهو المدخل في صناعة الطب**: الرازي، محمد بن زكريا، مخطوط الجامعة الأمريكية ببيروت رقم 109.

ـ **مسائل وأجوبتها: ابن شعيا**، دانيال، مخطوط نور عثمانية ـ استانبول برقم (2/3576).
ـ **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: العمري،** ابن فضل الله، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى، تحقيق محمد عبد القادر خريسات وعصام مصطفى عقلة ويوسف أحمد بني ياسين، مركز زايد للتراث والتاريخ، 2001م.
ـ **معالم القربة في أحكام الحسبة: ابن الأخوة**، محمد بن محمد الأشعري (توفي سنة 729هـ): ، مخطوط رقم 5023 بمكتبة جامعة الملك سعود.
ـ **معجم أسماء النبات: عيسى،** أحمد، دار الرائد العربي 1981م.
ـ **معجم البلدان الحموي،** ياقوت، دار صادر، بيروت 1995م، 7 مجلدات.
ـ **معجم الحيوان: المعلوف**، أمين، دار الرائد العربي، بيروت 1985م.
ـ **معجم المؤلفين: كحالة،** عمر رضا، مؤسسة الرسالة، بيروت 1993م.
ـ **المغْني في تدبير الأمراض ومعرفة العلل والأعراض:** ابن هبة الله، سعيد (436 ـ 495هـ)، تحقيق الدكتور محمد ياسر زكّور، طبعة دار المنهاج بجدة 2010م.
ـ **منهاج الدكان ودستور الأعيان** في أعمال وتركيب الأدوية النافعة للأبدان: **ابن أبي نصر**، داود، أبو المنى العطار الإسرائيلي الهاروني (كان حياً 658هـ): ، طبع سنة 1287هـ في عهد الخديوي إسماعيل، على ذمة الشيخ حسن زغلة، بمطبعة حسين بك حسني.
ـ **النافع في تعليم صناعة الطب: ابن رضوان**، علي، مخطوط تشستربتي 5019.
ـ **نزهة الأذهان في إصلاح الأبدان: الأنطاكي**، داود بن عمر، تحقيق الدكتور ياسر زكّور، وزارة الثقافة، دمشق، 2007م.
ـ **نهاية الرتبة في طلب الحسبة: الشيزري**، عبد الرحمن بن نصر، نشره الباز العريني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة عام 1946م
ـ **هدية العارفين أسماء المؤلفين والمصنفين: البغدادي،** إسماعيل باشا بن محمد أمين بن مير سليم البابانى أصلاً والبغدادي مولداً وسكناً، وهو المجلدان الخامس والسادس من كشف الظنون لحاجي خليفة. دار الفكر، بيروت ـ لبنان، 1992م.

فهرس المحتويات

كتب للمؤلف

- **نزهة الأذهان** في إصلاح الأبدان لداود الأنطاكي (تحقيق) وزارة الثقافة السورية ـ دمشق.
- **الزهراوي في الطب** لعمل الجرّاحين لأبي القاسم الزهراوي (تحقيق)، وزارة الثقافة السورية ـ دمشق.
- **المُغْني** في تدبير الأمراض لسعيد بن هبة الله (تحقيق)، دار المنهاج بجدة.
- **الطب المُلوكي** لأبي بكر الرازي (تحقيق)، دار المنهاج بجدة.
- **تارخ الطب والأطباء** في إدلب الخضراء (تأليف)، دار الفتاة بدمشق.
- **الأسرة في التراث** الطبي العربي والإسلامي (تأليف)، وزارة الثقافة السورية ــ دمشق.
- **الرسالة الشهابية في الصناعة الطبية لجمال الدين محمد بن إبراهيم المارديني** (تحقيق)، دار البارودي ـ بيروت.
- **غاية الغرض في معالجة المرض، للشريف منصور الحسيني،** (تحقيق) دار البارودي ـ بيروت.
- **غاية الإتقان في تدبير بدن الإنسان لصالح بن نصر الله الحلبي،** (تحقيق)، دار البارودي ـ بيروت.
- **غاية البيان في تدبير بدن الإنسان لصالح بن نصر الله الحلبي،** (تحقيق).

الدكتور محمد ياسر زكّور

M.D اختصاصي بأمراض الأذن والأنف والحنجرة وجراحتها

باحث في تاريخ العلوم الطبية

عضو الجمعية السورية لتاريخ العلوم

عضو اتحاد الكتاب العرب

ص.ب : 308 سوق الصاغة ـ إدلب ـ سورية.

هاتف : 0096323239350 ـ 0096323238595 – 0096323230857 ـ

خليوي : 00963933239350

بريد إلكتروني : yzakkour@scs ـ net.org

yzakkour@hotmail.com